من أعلام الإسلام

صفحات من البطولة.. وصور من الفدائية

تأليف
الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة
جمع وإعداد
الشيخ أحمد مصطفى فضلية
شيخ معهد محلة دياي الأزهري
تقديم
أ.د/ عبد العظيم إبراهيم المطعني
الأستاذ بجامعة الأزهر

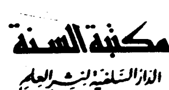
مكتبة السنة

الطبعة الأولى لمكتبة السنة بالقاهرة

١٤٢٨ هـ = ٢٠٠٧م

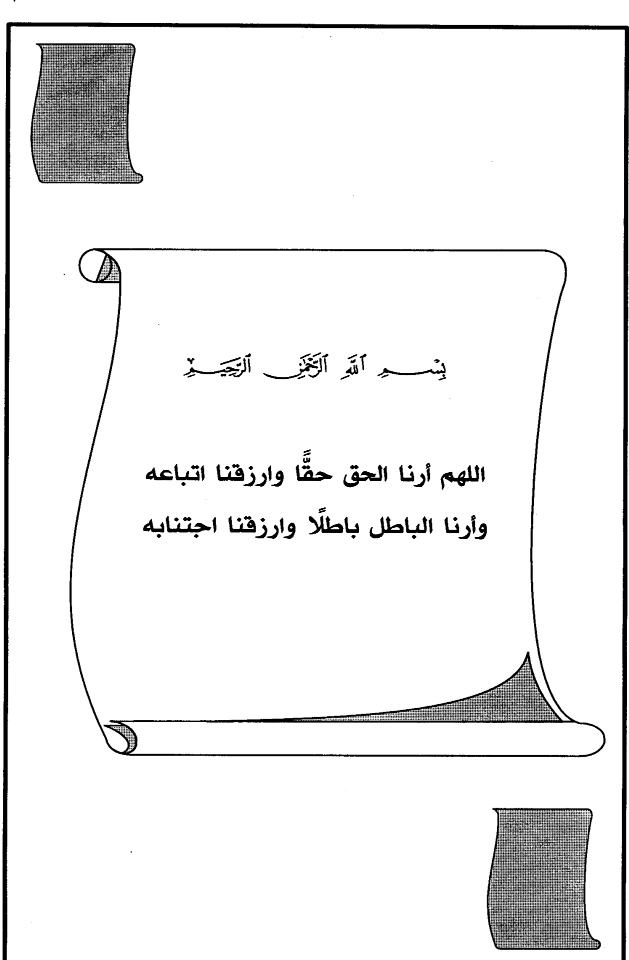
مكتبة السنة
بالقاهرة

رقم الإيداع : ٩٦٦٦ / ٢٠٠٧
طبع بدار نوبار للطباعة





القاهرة : ٨١ شارع البستان - ميدان عابدين «ناصية شارع الجمهورية»
تليفون : ٣٩٠٠٣١٨ - ٣٩١٣٥٣٢ فاكس : ٣٩١٣٥٣٢ - تلكس: ٢١٧١٩ TLTHRB UN
ص . ب : ١٢٨٩ - الرمز البريدى : ١١٥١١


بسم الله الرحمن الرحيم
اللهم أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه
وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَبَسٌ من الذكر الحكيم

١ - ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب : ٢٣].

٢ - ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح : ٢٩].

❁ ❁ ❁

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم
بقلم الأستاذ الدكتور
عبد العظيم إبراهيم المطعني
الأستاذ بجامعة الأزهر

هذا الكتاب الذي بين يديك دعامة من دعائم التربية القويمة، وهو عبارة عن مقالات سيارة نشرها العالم الفاضل والمربي الجليل: الدكتور الشيخ محمد بن محمد بن سويلم أبو شهبة «وهو أحد علماء الأزهر الشريف الشوامخ، وعمود من أعمدة العلم بكلية أصول الدين في الجيل الماضي، استمتعنا بمحاضراته العامة ودروسه في منتدى جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة حين كنا طلابًا بثانوي الأزهر وكلياته، وكان عالمًا تقيًّا ورعًا يحمل هموم الأمة صباح مساء، وله في مجال الدعوة إلى الإسلام والذود عنه جهد مشكور عند اللَّه وعند الناس».

وهذه المقالات التي يحويها هذا الكتاب وإن كانت متفرقات فإنها تخدم غرضًا واحدًا من أغراض الدعوة؛ هو غرس جذور التربية الحسنة، واستقامة السلوك في الأقوال والأفعال وحضور القدوة الحسنة من سلف الأمة في مشاعر النشء ووجداناتهم من خلال عرض النماذج والصور التربوية تمهيدًا لمحاكاتها والاقتداء بها؛ لأن الشخصيات التي عرضها مؤلف هذه المقالات كانت تجمع في سلوكها في الحياة بين القيم والمبادئ الإسلامية، والعمل بها في آن واحد، وأمتنا الإسلامية غنية بهذا الصنف من الناس في شتى المجالات، حتى مضرب الأمثال في صفاء السريرة ونبل الخلق والالتزام في حياتهم بما شرعه اللَّه تعالى، ودعا عباده إلى التحلي به: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠].

إن أمتنا فيها مشاعل هدى ونماذج من القدوة الحسنة في مجالات الحياة من الكرم والبطولة والعلم والإيثار والصدق والتقوى والعبادة والنجدة والإغاثة والصلاح، ما

عُرض في هذا الكتاب منها تراه في مرحلته الثالثة من وجوده واستمراره.

المرحلة الأولى: حين كانت وقائع حية صدرت عن صانعيها المذكورين في هذا الكتاب.

أما المرحلة الثانية: فهي وجودها في كتب التراث الإسلامي، وما أكثرها.

المرحلة الثالثة: قيام الشيخ أبي شهبة بإخراجها من كتب التراث، ثم نشرها في الصحف والمجلات السيارة التي صدرت في حياته منذ أكثر من نصف قرن من الزمان، ونحن نعلم أن الذي يُنشر في الصحف يتبخر بسرعة في بضعة أيام، ولا يمكن الرجوع إليه إلا بصعوبة بالغة، أما هذا الكتاب فيعد ختام المسك لتلك المراحل؛ لأنه يعيش أعمارًا طوالًا .

مِن أجل هذا قام فضيلة الشيخ : أحمد فضلية - أجزل اللَّه له الثواب - بجمع تلك المقالات من الصحف المتناثرة التي كان يحتفظ بها الشيخ : أبو شهبة في منزله وحققها تحقيقًا علميًّا مسددًا بالرجوع إلى كتب التراث التي نقل عنها الشيخ أبو شهبة. هذه النماذج الرائعة من سيرة السلف الصالح، ومنهم بعض أصحاب رسول اللَّه ﷺ، وقام بتركيبها وتنسيقها حسب البيان الذي ذكره في المقدمة تسهيلًا لتحصيل الفائدة من هذا السجل التاريخي الأخلاقي البطولي الإيماني، وهو عمل شاق وجهد كبير يعرفه من مارس الكتابة والبحث العلمي المنسق.

والغرض من نشر هذه النماذج هو إمداد القراء، وبخاصة الشباب، بصورة جذابة من سيرة السلف الصالح تمهيدًا لمحاكاتها في حياتنا اليومية، وحماية لشباب الأمة من الزيغ والانحراف، وبخاصة في هذا الزمن الذي طغا شره وغاض خيره، وعم فساده وقل صلاحه، وكثرت السبل التي تفرق عن سبيل الله، وعلى كل سبيل - كما جاء في الحديث -: « **شيطان يدعو إليها** ».

إنه عمل رائد يهيئ أسباب العصمة والاستقامة، لقد وددت - وأنا أقرأ مخطوطة هذا الكتاب - أن يقتنيه كل مسلم له ولأولاده ليملأوا به خواء قلوبهم ووقت فراغهم، ويتخذوا من هذه النماذج منهجًا يحتذون به في حياتهم، ولينموا صلتهم بصالح الأعمال.

وفي الختام لا يفوتنا أن نسجل ثناءنا للقائمين على مكتبة السنة بالقاهرة، التي

أخذت على نفسها عهدًا ألا تنشر إلا ما هو مفيد للمسلم في دنياه ودينه.

كما لا يفوتنا أن ندعوا للشيخ أحمد فضلية بجزيل المثوبة على اهتمامه بنفائس وذخائر تراث علمائنا الأعلام، وهذا هو الجهاد الأكبر لنصرة الحق الذي أنزله اللّه لتحيا به الأمة صاحبة الرسالة الخاتمة، وراعية عقيدة التوحيد وحامية أخلاقها، فاللهم تقبل منا ومنهم صالح أعمالنا، وتجاوز عن هفواتنا، ونحن إن شاء اللّه على درب الحق سائرون.

عبد العظيم المطعني
عفا اللّه عنه

القاهرة - الدمرداش
في ١٦ من ذي القعدة ١٤٢٦هـ
١٨ من ديسمبر ٢٠٠٥م

ترجمة العلامة الدكتور

محمد بن محمد بن سويلم أبو شهبة

١ - وُلد رحمه اللَّه بقرية « منية جناج » الواقعة على ضفاف نهر النيل فرع رشيد التابعة لمركز ومدينة دسوق - محافظة كفر الشيخ - في ٢٥ شوال ١٣٣٢هـ - ١٩١٤/٩/١٥م .

٢ - أَتَمَّ حفظ نصف القرآن الكريم بكُتَّاب القرية إلى جانب تعلم القراءة والكتابة ، وأصول الدين .

ولما فتحت المدارس الأولية التحق بمدرسة قريته فأتم بها حفظ القرآن الكريم ، وأخذ الشهادة الأولية في سن الثانية عشرة .

٣ - في عام ١٣٤٤هـ - ١٩٢٥م دخل معهد دسوق الديني .

وفي عام ١٣٤٨هـ - ١٩٣٠م التحق بمعهد طنطا الثانوي .

وفي عام ١٣٥٣هـ - ١٩٣٥م التحق بكلية أصول الدين .

٤ - وفي عام ١٣٥٧هـ - ١٩٣٩م أخذ الشهادة العالية ، وكان من الأوائل فالتحق بقسم الدراسات العليا « شعبة التفسير والحديث » .

وفي عام ١٣٦٣هـ - ١٩٤٤م نجح في الامتحان التمهيدي للعالمية من درجة أستاذ .

وفي ذي الحجة ١٣٦٥هـ - نوفمبر عام ١٩٤٦م نوقش في رسالة « الدكتوراة » أمام لجنة خماسية من كبار العلماء فنالها بدرجة الامتياز .

٥ - وفي رجب ١٣٨٤هـ - ديسمبر من عام ١٩٦٤م عُين مدرسًا بكلية أصول الدين ثم رقي إلى أستاذ مساعد ، ثم أستاذ .

وفي رجب ١٣٨٩هـ - أكتوبر ١٩٦٩م عين عميدًا لكلية أصول الدين بأسيوط : أول كلية بأول فرع أنشئ لجامعة الأزهر في مصر ، وما زال يسير بالكلية قدمًا حتى اكتملت سنواتها الأربع في عام ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م وتخرجت أول دفعة في هذا العام ، وظل يسعى حتى أنشأ بفرع الجامعة كلية الشريعة والقانون ، وكلية اللغة العربية .

٦ - في مطلع حياته العلمية أعير إلى المملكة العربية السعودية للتدريس بالمعهد العالي السعودي الذي صار كلية للشريعة ، وشارك في وضع المناهج الدينية والعلمية في القطر الشقيق .

٧- وفي عام ١٣٤٢هـ - ١٩٦٣م أعير إلى كلية الشريعة بجامعة بغداد فمكث بها عامًا واظب فيه على درس الجمعة في مسجد الإمام أبي حنيفة النعمان .

٨- وفي عام ١٣٤٥هـ - ١٩٦٦م أعير للجامعة الإسلامية بأم درمان بالسودان فمكث فيها نحو ثلاث سنوات ، كانت توفده الجامعة كل رمضان إلى غرب السودان .

٩- ظل يكتب في كبرى المجلات الدينية والعلمية والأدبية في مصر وغيرها من بلاد الإسلام والعروبة وألقى الكثير من المحاضرات ، وحضر الكثير من الندوات .

١٠- قام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى اللَّه بالحكمة والموعظة الحسنة ، فأذاع في الإذاعة المرئية والمسموعة في مصر ، وفي المملكة العربية السعودية ، وفي العراق وفي السودان .

١١- اهتم بالتأليف في القرآن الكريم وعلومه ، والسنة النبوية المشرفة وعلومها والفقه والتشريع والسيرة النبوية والرد على المستشرقين ، والمبشرين والملحدين .

١٢- كَوَّنَ مدرسة علمية من طلابه ومريديه تعني بالقرآن وعلومه ، والسنة وعلومها ، في مصر وغيرها من البلاد الإسلامية والعربية .

١٣- **وفاته :**

ظل الدكتور أبو شهبة في ساحة الدعوة الإسلامية عاملًا مناضلًا، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويؤمن بالله، ويقوم بحق العلم قولًا وعملًا حتى انتقل إلى جوار ربه في أيام مباركة - أيام عيد الفطر ، بعد فريضة الصيام في صباح يوم الجمعة الموافق ٥ شوال ١٤٠٣هـ - ١٥/٧/١٩٨٣م عن عمر يناهز تسعة وسبعين عاما قضاها عالمًا عاملًا وداعية مجاهدًا .

وشُيعت جنازته من الجامع الأزهر الشريف، فصلى عليه جمع غفير من علماء الأزهر وطلابه، يؤمهم الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق علي جاد الحق رحمه اللَّه ورضي عنه ، ودفن بمدافن الأسرة بمدينة نصر .

وكان لنبأ وفاة الشيخ وقع أليم في نفوس كل من نهل من علمه وأدبه ليس في مصر بلد الأزهر فحسب ، بل في المملكة العربية السعودية والعراق والسودان والشام ، وبكاه المسلمون الذين استمعوا لأحاديثه الإذاعية في مصر والسعودية ومحاضراته وندواته في العراق والسودان ، رحمه اللَّه جزاء ما قدم من علم نافع لدينه وأمته .

١٤- مؤلفاته :

أولًا : التراث المخطوط :

توفيق الباري في شرح صحيح البخاري[1] .

ثانيا : الكتب التي طبعت ونشرت في حياة الشيخ رحمه الله :

١- المدخل لدراسة القرآن الكريم « مجلد » : مكتبة السنة .

٢- أعلام المحدثين « مجلد ».

٣- السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة « مجلدان » : دار البشير جدة.

٤- في أصول الحديث .

٥- علوم الحديث « ثلاثة أجزاء » .

٦- شرح المختار من صحيح مسلم « ثلاثة أجزاء ».

٧- دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين « مجلد » : مكتبة السنة .

٨- الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير « مجلد » : مكتبة السنة .

٩- الحدود في الإسلام مقارنة بالقانون الوضعي : مجمع البحوث .

١٠- الوسيط في علوم الحديث « مجلد »: مكتبة السنة .

١١- رسالة في الإسراء والمعراج : مكتبة السنة .

١٢- في رحاب الكتب الستة : مجمع البحوث .

١٣- الربا في نظر الإسلام : مكتبة السنة .

١٤- تفسير سورة الواقعة.

ثالثًا : الكتب التي جمعت وأعدت للنشر من مقالاته وبحوثه « نشر مكتبة السنة » :

١- من هدي السنة في الدين والحياة : جمع وإعداد الشيخ أحمد مصطفى فضلية .

٢- من أعلام الإسلام : جمع وإعداد الشيخ أحمد مصطفى فضلية .

٣- الحج في ضوء القرآن والسنة : جمع وإعداد الشيخ أحمد مصطفى فضلية .

٤- الصوم في ضوء القرآن والسنة : جمع وإعداد الشيخ أحمد مصطفى فضلية .

---

(١) هذا الكتاب يقع في نحو خمسة عشر مجلدًا، ولم ير النور حتى الآن. [مركز السنة].

٥- الإسلام وقضايا العصر ؛ جزءان : جمع وإعداد الشيخ أحمد مصطفى فضلية .

٦- قضايا وأراء في ضوء الإسلام : جمع وإعداد الشيخ أحمد مصطفى فضلية .

٧- دراسات قرآنية .

٨- الإسلام وإصلاح المجتمع .

رابعًا : كتب تناولت سيرته وجهوده في خدمة الإسلام :

١- الدكتور محمد أبو شهبة وجهوده في السنة النبوية ؛ رسالة ماجستير ، للباحث محمود رحمة ، مودعة بكلية أصول الدين بالقاهرة ، « لم تطبع » .

٢- الدكتور محمد أبو شهبة - حياته وآثاره ، بقلم الشيخ أحمد مصطفى فضلية . « تحت الطبع » .



مقدمة الكتاب

الحمد للّه الذي قيض لهذا الدين رجالًا أولي بأس شديد ساحوا به في مشارق الأرض ومغاربها، ينشرون العدل، ويرفعون الظلم عن الناس؛ فأمنوهم في معاشهم ومعادهم، والصلاة والسلام على مربي القادة العظام، والفاتحين الأبرار محمد بن عبد الله عليه أتم صلاة وأزكى سلام، ومن تبعه بإحسان وجهاد إلى يوم الدين.

وبعد:

فتاريخ الإسلام يقول: «إن قادته الأعلام كانوا يحبون الناس ولا يكرهونهم، وحبهم هذا هو الذي دفعهم ويدفعهم إلى التضحية في سبيل إسعادهم، والنفس المحبة للناس نفس صافية سموح؛ وتتمثل أعلى درجات الحب في الحرص على إنقاذهم من النار، بإبعادهم عن الإثم»[1].

ومن هنا اهتم العلماء والأدباء بتدوين سير الأعلام المسلمين لهداية الناس إلى كل ما هو خير.

وقد اهتم الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة رحمه اللّه بكتابة دراسات وتراجم عن بعض أعلام الإسلام، متلمسًا خطوط حياة صاحب الترجمة من خلال الأحداث التي عاشها في ظل العقيدة الإسلامية.

فلا يفصم بينه وبين ذلك المجتمع الذي نشأ فيه، فهو ابن العقيدة التي أنشأت هذا المجتمع، وهو المسلم الصادق الطائع في كل أمر وكل ظرف.

ولهذا اهتم الشيخ - رحمه اللّه - بهذا الإطار الزماني والمكاني، كما اهتم بفهم الأحداث التي أحاطت بالعلم لتساعدنا على فهم النموذج الذي يريد إبرازه كواحد من النماذج التي رباها الإسلام العظيم.

ويؤكد هذا المنحى التربوي الهام الكاتب الأديب محمد حسن بريغش رحمه اللّه في أحد تراجمه فيقول: «في تاريخنا الإسلامي كثير من النماذج الإنسانية التي ارتفعت بالإسلام، وقوي بها الإسلام حتى أصبحت في مصاف الأبطال العظماء وقد كانوا في

(١) العبارة للدكتور محمد روّاس قلعه جي، انظر موسوعة فقه إبراهيم النخعي، الجزء الأول، الطبعة الأولى ص ٦٢.

عامة الناس، يبادلونهم حبًّا بحب.

وهذه النماذج المؤمنة بحق تعطينا صورًا متنوعة من صور الرجال الذين تربيهم العقيدة، فيصبحون نماذج فريدة بين أشباههم، تنعكس على صفحات حياتهم ألوان الحياة المادية والمعنوية، وتتمثل في سلوكهم في شتى المجالات الإنسانية وفي كافة الظروف، ولكنهم في هذا وذاك يظهر أثر العقيدة الربانية التي تتعهد نشاطات الإنسان، وتقيمها على أسس الفطرة السليمة حتى تغدو ثمارها رائعة متميزة »[1].

لهذا اهتم الشيخ أبو شهبة بتقديم نماذج مختلفة من أعلام المسلمين فأخذ يقرأ تاريخنا وينقب فيه بصبر عن النماذج الرائدة ويقدمها للشباب، ليتأسوا بها، ويضعها من نفسه موضعها اللائق.

لقد كتب الشيخ هذه التراجم في وقت كان شباب الأمة المسلمة في حاجة إليها، فإن هذه الأمة التي نصرها اللّه بالإسلام في مواطن كثيرة، وأعزها به لا يمكن أن تنتصر بغيره من المبادئ، وأن اللّه الذي ينهانا أن نتخذ أعداءنا أولياء لا يمكن أن يقدر لنا النصر بهم، لهذا كان علينا أن نعيد الدعوة لهؤلاء الذين ضلوا السبيل؛ لكي يعودوا إلى الطريق القويم، فبالإسلام انتصرنا من قبل، وبه ننتصر من بعد، ولن ينفعنا زخرف المبادئ المستوردة أو بريق الدعوات المرقعة من الشرق والغرب، ولا يستطيع أولئك الذين آمنوا بمبادئ الأعداء إلا أن يكونوا لهم أولياء، فكيف يعتمد عليهم في التحرير والفداء؟

أدرك هذا كله الشيخ أبو شهبة رحمه الله، فكتب مادة هذا الكتاب الذي أسميته: « **من أعلام الإسلام... صفحات من البطولة... وصور من الفدائية** »، والذي يسعدنا أن نقدم مادته لقراء اليوم لينتفعوا بها كما انتفع بها قراء الأمس.

ولم يكن شيخنا العلّامة رحمه اللّه بما كتبه ها هنا عن هؤلاء الأعلام المسلمين يهدف إلى تقديم سيرة تاريخية، إنما هدف إلى تقديم الأسوة الحسنة، والقدوة الصالحة، في عصر اختلفت فيه الموازين، وضاعت فيه القيم أو كادت، وكان أمله في اللّه كبيرًا أن يرعى نبت الصحوة الإسلامية وقد شهد نموها المتنامي والمتصاعد، لهذا أدرك حاجة الصحوة إلى منهج إسلامي يجدد لها دينها ومعالم طريقها، وإلى القدوة الصالحة التي

---

(١) محمد حسن بريغش - مقدمته لكتابه « خالد بن سعيد بن العاص ».

توجه خطواتها حتى لا تضل، أو يصيبها الزلل والانحراف.

فكان هدفه الأسمى من كتابته لهذه التراجم من أعلام المسلمين أن تكون غذاءً روحيًّا للقارئ المؤمن، ومثلًا عاليًا للدارس المنصف، وأن يكون فيها قدوة للمجاهدين، وأسوة للموقنين، وعظة للمعتبرين، وصلة بين السابقين واللاحقين.

فها هو ذا يدعونا إلى تجسيد هذه المعاني بقوله:

« فيا شباب الإسلام وجنوده؛ هذا طريق المجد فانهجوه، وسبيل العزة فاسلكوه، وهؤلاء آباؤكم الذين هدوا الدنيا، ورفعوا راية العدل والأمان، وأدالوا دول الظلم والاستبداد، وعلموا الدنيا كيف يكون التسامح عند النصر والغلب، فليكن لكم فيهم أسوة حسنة، وأعيدوا على مسمع الزمان هذه المآثر الحميدة، وبينوا للعالم أن المسلمين مازالوا هم المسلمين، وما أجدر الباحثين بنشر هذا التاريخ المجيد لرجالات الإسلام والكشف عن هذه الصحائف المطوية لتكون عبرة وذكرى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] .

والمؤكد أننا سنتعلم من تراجم هؤلاء الأعلام، نتعلم الثبات على الحق، والصبر على الأهوال، وتحمل الشدائد مهما كانت، والطاعة، والنظام، والاندفاع للجهاد، والتضحية بالغالي والنفيس، لإعزاز لواء الحق، وإزهاق الباطل، والإيمان بأن الشر سيزول مهما انتفش وتعالى.

ومما لا شك فيه أن هذا الكتاب - الذي جمعنا مادته من أمهات الصحف والمجلات في عصر الشيخ - من الثمرات الطيبة التي تركها، والعلم النافع الذي ينتفع به إن شاء اللّه رب العالمين.

هذا، وقد قمت بترتيب مادة هذا الكتاب على هذا النحو:

١- من أعلام الصحابة.
٢- من أعلام النساء.
٣- من أعلام التابعين.
٤- من أئمة الإسلام.
٥- البطولة في الإسلام.
٦- صور من الفدائية.
٧- من أعلام مكة المكرمة في العصر الحديث.

واللّه أسأل أن يتحقق هدف الكتاب بالإسهام في تربية الشباب المسلم، ليخوض

بإيمانه وإسلامه معترك الحياة بكل طاقاته، فيهديها للتي هي أقوم.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تحريرًا في مكتبة الدكتور محمد أبو شهبة

الثلاثاء الموافق: ٤ من ربيع الأول سنة ١٤٢٧هـ
٢ من إبريل سنة ٢٠٠٦م

كتبه الفقير إلى عفو الله

أحمد مصطفى فضلية

شيخ معهد محلة دياي الأزهري

بين يدي الكتاب

الجهاد في الإسلام[1]

تشريع الجهاد في الإسلام :

لقد مكث النبي ﷺ ثلاثة عشر عامًا بمكة، وهو يدعو إلى اللّٰه بالحكمة والموعظة الحسنة، وقد حارب أهل مكة الدعوة الإسلامية حربًا لا هوادة فيها، وآذوا النبي وأصحابه إيذاءً تجاوز كل معاني الإنسانية ومع هذا كان المسلمون يزدادون عددًا وقوةً وصلابةً في التمسك بدينهم، وكان اللّٰه سبحانه ينزل على نبيه من الآيات ما يقوي عزيمته وعزائم أصحابه، ويثبتهم على الصبر والتحمل، وذلك مثل قوله سبحانه: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المدثر: ١٠]، وقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]، وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧].

وكان المسلمون كثيرًا ما يأتون إلى النبي ﷺ ما بين مضروب ومشجوج ومعذب، شاكين إليه، فيثبتهم ويضرب لهم الأمثال والعظات، ويقول لهم: « اصبروا فإني لم أؤمر بقتال»، ويقول: « لقد كان الرجل من قبلكم يضرب بالسيف من مفرق رأسه إلى أخمص قدميه ما يصرفه ذلك عن دينه، وكان يمشط بأمشاط الحديد دون عظمه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، وَلَيُتِمَّنَّ اللّٰه هذا الأمر - يعني الإسلام - حتي يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه». رواه البخاري وأحمد.

وقد تحمل المسلمون بفضل التربية المحمدية - ولا سيما الفقراء والأعبد ومن لا عصبة له منهم - من صنوف العذاب والبلاء ألوانا، فما صرفهم ذلك عن دينهم، وما تزعزعت عقائدهم، وصمدوا صمود الأبطال مع قلتهم وفقر الكثير منهم وما سمعنا أن أحدًا منهم ارتد سخطة عن دينه، أو أغرته مغريات المشركين في النكوص عنه، وإنما

---

(١) مجلة الوعي الإسلامي، السنة ٣، عدد ٢٨، ربيع الثاني سنة ١٣٨٧هـ، الموافق يوليو ١٩٦٧م.

كانوا كالذهب الإبريز، لا تزيده النار إلا صفاء ونقاوة، وكالحديد لا يزيده الصهر إلا قوة وصلابة، بل بلغ من بعضهم أنهم وجدوا في العذاب عذوبة، وفي المرارة حلاوة، وفي الآلام آمالا.

ثم كان أن هاجر بعضهم إلى بلاد الحبشة هجرتين، ثم هاجروا جميعًا إلى المدينة تاركين الأهل والولد والمال والوطن، متحملين آلام الاغتراب، ومرارة الفاقة والحرمان، وإن كانوا قد وجدوا في أهل المدينة أهلًا بأهل، وجيرانًا بجيران، ووطنًا بوطن، ولا سيما بعد أن عقد النبي ﷺ بينهم وبين إخوانهم الأنصار عقد التآخي والتحاب في اللَّه، هذا العمل البارع الذي أقام الأخوة في اللَّه مقام الأخوة النسبية، بل وأفضل منها، وقد أصبح للمسلمين بعد الهجرة كيان وسلطان، وأضحوا ذوي عدد وقوة، واستمر المشركون في التضييق عليهم، ومحاولة فتنتهم عن دينهم ووقفوا للدعوة الإسلامية بالمرصاد، فلم يكن بُدٌّ من أن يأذن اللَّه لهم في القتال.

متى شُرِعَ الجهاد ؟

والذي يترجح عندي بعد البحث والنظر أن تشريع الجهاد كان في أوائل السنة الثانية للهجرة، وذلك لأن المسلمين كانوا مشتغلين بتنظيم أحوالهم الدينية والدنيوية كبنائهم المسجد النبوي، وأمور معايشهم وطرق اكتسابهم، وتنظيم أحوالهم السياسية كعقد التآخي بينهم، وموادعة اليهود المُسَاكِنين لهم في المدينة كي يأمنوا شرورهم، ولا يقال: إن النبي ﷺ أرسل سرايا في السنة الأولى، لأنها كانت للاستطلاع والمناوشات، والتضييق عليهم اقتصاديًّا، وإرغامهم على أن يفكروا جديًّا في تغيير خطتهم تجاه المسلمين، وتركهم يبلغون دين الله، وهم آمنون إلى الناس كافة.

أول ما أُنْزِلَ في الجهاد

وكانت أول آية نزلت في تشريع الجهاد في الإسلام هي قوله سبحانه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ

عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٣٩- ٤١].

والإذن لا يكون إلا بعد منع، فأسلوب الآيات يشعر بأنها أول ما نزل، وأيضًا فقد روى الحاكم في المستدرك عن حبر القرآن عبد اللّه بن العباس - رضي اللّه عنهما - أنها أول ما نزل في القتال، ورواه عبد الرزاق وابن المنذر عن الإمام الزهري عالم الحجاز والشام.

وروى ابن جرير عن أبي العالية - وهو من التابعين - أن أول آية نزلت فيه قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

ويرى بعض العلماء أن أول ما نزل هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

والذي نرجحه هو الأول وهو الذي يؤيده العقل والنقل، وأما الآية الثانية فهي إلى تنظيم شئون القتال وتحديد حدوده أقرب، والتنظيم إنما يكون بعد الإذن، وأما الآية الثالثة، فهي إلى الحث والترغيب في الجهاد أقرب.

لِمَ شُرِعَ الجهاد في الإسلام؟

لقد تضمنت آيات سورة الحج المذكورة آنفًا الأسباب والأغراض والحِكَم التي لأجلها شرع الجهاد، ولن أخرج في بيان ذلك عن منطوق الآيات وفحواها، حتى يكون في هذا المقام الحجر لمن يتقول على الإسلام، ومن هذه الآيات نستخلص الأسباب والحكم الآتية:

١- تأمين دعوة الإسلام، الدين العام الخالد، الذي ارتضاه اللّه سبحانه للبشرية جمعاء، ومساندة هذه الدعوة التحريرية الكبرى التي لم يشهد لها العالم مثيلًا من قبل، ولن يشهد لها مثيلًا من بعد، حتى يتمكن النبي صلوات اللّه وسلامه عليه من تبليغ رسالة ربه حسبما صدع به الوحي في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقوله عز شأنه:

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩].

وتأمين المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام عن رضى واختيار واطمئنان، وحمايتهم من أذى المشركين ومنحهم حقهم في الإعلان عن عقيدتهم وهم آمنون، وليس من الحق والعدل أن يدافع أصحاب المذاهب الباطلة عن باطلهم بالقوة، وأن يترك أصحاب العقائد الصحيحة، والشريعة السمحة من غير أن يؤذن لهم في الدفاع عن عقيدتهم وشريعتهم، وقد أشار اللَّه إلى ذلك بقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ وأي ظلم أظلم من أن لا يجد الهداة والمصلحون متنفسا لدعواتهم الخيرة في أرض اللَّه الواسعة؟ ومن أن يحجر عليهم فلا يستطيعون الإعلان عن عقيدتهم، ولا إظهار شعائرهم؟! والمظلوم إن لم يجد النصر من أهل الأرض، فسيجده لا محالة من السماء وصدق اللَّه: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠].

٢- الانتصار للنفس، والانتصاف للمظلوم من الظالم فها هم المشركون قد آذوا المسلمين وحاولوا ما وَسِعَهُم الجهد أن يفتنوهم عن دينهم، فلما لم يفلحوا أخرجوهم من ديارهم وأهليهم وأموالهم.

والانتصار للنفس أمر فطري وحق من حقوق الإنسان، قررته الشرائع السماوية، والقوانين الأرضية، وقد قرر اللَّه سبحانه هذا الحق الإنساني في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٤١ - ٤٢]، وقد أمر اللَّه المسلمين بالصبر والعفو والتسامح طوال العهد المكي، وأوائل العهد المدني عسى أن يَرْعَوُوا، ولكنهم لم يزدادوا إلا بطرًا وأشرًا، وظلمًا واستعلاءً في الأرض، فأما إذا لم تفلح معهم سياسة المهادنة والتسامح، فلتقابل القوة بالقوة، والسلاح بالسلاح، وإلا صار السكوت والإغضاء - عند القدرة على الانتصار - عجزًا وضعفًا ومهانة.

وليس من العدل والحق والإنصاف أن يترك المشركون يمرحون في الأرض،

ويجوبون الجزيرة من الجنوب إلى الشمال، ولا يؤذن للمسلمين أن يحاربوهم من جنس ما حاربوهم به وأن يقطعوا عليهم تجارتهم، ويأخذوا منها ما تصل إليه أيديهم نظير ما اغتصبوا من أموالهم، وأن يضيقوا عليهم مثل ما ضيق المشركون عليهم وصدق اللّه - حيث قرر هذا المبدأ الحق فقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ الْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ الظَّـٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٣٩ - ٤٠].

٣- إن في تشريع الجهاد نشر السلام والأمان في الأرض، وتأمين كل ذي دين على دينه، واحترام مقدسات الأديان بين الناس، والإسلام هو الدين الذي ألزم معتنقيه بالإيمان بجميع الرسل، وجميع الكتب السماوية المنزلة من عند الله، وكتابه - وهو القرآن - هو الشاهد والمهيمن على الكتب السماوية كلها لأنه هو الكتاب الذي سلم من التحريف والتبديل، فقد نقل بأقوى طرق النقل والإثبات وهو التواتر المفيد للقطع واليقين، والمسلمون - حينما تكون لهم السلطة والغلبة في الأرض- لا خشية على أهل الأديان الأخرى منهم، لأن لهم من وصايا دينهم ما يعصمهم من الظلم والجور والتعنت، وطالما أوصى النبي ﷺ بالمعاهدين وأهل الذمة خيرًا، وهذا ما صدقه الواقع التاريخي فحينما كان السلطان للمسلمين في الأرض لم يضار أحد من أهل الذمة في دينه، ولا في دنياه، ولا في نفس أو عرض أو مال، فلما ذهبت ريحهم، وغلبوا على أمرهم ذاقوا من أعدائهم ألوان العذاب من تقتيل، وتخريب، وانتهاك للحرمات.

وليس أدل على ذلك من أن الإسلام قَبِلَ من أهل الكتاب؛ إما أن يسلموا، وإما أن يبقوا على دينهم ويدفعوا الجزية، وهي ليست للإكراه على الدخول في الإسلام، أو المضايقة، ولكنها نظير ما تقوم به الدولة الإسلامية من رعاية، وحماية لغير المسلمين، وما تؤديه لهم من خدمات اجتماعية، واقتصادية، وقد أشار اللّه سبحانه وتعالى إلى هذا الغرض النبيل في قوله سبحانه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠][1].

---

(١) الصوامع: متعبدات الرهبان. البيع: متعبدات اليهود والنصارى، وهي الكنائس، والصلوات: متعبدات للنصارى أيضًا، والمساجد: متعبدات للمسلمين.

٤- أن الإسلام بما خصه اللَّه به من عموم الدعوة للناس أجمعين، وبما جاء به من عقائد وتشريعات وآداب أكسبته الصلاحية لكل زمان ومكان، وهو الحقيق بأن يسود في الأرض، والمسلمون المتمسكون به عقيدة، وعلمًا وعملًا، وأخلاقًا وسلوكًا، وهم الأحق بالسيادة، والاستخلاف في الأرض، لأنهم هم الذين ينشرون فيها الهدى والرحمة، والحق والعدل والبر والخير، وهم الذين يتآمرون بالمعروف، ويتناهون عن المنكر، وهما أساس كل خير وإصلاح، وليس من شك في أن هذا يتطلب الجهاد والكفاح، وبذل النفس والمال في سبيل هذه الغاية الشريفة، وقد ذكر اللَّه سبحانه هذا الغرض في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]، وقد أشار اللَّه سبحانه بهذه الأصول التي ذكرها في هذه الآية إلى ما عداها ويجري في فلكها، فالصلاة رأس العبادات البدنية التي تزكي النفس، وتحسن علاقة المخلوق بالخالق، وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان، والزكاة رأس العبادات المالية التي تقيم المجتمع على أساس من التعاون والتكافل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هما أساس كل خير ديني أو دنيوي، وهما دعامتا كل إصلاح والقضاء على كل شر، وبهما يصلح المجتمع ويتطهر من الفساد.





الفصل الأول

من أعلام الصحابة

١- واهب الحريات الصديق أبو بكر.

٢- سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب.

٣- السيد طلحة بن عبيد الله.

٤- مصعب بن عمير الصحابي الذي آثر الفقر على النعيم.

٥- جعفر الطيار، الشهيد ذو الجناحين.

٦- السيد أبو أيوب الأنصاري.

٧- أبو سلمة عبد اللّه بن عبد الأسد بن هلال.

٨- عبد اللّه بن سلام صحابي عدل.

(١)

واهب الحُرِّيات : الصديق أبو بكر[١]

شيخ جليل وقور عليه سيما من الحلم والعقل والرزانة والرقة والرحمة عرف بين قومه بأنه يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويقري الضيف، ويحمل الكَلَّ، ويعين على نوائب الزمان، وكان أحد العشرة الذين ينتهي إليهم الشرف في قريش فكان يرجع إليه في الديات والمغارم، لم ينغمس فيما انغمس فيه قومه في الجاهلية . . فلم يشرب خمرًا ولم يهتك سترا ولم يسفك دما . . ولم يأكل حرامًا، هين لين أليف مألوف يسيل قلبه رحمة ورأفة على الضعفاء والأرقاء، أنفق شطرا كبيرا من ماله في شراء من أسلم من العبيد عتقهم في سبيل اللّه قبل أن تنزل التشريعات الإسلامية المحببة في العتق الواعدة عليه أجزل الثواب.

ذلكم هو صديق الأمة الإسلامية أبو بكر رضي اللّه عنه شيخ الإسلام، والوزير الأول لرسول اللّه ﷺ، وخليفة الإسلام الأول الذي لولاه لما قام نظام الإسلام وعموده بعد رسول اللّه ولست الآن بصدد التحدث عن الجوانب المشرقة في سيرة الصديق العطرة فلذلك سفر كبير، وبحسبي في هذا المقال أن أتناول جانبًا من هذه الجوانب، وهو هبة الصديق رضي اللّه عنه الحرية لمن فقدها واليك البيان:

لما دعى رسول اللّه ﷺ إلى الإسلام سارع إلى الدخول فيه بعض الأشراف وكثير من الضعفاء والفقراء والأرقاء، ولما أوذي المسلمون بسبب دينهم حمل النصيب الأكبر من الإيذاء الأرقاء الذين لا نصير لهم من عصبة أو جاه أو مال، فكان الصديق يمر عليهم وهم يعذبون في اللّه فيأبى قلبه الرحيم إلا أن يشتريهم من حر ماله ثم يعتقهم لوجه اللّه سبحانه.

ومن هؤلاء الذين وهبهم الصديق الحرية بلال بن رباح لما أسلم كان سيده أمية بن خلف يربطه بحبل من ليف في عنقه ثم يدعه إلى الصبيان يعذبونه ويلهون به، وكان يخرجه وقت الظهيرة في اليوم الصائف إلى بطحاء مكة التي تذيب دماغ الضب فيطرحه

---

(١) مجلة الحج، الجزء ٨، السنة الحادية عشرة، صفر ١٣٧٧هـ - سبتمبر ١٩٥٧م.

على ظهره ثم يضع على صدره الصخرة العظيمة ويقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، تُرى ماذا كان جوابه لسيده الطاغية ؟

لقد كان الجواب هذا النشيد الإلهي العذب « أحد. أحد »، وهكذا امتزجت حرارة الألم بحلاوة الإيمان ويمر عليه الصديق وهو على هذه الحالة التي يلين لها الجماد، ولكن لم يلن لها قلب أمية، فيقول له: ألا تتقي اللّٰه في هذا المسكين إلى متى تعذبه ؟ فيقول أُمَيَّة للصديق: أنت أفسدته فانقذه مما ترى . . فقال أبو بكر: أفعل، عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى وهو على دينك أعطيكه، فقال أُمَيَّة: قد فعلت. . فأعطاه أبو بكر هذا الغلام وأخذ بلالا فأعتقه.

وإذا علمت أن الغلام الذي أعطاه سيدنا أبو بكر رضي اللّٰه تعالى عنه لأُمَيَّة كان يسمى « نسطاس » وكان صاحب عشرة آلاف دينار وغلمان ومواش وجوار أدركت عظم الفداء الذي فدى به الصديق أبو بكر بلالا. . ولم يكن بلال إلا واحدًا من بضعة رجال ونساء اشتراهم الصديق من حُر ماله ووهبهم الحرية طمعًا في رضاء اللّٰه ورجاء مثوبته. .

ومن هؤلاء « حمامة » أم بلال وعامر بن فهيرة كان يعذب في سبيل دينه حتى لا يدري ما يقول. وأبو فكيهة كان عبدًا لصفوان بن أمية وكان يعذب في اللّٰه فاشتراه وأعتقه، ومنهم امرأة كانت تسمى « زنيرة » عذبت في اللّٰه حتى عميت فلم يزدها ذلك إلا إيمانًا فاشتراها أبو بكر واعتقها « وأم عنبسة » كانت أمة لبني زهرة وكان يعذبها الأسود بن يغوث فأراحها الصديق من هذا العذاب الأليم فاشتراها وأعتقها وهكذا نجد الصديق رضي اللّٰه عنه، كان واهب الحريات في وقت كان الرقيق فيه يعاملون معاملة الحيوان وكان كل سيد يعض على مملوكه بالنواجذ لما يدره عليه من الخير والثراء ولم يكن الصديق يقصد بعمله محمدة ولا دنيا وإنما كان يريد وجه اللّٰه ذي الجلال والإكرام، قال له أبوه ذات يوم: لو كنت تبتاع من يمنع ظهرك- يريد رجالًا أقوياء يحمونه من الإيذاء، فقال لأبيه: « إنما أريد وجه اللّٰه سبحانه ». فلا عجب والحال كما سمعت أن أنزل اللّٰه في شأن الصديق قرآنا يتلى إلى يوم الدين، وإنه لشرف عظيم أن يحظى بشهادة اللّٰه رب العالمين وصدق العلي العظيم حيث قال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ٧]- وهو أبو بكر ومن على شاكلته ممن يعمل بعمله

ويتصف بمثل صفاته - ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ - وهو أمية ومن على شاكلته - ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ - ثم وعده الله هذه العِدَة العظيمة - ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل : ٨ - ٢٠] ، وما أشد التطابق والتوافق بين هذه العدة الجميلة الكريمة، وبين عدة الله لنبيه وحبيبه محمد ﷺ بقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى : ٥] ، ولا عجب فقد تحابا وتآلفا وتصاحبا في الجاهلية والإسلام. إن هذه المآثر الخالدة للصديق لمثل فريد في تاريخ الدنيا قديمها وحديثها تنبئ عن قوة الإيمان وعظمة النفس وجلال الإخلاص وشاهد صدق على أن الدعوة الإسلامية هي الدعوة التحريرية الكبرى التي حررت الأفراد والأمم من رق العبودية والتسلط والتجبر ورق الأوهام والأباطيل والخرافات وعلى أن المسلمين - كانوا دعاة حرية وإخاء وتراحم وتواصل وأمنة وسلام.

وبعد، فيا أيها المسلمون: هذا جانب من « الجوانب المشرفة في سيرة الصديق أبي بكر رضي الله عنه تنبئ عن الإخلاص الفائق للدعوة الإسلامية وعن الرحمة الفائقة لضعاف الخلق.. فهل لنا أن نخلص للإسلام كما أخلص « الصديق ؟ » وهل لنا أن نكون رحماء رفقاء بإخواننا المسلمين كما كان الصديق ؟ إن خير أسوة إنما هي في رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، ثم في الرعيل الأول من المسلمين، ولا سيما الخلفاء الراشدين المهديين، فليكن لنا في الصديق أسوة حسنة في نصرة الأرقاء والضعفاء من إخواننا في شمال أفريقيا وفي أطراف الجزيرة الذين فَرَضَ عليهم الاستعمار رقًّا جماعيًّا وأبى عليهم الحياة الحرة الكريمة، إن أدعياء الحرية والحضارة حرَّمُوا استرقاق الأفراد بينما استحلوا استرقاق الشعوب فلنجاهدهم بكل ما أوتينا من قوة ولنساعد إخواننا بكل ما نستطيع حتى يكسروا الأغلال والقيود ويعيشوا كما ولدتهم أمهاتهم أحرارًا، والإسلام يأبى الدنية للمسلم في دينه ودنياه، ويأبى له الذلة والخضوع والاستسلام ويطلب منه إن عاش؛ عاش كريمًا، وإن مات؛ مات شهيدًا ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

(٢)

سيد الشهداء[١] حمزة بن عبد المطلب[٢]

أسد من أسود اللّه ورسوله، وسيد من سادات المسلمين، ورث السؤدد عن آبائه، واكتسب الفضل بصادق جهاده، وانحدرت إليه الشجاعة العربية في أصلاب أجداده، فكان الشهم الأبي، والفارس المعلم، والبطل المغوار، وحامي الذمار[٣]. ذلكم هو سيد الشهداء أبو عمارة حمزة بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، فهو أحد فروع الدوحة الهاشمية الباسقة، وعم رسول اللّه ﷺ وأخوه من الرضاعة، إذ أرضعتهما ثويبة جارية أبي لهب، وكان أسن من رسول اللّه بسنتين، وقيل بأربع، والأول أصح، وأمه السيدة هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة، فهي ابنة عم آمنة بنت وهب والدة رسول اللّه ﷺ، فهو كريم الأبوين طاهر المعدنين، وما بالك بشخص يجتمع برسول اللّه في جده لأبيه، وجده لأمه، وجمع إلى شرف النسب شرف الإسلام والجهاد في سبيله، لا شك أنه من خيار الناس في جاهليته وإسلامه.

إسلامه : أسلم في السنة الثانية من مبعثه ﷺ. ولما أسلم فرح بإسلامه رسول اللّه ﷺ فرحًا شديدًا، لأنه كان أعز فتى في قريش وأشدهم شكيمة، ولإسلامه قصة، ذلك أن أبا جهل - عدو اللّه ورسوله - مر بالنبي ﷺ عند الصفا فآذاه وسبه ونال منه، ورسول اللّه يقابل سفهه بالصفح، وجهله بالحلم، وكان هذا المشهد على مرأى ومسمع من مولاة لعبد اللّه بن جدعان في سكن لها، ثم انصرف أبو جهل إلى نادي قريش بجوار الكعبة فجلس مع قرنائه القرشيين، وكان حمزة رضى اللّه عنه من هواة الصيد والقنص، وكان إذا رجع من قنصه لا يذهب إلى بيته حتى يطوف بالبيت الحرام، وفي روحة من روحاته مر على الصفا متوشحًا سيفه، متنكبًا قوسه فقالت له هذه المولاة: يا أبا الوليد - كنيته - لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفًا من أبي الحكم بن هشام - تعني أبا جهل - وجده هنا جالسًا فآذاه وسبه ونال منه ما يكره، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد!! وآنئذ تحركت

---

(١) أخرج الحاكم في « المستدرك » (٣/ ١٩٥) عن جابر رضي اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: « سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه »، وانظر «الصحيحة» (٣٧٤). [الناشر].

(٢) مجلة الأزهر، المجلد الرابع والعشرين، الجزء الرابع.

(٣) ذمارُ الرجلِ ؛ هو كلُّ ما يلزمه حفظُهُ وحياطتُهُ والدَّفعُ عنه . لسان العرب . [الناشر] .

عاطفة الرحم في نفس حمزة، وأخذته الشفقة على ابن أخيه، وهو من بني هاشم كما تعلم، وأدركته لحظة من لحظات التجلي الإلهي، فذهب والدم يغلي في عروقه من شدة الغضب، ولم يَلْوِ على شيء، حتى دخل المسجد فرأى أبا جهل جالسًا في القوم، فقام على رأسه ورفع القوس وضربه فشجه شجة منكرة، ثم قال له: أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول؟ فَرُدَّ عَلَيَّ ذلك إن استطعت. وقام رجال من بني مخزوم عشيرة أبي جهل لينصروه فقالوا لحمزة: ما نراك إلا قد صبأت - أي دخلت في دين محمد - فقال حمزة: وما يمنعني وقد استبان لي منه أنه رسول اللّه والذي يقوله حق؟ واللّه لا أفزع، فامنعوني إن كنتم صادقين. فقال لهم أبو جهل: دعوا أبا عمارة [1]، فإني واللّه قد أسمعت ابن أخيه شيئًا.

انتهت الملاحاة إلى هذا الحد. ولكن أمرًا ذا بال أَهَمَّ حمزة وأوقعه في حيرة من أمره، حتى استبان له الحق، ذلك أنه لما رجع إلى بيته تسور عليه الشيطان وصار يلقي إليه بالوساوس ويقول له: أنت سيد قريش، اتبعت هذا الصابئ وتركت دين آبائك، الموت خير لك مما صنعت، وبات بليلة لم يبت بمثلها قط من وسوسة الشيطان وتلبيساته، فلم يجد مفرًّا من أن يلجأ إلى اللّه فقال: «اللهم إن كان رشدًا فاجعل تصديقه في قلبي، وإلا فاجعل لي مما وقعت فيه مخرجًا».

ولما أصبح، غدا إلى رسول اللّه صلوات اللّه وسلامه عليه، فقال: يا ابن أخي، إني وقعت في أمرٍ لا أعرف المخرج منه، وإقامة مثلي على ما لا أدري أرشد هو أم غي شديد، فأقبل عليه البشير النذير ﷺ فَذَكَّرَهُ ووعظه وخَوَّفَهُ وَبَشَّرَهُ، فألقى اللّه في قلبه الإيمان بما سمعه من رسول الله، وشرح صدره لذلك، فلم يلبث أن قال: «أشهد أنك صادق، فأظهر يابن أخي دينك».

وقد ازداد رسول اللّه ﷺ بإسلام عمه حمزة عزة ومنعة بين قريش، وخفَّت حدة إيذاء المشركين له، وأمكن لصبح الدعوة الإسلامية أن يتنفس بعد ليلٍ طويل. ولقد أكل كبد المشركين أن يروا المسلمين يخرجون إلى الكعبة وفي مقدمتهم السيدان الكريمان عمر وحمزة ليعلنوها حربًا شعواء على الشرك وأهله، ويدعوا إلى

(١) كان رضي الله عنه يكنى بأبي عمارة وأبي يعلى، وهما ولدان له. «أسد الغابة». وقد سمعت آنفًا أنه كان يكنى بأبي الوليد أيضًا.

عبادة اللَّه وحده، ونشر نور الهداية والعرفان[١].

حياة الكفاح والجهاد:

كانت حياة أسد اللَّه حمزة بن عبد المطلب حياة الكفاح والجهاد، فمن يوم أن أسلم بذل نفسه وماله في سبيل اللَّه ونشر الدعوة الإسلامية، وما أن بدأت السرايا حتى عَقَدَ له رسول اللَّه ﷺ اللواء، ويقال: إنه أول لواء عُقِدَ في الإسلام، وأرسله على رأس سرية ليقطع على أبي جهل وغيره الطريق جزاءً على عقوقهم وإخراجهم المسلمين من ديارهم وأهليهم وأموالهم، فقام بمهمته خير قيام، وإن لم يقع بينه وبين المشركين قتال. وفي غزوة الأبواء كان يحمل لواء رسول اللَّه ﷺ ورايته البيضاء حمزة بن عبد المطلب، ولا تسل عما كان من أسد اللَّه في غزوة بدر الكبرى التي فَصَلَ اللَّه فيها بين الحق والباطل، ففيها خرج من صفوف المشركين ثلاثة: عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد، وطلبوا المبارزة، فبرز إليهم ثلاثة إخوة من الأنصار، فقال عتبة: نريد أبناء عمومتنا، فندب لهم رسولُ اللَّه ﷺ عبيدةَ بن الحارث وحمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وثلاثتهم من بني هاشم، ولم يلبث حمزة وعلي أن أجهزا على صاحبيهما وأعانا عبيدة على صاحبه، وحمل عبيدة إلى رسول اللَّه تشخب[٢] ساقه دمًا، فوسَّده رسول اللَّه ﷺ ساقه وبشره بالجنة، ولما التحم الجمعان: جمع المسلمين وجمع المشركين، أبلى السيد حمزة في هذا اليوم بلاء مشهودًا، وأظهر من نفسه شجاعة منقطعة النظير.

ونطوي بعض صفحات من التاريخ لنصل إلى غزوة أُحد التي ابتلي فيها المسلمون، فقد قاتل فيها حمزة قتال الأبطال، وما قرب منه أحد من الأعداء إلا قصمه بسيفه البتار. وروي أنه كان يقاتل يوم أُحد بسيفين؛ وبينا هو يجول ويصول في المعركة إذ استمكن منه وحشي غلام جبير بن مطعم فرماه بحربته التي لا تخطئ الهدف، فَخَرَّ شهيدًا بعد أن أرضى اللَّه وأرضى رسوله، وهأنذا أدع وحشيًّا يحدث عن فعلته النكراء، التي كفر عنها

(١) القصة لا تصح - كما قال الشيخ علي حشيش - حفظه اللَّه - في سلسلته الذهبية: «تحذير الداعية من القصص الواهية»، مجلة التوحيد عدد ربيع الأول ١٤٢٥هـ، وآفتها: إسحاق بن عبد اللَّه بن أبي فروة، قال فيه البخاري: تركوه، وقال ابن معين: كذاب، وكان أحمد ينهى عن حديثه، وهناك بحثٌ مطول للشيخ علي - حفظه اللَّه - فانظره، والقصة مذكورة في «الحلية» لأبي نعيم (١/ ٤٠). [الناشر].

(٢) الشَّخْبُ: الدَّمُ؛ وكُلُّ ما سال فقد شَخَبَ. لسان العرب. [الناشر].

فيما بعد بقتل مُسَيْلِمَة الكذاب، قال وحشي - وقد سُئِلَ عن مقتل سيد الشهداء حمزة-: «سأحدثكم ما حدثت به رسول اللَّه حين سألني عن ذلك، كنت غلام جبير بن مطعم، وكان عمه طعيمة بن عدي قد أصيب يوم بدر، فلما سارت قريش إلى أحد، قال لي جبير: إن قتلت حمزة عم محمد بعمي فأنت عتيق، قال: فخرجت مع الناس، وكنت رجلًا حبشيًّا أقذف بالحربة قذف الحبشة قلما أخطئ بها شيئًا، فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره حتى رأيته في عرض الناس كأنه الجمل الأورق، يهد الناس بسيفه هدًّا ما يقوم له شيء، ثم قال: فهززت حَرْبَتي حتى إذا رضيت عنها، دفعتها عليه فوقعت في ثُنَّتِهِ[1] حتى خرجت من بين رجليه، فذهب ليقوم نحوي فغلب، وتركته وإياها حتى مات فأخذت حربتي ثم رجعت إلى مكة فعتقت». ومكث وحشي بمكة حتى فُتِح على المسلمين، فهرب إلى الطائف، فلما خرج وفد الطائف إلى رسول اللَّه ﷺ ليسلموا، عيت عليه المذاهب، حتى هم أن يذهب إلى الشام أو اليمن، وبينا هو في هم قَيَّضَ اللَّه له رجلًا فقال له: ويحك، واللَّه إن محمدًا لا يقتل أحدًا من الناس دخل دينه وشهد شهادة الحق، فخرج حتى أتى المدينة فوقف على مجلس رسول اللَّه وشهد شهادة الإسلام، فلما رآه رسول اللَّه قال: أوحشي أنت؟ قال: نعم يا رسول الله، قال: فحدثني كيف قتلت حمزة؟ فحدثته فلم يتمالك رسول اللَّه نفسه أن قال: ويحك، غَيِّب عني وجهك فلا أرينك، فكان يحرص على أن لا يرى رسول اللَّه وجهه، ورسول اللَّه بشر وإنسان كامل الإنسانية، ثم هو رقيق القلب بالمؤمنين رءوف رحيم، فلا عجب أن طلب من وحشي أن لا يراه لأن وجهه تتمثل فيه صورة مقتل حمزة وتمثيل المشركين به وبقتلى أحد، فيثير في النفس كوامن الأسى والحزن ولواعج الألم والحسرة على هؤلاء الشهداء الأبرار، وقد حَزِنَ رسول اللَّه على عمه حمزة حزنًا شديدًا، ولاسيما وقد مَثَّلَ به المشركون، فقد بَقَرَتْ هند بنت عتبة - الموتورة من المسلمين من يوم بدر - بطن حمزة وأخذت كبده فلاكتها فلم تستطع أن تستسيغها فلفظتها، وجدع أنفه وأذنه، وليس أدل على حزن رسول اللَّه ﷺ على عمه حمزة، من هذه الكلمات التي قالها وهو واقف عليه «لن أصاب بمثلك أبدًا، وما وقفت موقفًا قط أغيظ إليَّ من هذا». وفي رواية أنه قال: رحمك اللَّه

---

(١) الثُّنَّة من الإنسان: ما دون السُّرَّة فوق العَانة أسفل البطن. لسان العرب. [الناشر].

يا عم، لقد كنت وصولًا للرحم، فعولًا للخيرات، وكان النبي ﷺ يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في قبر واحد، فدفن عمه حمزة مع عبد اللّٰه بن جحش، ابن أخته أميمة بنت عبد المطلب في قبر واحد وذلك في سفح أحد، ولا يزال قبره معروفًا هناك.

وكان عُمْر سيدنا حمزة حين استشهد خمسًا وخمسين سنة وقيل سبعًا وخمسين سنة، فرضي اللّٰه عنه وأرضاه.

وبعدُ، فهذه صفحة مشرقة من حياة سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، يتمثل فيها الطهر والوفاء، والشجاعة والإخاء، وبذل النفس في سبيل العقيدة، والثبات في مواطن الموت، والصدق عند لقاء الأعداء، والاستشهاد حيث تطيب الشهادة، فلا عجب أن لَقَّبَهُ رسول اللّٰه ﷺ بأسد اللّٰه وأسد رسوله، وإن كان بحق «سيد الشهداء». وعسى أن يتخذ المجاهدون والمكافحون في سبيل عقيدتهم وحرياتهم من هذه السيرة العطرة، أسوة حسنة يتأسون بها في حياة الكفاح والجهاد، وأن يستفيئوا بها في شق طريق الظفر والنصر، وحب الاستشهاد في سبيل الحق والمثل العليا، لكي يكتبوا في سجل الخالدين.



(٣)

السيد[١] طلحة بن عبيد اللّٰه[٢]

سيد من سادات المسلمين وأجوادهم، وأحد السابقين الأولين الذين أسلموا على يد الصديق أبي بكر رضي اللّٰه عنه، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين توفي رسول اللّٰه ﷺ وهو عنهم راض، وأحد العشرة المبشرين بالجنة؛ مكارم من حظي بواحدة منها استحق التكريم والتمجيد والثناء العاطر، فكيف بمن حظي بها كلها؟

ذلكم هو طلحة بن عبيد اللّٰه بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة القرشي التيمي، من أكرم بيوتات العرب وأشرفها وأشجعها، وأمه الصعبة بنت الحضرمي من أهل اليمن، وهي أخت العلاء بن الحضرمي. وأهل اليمن أرق الناس قلوبًا وأفئدة، وأحكمهم رأيا، فلا عجب أن كان طلحة رضي اللّٰه عنه شجاعًا مغوارًا، يعاف الفرار ويثبت في مساقط الموت، وإن كان رجلًا رقيق القلب رحيمًا كثير الجود والبر والخير، معروفًا بالحكمة وأصالة الرأي، وذكر الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» أنه كان يقال: إن طلحة بن عبيد اللّٰه من حكماء قريش، وقد بسط اللّٰه الرزق لطلحة حتى بلغت غلته من ماله كل يوم ألف درهم، وبسط هو يديه للإنفاق، فلم يضن بمال اللّٰه على عباد اللّٰه حتى كان يعطي من غير مسألة، وتلك شيمة الكرماء.

روى الحميدي في الفوائد بسنده عن قيس بن أبي حازم قال: صحبت طلحة بن عبيد الله، فما رأيت رجلًا أعطى لجزيل مال من غير مسألة منه، وكانت له يد مشكورة على الدعوة الإسلامية استحق بها أن ينعته رسول اللّٰه بخير الألقاب وشريف الصفات.

---

(١) في حديث عبد الله بن الشِّخير رضي الله عنه قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول اللّٰه ﷺ، فقلنا: أنت سيدنا، فقال: «السَّيِّدُ اللّٰه تبارك وتعالى» أخرجه أحمد (٤/ ٢٤)، وأبو داود (٤٨٠٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٩٤)، فرحم الله الجميع، قال السندي: قوله: «السيد اللّٰه»؛ أشار إلى أن اسم السيد يطلق على المالك، وهذه الصفة حقيقة للّٰه تعالى، ففي إطلاقه إيهام، تركه أَوْلى، وانظر «معجم المناهي اللفظية» للعلامة بكر أبي زيد - حفظه اللّٰه -، والمناهي اللفظية للعلامة ابن عثيمين - رحمه اللّٰه -، وتعليق الأرنؤوط على هذا الحديث في حاشيته على المسند (٢٦/ ٢٣٥). [الناشر].

(٢) مجلة الأزهر، جـ٥، المجلد الرابع والعشرون.

روى أبو بكر بن أبي عاصم بسنده عن طلحة أنه قال: « سماني رسول اللّه ﷺ يوم أحد طلحة الخير، ويوم العسرة طلحة الفياض، ويوم حنين طلحة الجود». وما ذلك إلا لكثرة جوده وبره. وقد صارت هذه الأوصاف سمات له في العصر الذي كانت تسوده الصراحة وقول الحق. ويندر - إن لم ينعدم - في ذلك العصر المداهنة والإسراف في إضفاء الألقاب بدون مسوغ. وكان مما قاله علي رضي اللّه عنه عند وقعة الجمل: « منيت بأربعة أدهى الناس وأسخاهم طلحة بن عبيد الله، وأشجع الناس الزبير، وأطوع الناس في الناس عائشة، وأسرع الناس إلى فتنة يعلى بن منية...»، وسمع علي رجلًا ينشد:

فَتى كان يُدنيهِ الغنى من صديقهِ   إذا هو ما استغنى ويُبعدهُ الفقرُ

فقال: ذلك أبو محمد طلحة بن عبيد الله، وكان طلحة رضي اللّه عنه رجلا آدم - وقيل أبيض - حسن الوجه، كثير الشعر، ليس بالجعد القطط ولا السبط، لا يغير شيبه، مربوعا إلى القصر أقرب، رحب الصدر، بعيد ما بين المنكبين، ضخم القدمين إذا التفت التفت جميعًا. وهذه الصفات الأخيرة من أمارات القوة والجلادة والتحمل. ومن الموافقات اللطيفة ما قيل من أن طلحة تزوج أربع نسوة أخت كل منهن عند النبي ﷺ: أم كلثوم بنت أبي بكر، أخت عائشة. وحمنة بنت جحش، أخت زينب. والفارعة بنت أبي سفيان، أخت أم حبيبة. ورقية بنت أبي أمية أخت أم سلمة.

إسلامـــه:

كان أبو بكر الصديق رضي اللّه عنه أول من أسلم من الرجال الأحرار، وما أن عرض عليه الرسول ﷺ الإسلام حتى سارع وأذعن ولم يتلعثم، ولم يكتف الصديق بإسلامه فحسب، بل بذل نفسه وماله في سبيل الله، ونَصَّبَ من نفسه داعيةً إلى الإسلام. وكان له من دماثة خلقه وحلو شمائله وبره وكرمه ورجاحة عقله وعلمه بأنساب قريش وما فيها من خير وشر ما أعانه على القيام بهذه المهنة الشاقة الجليلة، فأسلم على يديه نفر من السابقين الأولين، ومن هؤلاء طلحة بن عبيد الله. وكان طلحة رجل أسفار بسبب تجارته، فساقته الأقدار إلى سوق بُصرى، وَالْتَقَى هناك براهب من الرهبان فسمع منه البشارة بظهور نبي آخر الزمان وأغراه باتباعه وحذره من أن يفوته شرف السبق إليه، فقفل طلحة مسرعًا حتى قدم مكة فلقي أبا بكر فدعاه أبو بكر إلى الإسلام وصحبه إلى رسول اللّه ﷺ فشرح اللّه صدره للإسلام. روى محمد بن عمر الواقدي بسنده عن محمد

ابن طلحة بن عبيد اللّه قال: قال طلحة بن عبيد الله: حضرت سوق بُصرى فإذا راهب في صومعته يقول: سلوا أهل الموسم أفيهم رجل من أهل الحرم؟ قال طلحة: قلت: نعم أنا. فقال: هل ظهر أحمد بعد؟ قلت: ومن أحمد؟ قال: ابن عبد اللّه بن عبد المطلب، هذا شهره الذي يخرج فيه، وهو آخر الأنبياء، مخرجه من الحرم ومهاجره إلى نخل وحرة[(١)] وسباخ فإياك أن تسبق إليه، قال طلحة: فوقع في قلبي ما قال، فخرجت سريعًا حتى قدمت مكة فقلت: هل كان من حدث؟ قالوا: نعم، محمد بن عبد اللّه الأمين قد تنبأ وقد اتبعه أبو بكر بن أبي قحافة. قال: فخرجت حتى قدمت على أبي بكر فقلت: اتبعت هذا الرجل؟ قال: نعم، فانطلق إليه فادخل عليه فاتبعه، فإنه يدعو إلى الحق فأخبره طلحة بما قال الراهب، فخرج أبو بكر بطلحة فدخل به على رسول اللّه ﷺ فأسلم طلحة. وأخبر رسول اللّه ﷺ بما قال الراهب فَسُرَّ بذلك»[(٢)].

ولم يَسْلَم أبو بكر وطلحة رضي اللّه عنهما من أذى جبابرة قريش، فقد كان نوفل بن خويلد بن العدوية - وكان يدعى أسد قريش - يأخذهما فيشدهما في حبل واحد ولا تستطيع بنو تيم أن تمنعهما منه، فلذا كان يقال للصديق وطلحة: «القرينان» وحسبهما شرفًا أن يلزا في قرنٍ واحد في سبيل العقيدة والدين، وحسب طلحة فخرًا أن يكون قرينًا للصديق وصنوًا له.

روايته الحديث عن رسول اللّه ﷺ:

وقد جمع طلحة إلى شرف الصحبة شرف الرواية عن رسول الله، فقد أخذ عنه كثيرًا من الأحاديث النبوية التي هي مبعث الهدى والعلم، وحفظها ووعاها وبلغها لمن جاء بعده. وروى عن طلحة بنوه: يحيى وموسى وعيسى، وقيس بن أبي حازم وأبو سلمة بن عبد الرحمن والأحنف ومالك بن أبي عامر وغيرهم.

جهاده في سبيل الإسلام:

ذكرنا آنفًا أن طلحة بن عبيد اللّه من السابقين الأولين الذين سارعوا إلى الإسلام

---

(١) ومصداق ذلك من كتاب الله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

(٢) البداية والنهاية، الجزء الثالث ص٢٩، والإصابة في تاريخ الصحابة، الجزء الثاني ص٢٢٩.

ولما أَذِنَ رسول اللَّه ﷺ لأصحابه في الهجرة هاجر إلى المدينة. ولما آخى رسول اللَّه بين المهاجرين والأنصار إخاء الارتفاق والمودة والنصرة آخى بينه وبين السيد الجليل أبي أيوب الأنصاري، وقيل: آخى بينه وبين كعب بن مالك. وقد ساهَم في بناء صرح الإسلام الشامخ بنفسه وبماله. وكانت له مواقف مشرفة لا تنسى له ما بقى مسلم على وجه الأرض.

وقد شهد المشاهد كلها مع رسول اللَّه ﷺ إلا بدرًا. وقد اختلف في سبب تخلفه عنها، فقال الزبير بن بكار: إن تخلفه كان بسبب اشتغاله بتجارة له في بلاد الشام. وقيل: إن السبب في ذلك أنه كان يتجسس الأخبار للمسلمين.

قال الواقدي: بعث رسول اللَّه ﷺ قبل أن يخرج من المدينة إلى بدر طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد إلى طريق الشام يتجسسان الأخبار، ثم رجعا إلى المدينة فَقَدِمَاهَا يوم وقعة بدر[1] وهذا الخبر الثاني هو الصحيح، ولهذا ضرب له رسول اللَّه صلوات اللَّه عليه بسهمه وأجره من بدر.

وقد روى ابن سعد وموسى بن عقبة عن ابن شهاب قال: لم يشهد طلحة بدرًا وقدم من الشام بعد رجوع رسول اللَّه من بدر، وكلم رسول اللَّه ﷺ في سهمه فقال: « لك سهمك »، قال: وأجري يا رسول اللَّه ؟ قال: وأجرك. فلولا أن خروجه كان في مصلحة الدعوة الإسلامية لما ضرب له رسول اللَّه بسهمه وأجره وإذا كانت البطولة تقاس بكثرة حضور المواقع والغزوات وإجادة الطعان والنزال، فإنها تقاس أيضًا بالثبات حين يشتد الهول ويعظم الخطر وتحدق بالشخص أسباب الموت. ورب يوم إذا وزن بعشرات الأيام رجحها وزاد عليها. ولئن كان طلحة شهد المشاهد كلها عدا بدرًا فله من هذه الأيام يوم مشهود وهو يوم أحد، فإنه لما دارت الدائرة على المسلمين بسبب مخالفتهم أمر الرسول، ونادى منادٍ: أن محمدًا قد قُتِل! وَفَرَّ أُنَاسٌ ممن لهم قدم ثابتة في الإسلام لهول الموقف، ووقع هذا النبأ على نفوسهم، لم يثبت مع النبي ﷺ إلا عصبة قليلة ممن عصمهم اللَّه من الفرار، منهم الشهم الوفي طلحة بن عبيد الله، فقد وفى بنذره حين يعز الوفاء وفدى رسول اللَّه بنفسه ودافع عنه دفاع الأبطال، حتى قطعت أصبعه وشلت يده

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر، جزء٢ ص٢٢١ على هامش الإصابة.

ووجد بجسمه بضع وسبعون جراحة ما بين طعنة أو رمية أو ضربة. روى البخاري بسنده عن قيس بن أبي حازم قال: «رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبي ﷺ». وفي مسند الطيالسي من حديث عائشة عن أبي بكر قال: أتينا طلحة بن عبيد اللّٰه فوجدنا به بضعا وسبعين جراحة وإذا قد قطعت أصبعه.

وقد كان رسول اللّٰه ﷺ يعلم من طلحة جلده وصبره عند اللقاء ويدخره لوقت اشتداد الكرب والبلاء. روى الإمام البيهقي في الدلائل بسنده عن جابر قال: «انهزم الناس عن رسول اللّٰه يوم أحد وبقي معه أحد عشر رجلًا من الأنصار وطلحة بن عبيد اللّٰه وهو يصعد في الجبل فلحقهم المشركون فقال: ألا أحد لهؤلاء؟ فقال طلحة: أنا يا رسول الله. فقال: كما أنت يا طلحة، فقال رجل من الأنصار: فأنا يا رسول الله: فقاتل عنه. وصعد رسول اللّٰه ومن معه، ثم قتل الأنصاري فلحقوه فقال: ألا رجل لهؤلاء؟ فقال طلحة مثل قوله الأول. فقال رسول اللّٰه ﷺ مثل قوله، فقال رجل من الأنصار: فأنا يا رسول اللّٰه. فقاتل وأصحابه يصعدون ثم قتل فلحقوه، فلم يزل يقول مثل قوله الأول، ويقول طلحة: أنا. فيحبسه، فيستأذنه رجل من الأنصار للقتال فيأذن له فيقاتل مثل من كان قبله حتى لم يبق معه إلا طلحة، فغشوهما، فقال رسول الله: من لهؤلاء؟ فقال طلحة: أنا، فقاتل مثل قتال جميع من كانوا قبله، وأُصِيبت أَنَامِلُهُ فقال: «حس»، فقال رسول الله: لو قلت «بسم اللّٰه» لرفعتك الملائكة والناس ينظرون إليك حتى تلج بك في جو السماء. ثم صعد رسول اللّٰه ﷺ إلى أصحابه وهم مجتمعون.

ولما نهض رسول اللّٰه إلى صخرة من الجبل ليعلوها، وكان قد ظاهر بين درعين، فلما ذهب لينهض لم يستطع لكثرة ما نزف من دمه، فطأطأ له طلحة بن عبيد اللّٰه على ما به من جراح فنهض به حتى استوى عليها، فحينذاك قال الرسول ﷺ - فيما رواه الترمذي عنه -: «أوجب طلحة».

وقد عرف رسول اللّٰه ﷺ لطلحة هذا اليوم المشهود، فقد رُوي أن ناسا من أصحاب رسول اللّٰه قالوا لأعرابي جاء يسأل عمن قضى نحبه[1]: سَلْ رسول الله، فسأله في

---

(١) النحب: النذر والعهد. والمعنى: وفى بعهده، وقد كان طلحة ممن عاهد رسول الله على الموت يوم أحد فوفى بالعهد. ويطلق النحب على الموت. وقد فسرت الآية الكريمة بكل من المعنيين، وحمل الآية على المعنى الأول هو الذي يوافق هذه الرواية.

المسجد فأعرض عنه، ثم سأله فأعرض عنه، ثم طلع طلحة من باب المسجد وعليه ثياب خضر فقال رسول الله: أين السائل؟ قال: هأنذا. فقال: «هذا ممن قضى نحبه» وفي رواية ابن أبي حاتم ما يفيد أن هذه القصة كانت عقب الرجوع من أحد[1]، كما عرف الصحابة لطلحة هذا اليوم. وكان الصديق إذا حدث عن يوم أحد قال: «ذاك يوم كان كله لطلحة». وكان علي رضي اللّه عنه إذا سئل عن طلحة قال: ذاك امرؤ نزل فيه قول اللّه تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وفي غزوة تبوك - وكانت وقت الجهد والحر وقلة الظهر - خطب رسول اللّه ﷺ حاثا على الإنفاق، فجادت أريحية طلحة بمال كثير.

ولما علم رسول اللّه ﷺ أن بعض اليهود اجتمعوا في بيت سويلم اليهودي يتآمرون ويثبطون الناس عن الخروج في جيش الرسول، ندب لهم طلحة في نفر من أصحابه وأمرهم أن يحرقوا عليهم البيت، فامتثلوا أمر الرسول وقضوا على الشر قبل استفحاله. فلله هذه الحياة الحافلة بصحائف من البطولة وجلائل الأعمال وإنها لمثل يحتذى لمن ينشد الرجولة الحقة والوفاء.

وفاتـه:

كان طلحة رضي اللّه عنه ممن خرج مع السيدة عائشة أم المؤمنين إلى البصرة ليثأروا من قتلة عثمان رضي اللّه عنه. وكان ما كان من أمر موقعة الجمل[2]. وقد لقي عليٌّ طلحة قبيل الموقعة فحاجه وذكره بأشياء من سوابقه وفضله - وكان الرجل ينشد الحق ويطلبه ولم يكن خروجه إلا عن اجتهاد منه لا عن هوى وشهوة - فما لبث أن استجاب لعلي واعتزل القتال والصفوف، فلم يلبث أن جاءه سهم فوقع في ركبتيه وانتظم السهم مع ساقه خاصرة الفرس فجمح به حتى كاد يلقيه وهو يقول: إليَّ عباد اللّه! فأدركه مولى له، فركب وراءه وأدخله البصرة فمات بها. ويقال: إنه مات بالمعركة، وأن عليًّا لما رآه بين القتلى تألم وجعل يمسح التراب عن وجهه وقال: «رحمة اللّه عليك أبا محمد، يعز

(١) تفسير ابن كثير جزء ٦ ص٥٢٧.

(٢) انظر في ذلك السفر العظيم «العواصم في القواصم» لابن العربي المالكي، طبع مكتبة السنة، ففيه شفاء العي، وفوائد جمة، خاصة بالموضوع وبيان الحق في القصة ومواقف الصحابة رضي الله عنهم. [الناشر].

عليَّ أن أراك مجندلًا تحت نجوم السماء». ثم قال: «لوددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة».

وقد عاش طلحة حميدًا ومات شهيدًا. روى أبو القاسم البغوي بسنده عن جابر بن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «من أراد أن ينظر إلى شهيد يمشي على الأض فلينظر إلى طلحة بن عبيد اللّه»، وكفى طلحة جزاءً وفاقًا أن يكون جارًا لرسول اللّه في الجنة. روى الترمذي بسنده عن علي رضي اللّه عنه قال: سمعت أذناي رسول اللّه ﷺ يقول: «طلحة والزبير جاراي في الجنة»، والزبير كان ممن ثبت مع رسول اللّه يوم أحد ووفى بنذره، وقد كانت وفاته يوم الخميس لعشر خَلَوْنَ من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين من الهجرة وكان عمره حين استشهد اثنتين وستين سنة وقيل: أربعًا وستين سنة. فسلام عليه في الأولين، ولسان صدق له في الآخرين، وأمان له من مولاه يوم يقوم الناس لرب العالمين.



(٤)

مصعب بن عمير الصحابي الذي آثر الفقر على النعيم[١]

من ذلك الفتى الذي يبدو عليه آثار النعيم ؟ فوجهه يشرق بماء الحياة الناعمة الهنية، وثيابه ألين من الحرير، وَلِمَّتُهُ لا ترى إلا مُرَجَّلَة يفوح نفح الطيب، ونعله الحضرمية لا يلبسها إلا القليلون من أهل الثراء ؟ ثم هو يغدو ويروح في شعاب مكة فتمتد إليه العيون، لما كان عليه من شباب، وجمال، وصحة، وفتوة، ومن كان يحظى به من نسب وحسب، فيا تُرى من يكون هذا الفتى المعطار ؟ !.

إنه الفتي الشاب مصعب بن عمير بن هشام بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي يجتمع مع النبي ﷺ في جده « قصي » وكان يكنى أبا عبد الله، قال الواقدي: كان مصعب بن عمير فتى مكة، شبابا وجمالًا، وتيهًا، وكان أبواه يحبانه، وكانت أمه تكسوه أحسن ما يكون من الثياب، وكان أعطر أهل مكة، يلبس الحضرمي من النعال، وكان رسول اللّه ﷺ يذكره ويقول: « ما رأيت بمكة أحسن لمة[٢]، ولا أرق حلة - ثيابا - ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير ». ولم أعلم فيما قرأت تصويرًا لما كان يتقلب فيه ابن عمير من النعيم، من هذا الكلام النبوي البليغ.

ويُنبأ رسول اللّه ﷺ، ثم بدأ يدعو إلى اللّه سرًا، فيؤمن به بعض الشباب والشيب، والأشراف والعبيد، وكانوا يجتمعون في دار الأرقم بن أبي الأرقم، دار الإسلام، في هذا الطور من الدعوة إلى الله، وإلى الإسلام، ويترامى إلى مصعب خبر دعوة النبي ﷺ إلى التوحيد، ونبذ عبادة الأوثان، وإلى هذا الدين الجديد دين الإسلام، دين الهدى، والحق، والخير.

ولكن ماذا يصنع ؟ هؤلاء هم المسلمون يستخفون ولا يستعلنون، ولن يستطيعوا ذلك، وهاهم المشركون، وصناديد قريش لهم بالمرصاد، وها هو من يتبع النبي لا يسلم من السخرية، ولا من الإيذاء حتى من أهله، بل ومن والديه، أيترك ما هو فيه من النعيم

---

(١) مجلة التضامن، ج٨ سنة ٢٥، صفر ١٣٩١هـ، إبريل ١٩٧١م.

(٢) الشعر الذي يجاور شحمة الأذن. « قاموس ».

ويعادي أهله وقومه ويدخل في دين النبي محمد ؟ أيؤثر الفقر على الغنى ؟ وشقوة الحياة على نعيمها ؟ أم يبقى فيما هو فيه يتقلب في مطارف النعيم ؟ ! وتلحظ الشاب المتنعم عناية اللَّه تبارك وتعالى، فإذا هو يؤثر النعيم الباقي في الآخرة على النعيم الزائل في الدنيا ويؤثر الفقر على الغنى، والخشن من الثياب على اللين والخز والصوف، في ظل هذا الدين الذي يدعو إليه الصادق الأمين.

ويذهب مصعب بعد طول تفكير واقتناع إلى النبي ﷺ في دار الأرقم ويسلم، ولكنه - كغيره من بعض شباب قريش - كتم إسلامه خوفًا من أمه وقومه فكان يختلف إلى رسول اللَّه ﷺ سرًّا فبصر به عثمان بن طلحة بن عبد الدار يصلي فأخبر أمه وقومه، فما كان منهم إلا أن أخذوه فحبسوه وأوثقوه، ولم يزل - رضى اللَّه عنه - محبوسًا إلى أن لاحت له فرصة الإفلات منه فخرج مهاجرًا إلى الحبشة وتحمل في هجرته ما تحمل من شظف العيش وقسوة وألم الغربة، حتى نَسِيَ ما كان فيه من النعيم.

وتبدو طلائع النور من جهة المدينة - على ساكنها أفضل الصلاة والسلام - وتكون بيعة العقبة الثانية بين النبي وثلة من الأنصار، ويبدأ الإسلام ينتشر في المدينة، ويشعر المسلمون بالحاجة إلى من يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام فكتبوا إلى رسول اللَّه ﷺ: أن ابعث إلينا من يقرئنا القرآن، ويفقهنا في الدين، وقد صادف هذا هوى من نفس النبي ﷺ، فوقع اختياره على السيد الجليل مصعب بن عمير، فكان عند حسن ظن النبي، ونجح في بعثته أيما نجاح.

أول مبعوث في الإسلام:

وذهب إلى الأنصار مصعب - رضي اللَّه عنه - ليقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، ويؤمهم في الصلاة، وذلك أن الأوس والخزرج كره كل منهم أن يؤمه الآخر، وكان يسمى بالمدينة « المقرئ » و« القارئ » وكان نزوله في المدينة على الصحابي الجليل السباق إلى الخير: أسعد بن زرارة سيد الخزرج ونقيب الأنصار من الخزرج في بيعة العقبة الثانية.

نجاح مصعب في مهمته:

وقد نجح داعية الإسلام الأول بالمدينة في إسلام الكثيرين من أهلها من أَجَلِّهم سعد

ابن معاذ، وأسيد بن حضير[1] وبإسلامهما أسلم الكثيرون من بني عبد الأشهل وغيرهم، وإليك قصة سيدنا مصعب بن عمير، فإن فيها أسوة حسنة لكل داع إلى الله، وإلى الإسلام بإخلاص وعقيدة، وتفانٍ في سبيل الدعوة، كما ذكرها إمام أهل المغازي محمد ابن إسحاق.

ذلك أن مصعب بن عمير نزل على أسعد بن زرارة سابق الأنصار إلى الإسلام، فخرج أسعد بمصعب يريد دار بني عبد الأشهل، ودار بني ظفر، فدخل به أسعد حائطًا[2] من دار بني ظفر على بئر يقال لها: بئر مرق، فجلسا في الحائط، واجتمع إليهما رجال من أسلم، وكان سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير سيدا قومهما من بني عبد الأشهل، وكانا مشركين على دين قومهما فلما سمعا بمصعب بن عمير ونشاطه في الدعوة إلى الإسلام، قال سعد لأسيد: لا أبالك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما، وانههما أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أسعد بن زرارة مِني حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي، ولا أجد عليه معدما، فأخذ أسيد بن حضير حربته، ثم أقبل عليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب: هذا سيد قومه، وقد جاءك فاصدق اللّه فيه.

قال مصعب: إن يجلس أكلمه، فوقف عليهما متشتما فقال: ما جاء بكما تسفهان ضعفاءنا ؟ ! اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال مصعب بلسان المؤمن الهادئ الواثق من دعوته: أو تجلس فتسمع ؟ ! فإن رضيت شيئًا قبلته، وإلا كُفَّ عنك ما تكره ! قال أسيد: أنصفت ! ثم ركز حربته، وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا فيما يذكر عنهما: واللّه لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله ! ! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين ؟ قالا له: تغتسل فتطهر، وتطهر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهَّد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلًا أن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكم الآن: سعد بن

---

(١) بالتصغير في «أسيد» و«حُضير» أي بضم الأول وفتح الثاني.
(٢) بستانًا.

معاذ. ثم أخذ حربته، وانصرف إلى سعد وقومه، وهم جلوس في ناديهم فلما نظر إليه سعد مقبلًا قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بن حضير بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم! فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين فواللَّه ما رأيت بهما بأسًا!! وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حدثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليحقروك! وغرضه إثارة حميته للذهاب إليهما.

فقام سعد مغضبًا مبادرًا مخوفًا للذي ذكر له من أمر بني حارثة، وأخذ الحربة في يده، ثم قال: واللَّه ما أراك أغنيت شيئًا، ثم خرج إليهما سعد فوجدهما مطمئنين، فعرف أن أسيدًا إنما أراد أن يسمع منهما، فوقف متشتما، ثم قال لأسعد بن زرارة: واللَّه يا أبا أمامة لولا ما بيني وبينك من القرابة مارمت هذا مِني. أتغشانا في دارنا بما نكره، وكان أسعد قد قال لمصعب: لقد جاءك - واللَّه - سيد من وراءه من قومه إن يتبعك لا يتخلف منهم اثنان: فقال له مصعب: أوتقعد فتسمع؟! فإن رضيت أمرًا، ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره! فقال سعد: أنصفت! ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ القرآن وذكر موسى بن عقبة في مغازيه أنه قرأ عليه أول سورة الزخرف، قالا: فعرفنا - واللَّه - في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه، وتسهله، ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم، ودخلتم في هذا الدين؟ قال: تغتسل فتطهر، وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته، فأقبل عائدًا إلى نادي قومه، ومعه أسيد بن حضير، فلما رآه قومه مقبلًا قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم فلما وقف عليهم قال: يابني عبد الأشهل: كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا، وأفضلنا رأيًا، وأيمننا نقيبةً!! قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله!!.

قال: فواللَّه ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلمًا أو مسلمة ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال مسلمون، ونساء مسلمات!! إلا ما

كان من الأصيرم[١] وهو عبد بن ثابت بن وقش[٢] فإنه تأخر إسلامه إلى يوم أحد فأسلم، واستشهد بأحد، ولم يسجد للَّه سجدة قط، وأخبر رسول اللَّه ﷺ أنه من أهل الجنة.

وقد روى ابن إسحاق - بإسناد حسن - عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه أنه كان يقول: «حدثوني عن رجل دخل الجنة لم يصل صلاة قط، فإذا لم يعرفه الناس قال: هو أصيرم بني عبد الأشهل»، ولم يكن في بني عبد الأشهل منافق ولا منافقة، بل كانوا حنفاء مخلصين.

ثم عاد مصعب بن عمير إلى مكة حتى أذن النبي لأصحابه في الهجرة إلى المدينة فكان من أوائل المهاجرين إليها، وتحمل فيمن تحمل من المهاجرين خشونة الحياة، وشدة الفاقة، وألم الغربة، وتقبلوا ذلك بقلب مطمئن، ونفس راضية في سبيل عقيدتهم، ودينهم، وهان عليهم كل شيء في سبيل غايتهم الشريفة، وكان تَقَبُّلُ شظف العيش وبؤس الحياة - من مثل سيدنا مصعب بن عمير - أمرًا يستحق الإشفاق والتألم من كل من يراه، وهو الذي تربى في مطارف النعيم، وكان ذا ثروة، ونعمة في مكة، فلا عجب أن كان النبي الإنسان الرءوف الرحيم، كان إذا رأى رثاثته وحاله بكى، روى الترمذي في سننه من طريق محمد بن كعب قال: حدثني من سمع عليًّا يقول: «بينما نحن في المسجد إذ دخل علينا مصعب بن عمير، وما عليه إلا بُردة له مرقوعة بفروة، فبكى رسول اللَّه ﷺ لما رآه، للذي كان فيه من النعمة، والذي هو فيه اليوم»[٣]، وفي يوم أُحد المشهور يعطيه رسول اللَّه ﷺ الراية، وكانت الجولة الأولى للمسلمين، ويترك معظم الرماة أماكنهم، وتأخذ خيل المشركين المسلمين من ظهورهم، وينهزم الكثير من المسلمين، ويقف رسول اللَّه ﷺ كالطود الشامخ، وحوله ثلة من المسلمين الأبطال؛ ومنهم مصعب بن عمير، يدافعون عنه، ويفدونه بأنفسهم، وفي هذا الموقف الشجاع، وهذه الساحة الكريمة: ساحة الاستشهاد في سبيل اللَّه يستشهد الصحابي الجليل مصعب

---

(١) بصاد مهملة: تصغير أصرم، وبه كان يلقب أيضًا، وقيل: اسمه أصرم وقدمه البعض على المصغر.

(٢) بفتح الواو، وسكون القاف، ثُم شين معجمة، ويقال: أقيش، وقد ينسب إلى جده، فيقال: ابن أقيش.

(٣) رواه الترمذي (٢٤٧٦)، وأبو يعلى (٥٠٢)، وضعفه الألباني. [الناشر].

ابن عمير، وهو ينافح عن رسول الله، ويفديه بنفسه، وبذلك كتب في سجل الخلود في الإسلام سجل الشهداء والصديقين.

وتأتي ساعة دفنه في سهل أحد فإذا به عليه نمرة[١] إذا غطوا بها رأسه خرجت رجلاه، وإذا غطوا بها رجليه خرج رأسه وينظر إليه رسول اللّه ﷺ وهو حزين القلب عليه ويقول: «غطوا بها رأسه واجعلوا على رجليه من الإذخر»[٢] رواه البخاري.

رضوان اللّه عليك يا سيدي مصعب بن عمير فقد آثرت الإسلام على كل دين. واخترت - في ظل الدين - الفقر والضنك، على ما كنت تتقلب فيه من النعيم.



(١) كساء غليظ خشن.

(٢) نبت طيب الرائحة.

(٥)

جعفر الطيار[١]

فتى لا كالفتيان في الصميم من قريش نسبًا وشرفًا زكت نفسه وسمت روحه وطاب خلقه في جاهليته وإسلامه لاح له النور فتقبله بصدر منشرح ونفس مطمئنة.

ذلكم الفتى هو السيد الزكي جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم ابن عم النبي صلوات اللّه وسلامه عليه وشبيه خَلقه وخُلقه فهو من هذه الشجرة الهاشمية التي أصلها ثابت وفرعها في السماء.

حياتـه :

نشأ في بيت من أكرم البيوتات ويظهر لنا من سيرته أنه جَانَبَ الخَنَا والإثم في جاهليته ولما أشرق نور الإسلام كان من السابقين الأولين أسلم بعد أخيه علي بقليل ولما هاجر المسلمون إلى الحبشة فرارًا بدينهم كان من السابقين[٢] إليها ولاغرو فقد كان سباقًا إلى كل فضيلة وقد أقام بالحبشة متحملًا شظف العيش وألم الغربة إلى أن قدم على النبي ﷺ بعد فتح خيبر فتلقاه الرسول الكريم ﷺ بالبشر والترحاب وعانقه وقبله بين عينيه وقال: « ما أدري بأيهما أنا أشد فرحًا بقدوم جعفر أم بفتح خيبر ».

وهذه العبارة ترينا إلى أي حد كانت منزلة جعفر رضي اللّه عنه عند رسول اللّه ﷺ ولا عجب فقد نافح عن المسلمين بلسانه كما نافح عن الإسلام بسنانه ومازال مثال المسلم الكامل حتى استشهد مرضيًّا عليه من ربه.

أخلاقه:

كان دمث[٣] الأخلاق سمحًا كريمًا معطاءً متواضعًا عطوفًا على الفقراء والمساكين يجلس إليهم يخدمهم ويخدمونه ويحدثهم ويحدثونه حتى لقب بأبي المساكين روى

---

(١) مجلة الحج، السنة الأولى، العدد الثامن.

(٢) اختلف المؤرخون في هجرة جعفر رضي الله عنه إلى الحبشة، فذهب الإمام محمد بن إسحاق إلى أن خروجه كان في الهجرة الأولى، وزعم موسى بن عقبة أن خروجه كان في الهجرة الثانية بعد عودة من كان خروجه إليها أولًا – والأرجح كما قال العلامة ابن كثير – أن خروجه كان في الهجرة الأولى، لكن كان في الفوج الثاني، ويؤيده أن جعفر كان لسانهم والمترجم عنهم عند النجاشي. « البداية والنهاية » جزء٣ ص ٦٧.

(٣) الدَّمَاثةُ: سُهُولَة الخُلُقِ. يقال: ما أَدْمَثَ فُلانًا وأَلْيَنَهُ!. لسان العرب. [الناشر]

البخاري في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه « وكان أخير الناس للمساكين جعفر ابن أبي طالب كان ينقلب بنا فيطعمنا ما كان في بيته حتى أنه ليخرج إلينا العكة[1] التي ليس فيها شيء فنشقها فنلعق ما فيها »، وروى الترمذي والنسائي عنه أيضًا قال: « ما احتذى النعال ولا ركب المطايا ولاوطئ التراب بعد رسول اللَّه ﷺ أفضل من جعفر ».
وماذا أقول في رجل أشبه خلق النبي وخلقه؟ إلا أنه كان أمة جامعًا لغرر الآداب وعيون الفضائل.

عقله وفصاحته:

لما هاجر المسلمون إلى الحبشة أرسلت قريش في أثرهم داهية العرب عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بهدية لينال النجاشي من المسلمين فلما دخلا عليه سجدا له ثم قالا: إن نفرا من بني عمنا نزلوا أرضك ورغبوا عنا وعن ملتنا، قال: فأين هم؟ قالا: في أرضك. فبعث إليهم، وهنا كان الابتلاء وقد انتدب جعفر رضي اللَّه عنه لنفسه هذا الموقف الرهيب الذي تزل فيه الأقدام والذي لا يثبت فيه إلا أمثال جعفر فقال لأصحابه: أنا خطيبكم فاتَّبعوه فَسَلَّمَ ولم يسجد. فقالوا له: ما لك لا تسجد للملك؟ فقال: « إنا لا نسجد إلا للَّه عز وجل » قال: وما ذاك؟ قال: إن اللَّه بعث إلينا رسولًا ثم أمرنا أن لا نسجد إلا للَّه عز وجل، وأمرنا بالصلاة والزكاة. قال عمرو: فإنهم يخالفونك في عيسى ابن مريم. قال: فما تقولون في عيسى ابن مريم وأمه؟ قال: نقول كما قال اللَّه تعالى هو: كلمة اللَّه وروحه ألقاها إلى العذراء البتول التي لم يمسسها بشر فرفع النجاشي عودًا من الأرض وقال: يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان واللَّه ما يزيدون على الذي نقول فيه سوى هذا؛ مرحبًا بكم وبمن جئتم من عنده أشهد أنه رسول الله، وأنه الذي نجد في الإنجيل، وأنه الرسول الذي بشر به عيسى ابن مريم، انزلوا حيث شئتم، واللَّه لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا الذي أحمل نعليه، وأمر بهدية الآخرين فردت إليهما ». وهكذا تكون رجاحة العقل، وثبات الجنان، وفصاحة اللسان، وعزة النفس عند المكاره، وهكذا تكون الرجولة حين يختبر الرجال.

---

(١) العكة بضم العين: إناء السمن أصغر من القربة. « قاموس ».

شجاعته:

أما شجاعته فحدث عنها ولا حرج، وليس أدل على شجاعته الأدبية من هذا الموقف الخالد الذي أنقذ فيه المسلمين من مأزق خرج وكان سببًا في إسلام النجاشي، وحسبك شاهدًا على شجاعته - حيث تتساقط المنايا وتقطع الرقاب ويفر الكماة ما سطره له الثقات بحروف من نور عن موقفه المشرف في غزوة مؤتة ذلك أن النبي ﷺ أمَّر عليهم زيد بن حارثة وقال: إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب وأن أصيب جعفر فعبد اللَّه بن رواحة فاستشهد زيد رضي اللَّه عنه فأخذ جعفر اللواء وقاد الجيش بإيمان ثابت ونفس تواقة إلى الاستشهاد في سبيل اللَّه وأبلى في ذلك اليوم بلاءً خلده في عداد الأبطال ذلك أنه أخذ اللواء بيمينه فقطعت فأخذها بشماله فقطعت وعز عليه أن يسقط اللواء رمز وحدة الجيش وعزته فاحتضنه بعضديه ومازال محتضنا له حتى عالجته ضربة طائشة فسقط شهيدًا وقد أرضى ربه وعقيدته ثم التمسوه بين القتلى فوجدوا به بضعًا وتسعين ما بين ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم وكان جزاؤه من ربه أن عوضه بيديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء ويسابق بهما الملائكة وقد بقي ذكره لسان صدق في الآخرين ومحمدة يوم تذكر المحامد فقد كان ابن عمر رضى اللَّه عنهما إذا سلم على ابن جعفر قال: « السلام عليك يا ابن ذي الجناحين »، فلله أنت يا جعفر فقد ضربت لنا في البطولة مثلًا عاليًا، وألقيت على المؤمنين درسًا من دروس الإيمان، وعلمتهم كيف يسمو الإيمان بصاحبه حتى يضحي بالنفس في سبيل غايته، وحتى يجد في الألم لذة، وفي العذاب استعذابًا.

رثائه:

لما استشهد السيد الهمام جعفر، جادت شاعرية السيد حسان بن ثابت، المنافح عن الإسلام والمسلمين والمسجل لفضائل النبي وصحابته بشعر ينم عن منزلة جعفر وثكل المسلمين بفقده.

قال:

ولقد بَكَيْتُ وَعَزَّ مَهْلَكُ جعفر ... حِبُّ النبي على البريةِ كُلِّهَا

ولقد جَزِعْتُ وقُلْتُ حين نُعِيْتَ لي ... مَنْ للجِلَادِ لدى العقاب وظِلِّهَا

يالبيض حين تُسَلُّ من أَغْمَادِهَا ضربًا وانهال الرماح وعلها
بَعْدَ ابنَ فاطمةَ المُبَارَكُ جَعْفَرٌ خَيْرُ البَرِيَّة كُلِّهَا وأجَلّها

ومن ذلك قوله في قتلى مؤتة:

فَلَا يُبْعِدَنَّ اللَّهُ قَتْلَى تَتَابَعُوا بِمُؤْتَةَ مِنْهُم ذُو الجَنَاحَيْنِ جَعْفَرُ
وَزَيْدٌ وَعَبْدُ اللَّهِ حِيْنَ تَتَابَعُوا جَمِيْعًا وَأَسْبَابُ المَنِيَّة تخطرُ

إلى أن قال:

وَمَا زَالَ في الإسلامِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ دَعَائِمُ عِزٍّ لا يَزَلْنَ وَمَفْخَرُ
هُمْ جَبَلُ الإسلامِ وَالنَّاسُ حَوْلَهُم رِضَامٌ إلى طَوْدٍ يَرُوقُ وَيَبهرُ
بها السَّيلُ منهم جعفرُ وابن أُمه عليٌّ ومنهم أَحْمَدُ المُتَخَيَّرُ
وحَمْزَةُ والعَبَّاسُ مِنْهُم ومِنْهُمُ عَقِيلٌ وماءُ العُودِ مِنْ حَيْثُ يعصرُ

وبعد: فيا شباب الإسلام وجنوده هذا طريق المجد فانهجوه، وسبيل العزة فاسلكوه، وهؤلاء آباؤكم الذين دوخوا الدنيا، ورفعوا راية العدل والأمان، وأدالوا دول الظلم والاستبداد، وعلموا الدنيا كيف يكون التسامح عند النصر والغلب فليكن لكم فيهم أسوة حسنة، وأعيدوا على مسمع الزمان هذه المآثر الحميدة، وبينوا للعالم أن المسلمين ما زالوا هم المسلمين، وما أجدر الباحثين بنشر هذا التاريخ المجيد لرجالات الإسلام والكشف عن هذه الصحائف المطوية لتكون عبرة وذكرى ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].



(٦)

السيد : أبو أيوب الأنصاري[١]

مَن ذا الذي يذكر الهجرة، ولا يذكر المضيف الأول، والرجل الذي نال من الشرف الرفيع ما لم ينله أحد من أهل المدينة - أوسها وخزرجها- وهو السيد الجليل «أبو أيوب الأنصاري»، فقد أبى اللَّه ورسوله إلا أن يكرم بنو النجار أخوال جد رسول اللَّه ﷺ، وكان تكريمهم في شخص الرجل الكريم أبي أيوب رضي اللَّه عنه.

ولو أن فضل أبي أيوب تمثل في إضافته لرسول اللَّه لكفى، فما بالك وقد تمثل في شخصيته شتيت من المفاخر والفضائل، فهو - فضلًا عن كرمه - مرهف الحس والشعور، ذو أدب عالٍ، شجاع أبيّ مجاهد من الطراز الأول، يرى أن نفسه ونفيسه شيء هين في سبيل نصر دين اللَّه وإعزازه. وقد كانت وفاته بجوار أسوار القسطنطينية شهادة حق على مبلغ حبه للَّه وإعزاز دينه، وأمارة صدق على ما ينبغي أن يكون عليه المجاهد في سبيل الله. وإن في التحدث عن الرجل الذي صدق اللَّه فيما عاهد عليه لوفاء ببعض الذكرى لرجل الوفاء.

نسبه:

هو خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة بن عبد عوف بن غنم بن مالك بن النجار، واسم النجار تيم اللَّه بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج الأكبر، أبو أيوب الأنصاري الخزرجي، معروف باسمه وكنيته. وأمه السيدة هند بنت سعيد بن عمرو بن امرئ القيس بن مالك ابن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج.

فإلى الخزرج ينتهي نسبه من جهة أبيه وأمه. وبنو الخزرج إحدى القبيلتين المشهورتين اللتين يتكون منهما عرب المدينة. وبنو النجار في الذؤابة من أهل المدينة نسبًا وفضلًا، وإلى هذا يشير الحديث الصحيح الذي رواه البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ قال: «خير دور الأنصار بنو النجار، ثم بنو الأشهل، ثم بنو الحارث بن الخزرج، ثم بنو ساعدة وفي كل دور الأنصار خير». ولم يكن هذا من رسول اللَّه ﷺ عن مجاملة

---

(١) مجلة الأزهر، المجلد الخامس والعشرين، الجزء الأول، محرم ١٣٧٣هـ - سبتمبر ١٩٥٣.

أو محاباة، فرسول اللَّه ﷺ لا يقول إلا الحق ولا ينطق إلا بالصدق، وليس للمحاباة إلى نفسه سبيل.

ولعل من الأسباب التي حملت هاشم بن عبد مناف سيد قريش على أن يصاهر بني النجار؛ ما لهم من فضل ومنزلة بين قومهم. وقد تزوج هاشم سلمى بنت عمرو النجارية وهي والدة عبد المطلب جد رسول اللَّه صلوات اللَّه وسلامه عليه، وفي بيوت بني النجار تربى عبد المطلب فلما كبر وترعرع عاد إلى موطن آبائه، وإليه انتهت الرياسة في قريش.

إسلامه:

كان أبو أيوب رضي اللَّه عنه من السابقين إلي الإسلام من الأنصار. فبعد بيعة العقبة الأولى أرسل رسول اللَّه ﷺ مصعب بن عمير مع من أسلموا، وقد كان له أثر حميد في إسلام كثير من أشراف المدينة وسادتها، فانتشر الإسلام في المدينة حتى لم يبق بيت من بيوت المدينة إلا وقد استضاء بنور الإسلام.

وكان أبو أيوب ممن شهد بيعة العقبة الثانية من مسلمي المدينة، وأخذ عليهم رسول الله صلوات اللَّه وسلامه عليه العهد على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم ونساءهم وأبناءهم، وعلى السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر. وقد وَفَّى أبو أيوب بما عاهد عليه، فكان مثالًا عاليًا للجهاد والكفاح على كل حال.

روايته الحديث عن رسول الله ﷺ:

روى أبو أيوب الحديث عن النبي ﷺ وعن أُبي بن كعب، وروى عنه من الصحابة ابن عباس، وابن عمر، والبراء بن عازب، وأبو أمامة، وزيد بن خالد الجهني، والمقداد ابن معديكرب، وأنس بن مالك، وجابر بن سمرة، وغيرهم من الصحابة. ومن التابعين سعيد بن المسيِّب، وعروة بن الزبير، وسالم بن عبد الله، وعطاء بن يسار وغيرهم، وقد خرج له أصحاب الصحاح والسنن والمسانيد، وله في صحيح البخاري سبعة أحاديث.

المآثر الخالدة:

لما هاجر رسول اللَّه ﷺ وصاحبه الصديق إلى المدينة نزلا أول ما قَدِمَا بقباء، وأقام رسول اللَّه في بني عمرو بن عوف حتى بنى مسجد قباء، وهو المسجد الذي أُسِّسَ على التقوى.

وبعد أن أقام رسول اللَّه ﷺ في بني عمرو بن عوف بضعة أيام أو تزيد خرج يوم الجمعة متوجهًا إلى المدينة فأتاه رجال من بني سالم بن عوف فقالوا: يا رسول اللَّه أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة. وتعلقوا بزمام الناقة، فقال لهم الرسول: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة»، وسار رسول اللَّه ﷺ والأنصار يحفون به متقلدي السيوف، وكان كلما مر بدار من دور الأنصار تعلق أهلها بزمام الناقة وتضرعوا إليه أن ينزل عندهم في العدد والعدة والمنعة، فيقول لهم: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة». وما زالت الناقة تسير حتى بركت في موضع مسجد رسول اللَّه أمام دار أبي أيوب، فقال رسول اللَّه ﷺ أي بيوت أهلنا أقرب؟ فقال أبو أيوب: أنا يا رسول الله، هذه داري وهذا بابي. قال: فانطلق، فهيئ لنا مقيلا. فاحتمل أبو أيوب – وهو قرير العين – رحل رسول اللَّه إلى بيته. ثم جاء رجل إلى رسول اللَّه فقال: أين تحل؟ فقال له «المرء مع رحله حيث كان»، فكانت مكرمة لأبي أيوب خالدة على وجه الدهر.

وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بخطام ناقة رسول اللَّه ﷺ فكانت عنده، وبقي رسول اللَّه ﷺ في بيت أبي أيوب مكرمًا معززًا مدة سبعة أشهر، حتى بنى المسجد وبيوت نسائه فانتقل إليها، وفتح أبو أيوب بابه على مصراعيه لاستقبال زوار رسول اللَّه على الرحب والسعة، وتسابق الأنصار رضوان اللَّه عليهم في إكرام رسول اللَّه ﷺ وصحبه، وما من ليلة إلا وعلى باب أبي أيوب الثلاثة والأربعة يتناوبون القصاع، وكان أبو أيوب يرسل بقصعته ولا يتناول العشاء حتى يتناوله رسول الله ﷺ، ويتحرى هو وأم أيوب موضع أصابع النبي يلتمسان بذلك البركة، وفي ليلة من الليالي بعثا لرسول اللَّه بعشائه وفيه بصل أو ثوم، فرده رسول اللَّه وليس ليده فيه أثر. قال أبو أيوب: فجئته فزعًا فقلت: يا رسول اللَّه بأبي أنت وأمي رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك. فقال: إني وجدت فيه ريح هذه الشجرة، وأنا رجل أناجي، وأما أنتم فكلوه، قال أبو أيوب: فأكلناه، ولم نصنع له تلك الشجرة بعد.

ومن أدب أبي أيوب الرفيع أنه تحرج أن يكون رسول اللَّه ﷺ في سفل البيت وهو في العلو فجاء إلى رسول اللَّه ﷺ فقال له: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، إني أكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي، فاظهر أنت فكن في العلو، وننزل نحن فنكون في السفل. فاعتذر له رسول اللَّه ﷺ مبينًا الحكمة في اختيار السفل قائلًا: «يا أبا أيوب ارفق بنا

وبمن يغشانا أن أكون في سفل البيت». لكن أبا أيوب لم يطب نفسًا بأن يعلو رسول الله فتنحى هو وأهله فباتوا في جانب غير مسامت لرسول الله، ولم يزل أبو أيوب يرجو رسول الله أن يكون في العلو حتى قبل رجاءه وحقق له رغبته.

وكان أبو أيوب شديد الحرص على راحة رسول الله ﷺ وزواره، فقد انكسر حُبّ لهم فيه ماء في الغرفة، قال أبو أيوب: فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء تخوفا أن يقطر على رسول الله منه شيء فيؤذيه. ومن فضائل أبي أيوب التي تدل على العفة في القول ورجاحة العقل أن السيدة زوجه لما قالت له: أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال لها: أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ فقالت: لا والله. فقال: والله لهي خير منك. فأنزل الله سبحانه تصديقًا لمقالته ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢]. كما يروى أن أبا أيوب هو الذي أرضى سهلًا وسهيلًا صاحبي المربد الذي بني موضعه المسجد النبوى عن ثمنه من حر ماله[١].

وهكذا نجد أبا أيوب قد سجل لنفسه مآثر خالدة في سجل الخالدين فرضي الله عنه وأرضاه.

عرفان الجميل لصاحبه:

وتدور الأيام دورتها، ويقدم أبو أيوب البصرة، وكان واليها يومئذ عبد الله بن عباس نائبًا عن علي رضي الله عنه، فيتلقاه بالبشر والترحاب ويقول له: يا أبا أيوب إني أريد أن أخرج لك عن مسكني كما خرجت لرسول الله ﷺ عن مسكنك وأمر أهله فخرجوا وملكه كل شيء أغلق عليه بابه، ولما أراد الانصراف أعطاه ابن عباس رضي الله عنهما عشرين ألفًا وأربعين عبدًا، وقد صارت دار أبي أيوب بعده إلى مولاه أفلح، فاشتراها منه المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بألف دينار وأصلح ما وَهِيَ من بنيانها ووهبها لأهل بيت فقراء من أهل المدينة[٢] ولا يزال موضع دار أبي أيوب في المدينة معروفًا إلى يومنا على قيد خطوات من المسجد النبوي.

---

(١) فتح الباري جزء ٧ ص١٩٦.
(٢) البداية والنهاية جزء ٣ ص ٢٠٢.

بلاؤه في الجهاد :

كانت حياة أبي أيوب سلسلة متصلة من الكفاح والجهاد والبطولة، وقد شهد بدرًا والمشاهد كلها في عهد رسول اللَّه ﷺ، ولزم الجهاد بعده، ولم يتخلف عن غزاة إلا وهو في أخرى. ولما حدثت الفتنة بين السيدين علي ومعاوية انحاز إلي جانب علي وشهد معه قتال الخوارج. ولما أرسل معاوية ابنه يزيد على رأس جيش لغزو القسطنطينية تحرج في أول الأمر أن يخرج في جيش تحت إمرة يزيد ولكن نفسه التواقة للجهاد نازعته إليه وقال: ما ضرني ما استعمل عليَّ، فلحق بالجيش وأبلى بلاء حسنًا. ثم مرض فعاده يزيد فقال له ما حاجتك ؟ قال: حاجتي إذا أنا مت فاركب بي ما وجدت مساغًا في أرض العدو، فإذا لم تجد فادفني ثم ارجع[1]. ثم قال: سأحدثكم حديثًا سمعته من رسول اللَّه ﷺ، لولا حالي هذا ما حدثتكموه، سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة »؛ فلما توفي صلى عليه يزيد ودفن بجوار أسوار القسطنطينية، وكانت وفاته في سنة اثنتين وخمسين، وهي السنة التي وقعت فيها هذه الغزاة، وقيل: سنة خمسين أو إحدى وخمسين والأكثرون على الأول، ولا يزال موضع قبره معروفًا إلى اليوم.

بعض آرائه :

وقد كان أبو أيوب في ملازمته للجهاد وحرصه عليه يصدر عن علم بكتاب اللَّه ومعرفة بالأيات التي وردت في التحريض على الجهاد. وقد حفظت لنا كتب التفسير والحديث بعض هذه الآرله، فقد كان يستدل على لزوم الجهاد على كل حال في المنشط والمكره والعسر واليسر والشباب والشيخوخة بقوله تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١]، وقد ذكر ابن جرير في تفسيره أن أبا أيوب شهد بدرًا مع رسول اللَّه ثم لم يتخلف عن غزاة للمسلمين إلا عامًا واحدًا، قال: وكان أبو أيوب يقول: قال اللَّه تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ فلا أجدني إلا خفيفًا أو ثقيلا؛ وكان يرى – وحقًّا ما رأى – أن في الرغبة عن الجهاد والاشتغال بالأهل والمال إلقاء باليد إلى التهلكة.

---

(١) الإصابة ص٤٠٥ جزء أول.

روى أصحاب السنن والحاكم في مستدركه عن يزيد بن حبيب عن أسلم أبي عمران قال: حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرقه معنا أبو أيوب الأنصاري، فقال ناس: ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: نحن أعلم بهذه الآية، إنما نزلت فينا، صحبنا رسول اللَّه ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه، فلما فشا الإسلام وظهر، اجتمعنا معشر الأنصار تحببا فقلنا: قد أكرمنا اللَّه بصحبة نبيه ﷺ حتى فشا الإسلام وكثر أهله، وكنا قد آثرناه على الأهلين والأموال والأولاد، وقد وضعت الحرب أوزارها، فنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيها. فنزل فينا: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، فكانت التهلكة في الأهل والمال وترك الجهاد. وصدق السيد أبو أيوب فما أُتي المسلمون وغلبوا على أمرهم إلا يوم أن تخلوا عن الجهاد، واشتغلوا بالأموال والأولاد. ورضوا بالراحة، وأخلدوا إلى الضعف والاستكانة.

وبعـــد:

فهذه سيرة يتمثل فيها الطهر والعفاف وكرم النفس وشجاعة الطبع وأصالة الرأي وأدب الضيافة العالى وحب الجهاد والاستشهاد، ولعل فيها نبراسًا للذين ينشدون مكارم الأخلاق ومحاسن الفعال، ووازعًا للذين يجاهدون في سبيل اللَّه ويطلبون الشهادة في سبيل الحق وعز الأوطان، وعزاء للذين يفقدون الأحبة وفلذات الأكباد وهم بمنأى عنهم في ساحات الكرامة والخلود.



(٧)

أبو سلمة عبد اللّٰه بن عبد الأسد بن هلال[1]

كلما هل هلال المحرم من كل عام هجري، حمل في نوره الفضي إلى العالم الإسلامي الذكرى العزيزة على كل نفس مجاهدة، الحبيبة إلى كل قلب مؤمن، ذكرى أعظم حادث تاريخي عرفته الدنيا، واتخذه المسلمون مبدأ لتاريخهم المجيد، ألا وهو الهجرة الكبرى، هجرة الرسول الأعظم ﷺ وصحابته من مكة إلى المدينة، تاركين الأهل والولد، والمال والوطن، فارِّين بدينهم إلى أرض اللّٰه الواسعة، حيث يمكنهم أن يعبدوا الله، وأن ينشروا دعوة الحق والخير والفضيلة بين عباد الله، فكان لهم ما أرادوا، وأبدلهم اللّٰه بضعفهم قوة، وقلتهم كثرة، وخوفهم أمنا.

وتاريخ الهجرة حافل بالمثل العليا الرائعة التي يقف أمامها المتأمل وقفة الإكبار والإجلال، لهذه الثلة المؤمنة التي نشرت - بصبرها وكفاحها - دينا قويما، وأقامت أمة هي خير أمة أخرجت للناس.

ولم تكن هذه المثل العليا من صنع الرجال فحسب، وإنما صنعها الرجال والنساء على سواء، وهذا هو سر الإيمان، فقد صير من القوارير الضعاف بطلات في باب الكفاح في سبيل العقيدة والمثل العليا، مع احتفاظهن بخصائص النساء الكوامل من عفة وحشمة، وحفاظ لحقوق اللّٰه وحق الأزواج.

وأنا الآن بصدد التحدث عن بيت مسلم من البيوتات الإسلامية التي كافحت وجالدت وهاجرت الهجرتين، وتقبلت بصدر رحب ونفس مطمئنة آلام الغربتين. وهذا البيت يعتبر مثالًا صالحًا لما ينبغي أن تكون عليه البيوت الإسلامية الرشيدة: فالزوجة كانت خير معوان لزوجها على جهاده وكفاحه في سبيل عقيدته، وَأَبَتْ عليها نفسها الكبيرة - وقد نشأت وترعرعت في بيت كبير من بيوت بني مخزوم - إلا أن تكون مع زوجها حيث كان، تقاسمه الهموم والآلام؛ والزوج كان المثل الكامل في حسن العشرة والقيام بحقوق الزوجية، فلا عجب أن استأثر حبه بقلبها، ووفت له في حياته وبعد مماته حق الوفاء.

---

(١) مجلة الأزهر، الجزء الأول، المحرم ١٣٧٤ أغسطس ١٩٥٤م، المجلد السادس والعشرون.

أما الزوج فهو السيد الجليل أبو سلمة رضي اللّه عنه، وأما الزوجة فالسيدة أم سلمة رضي اللّه عنها، والتي صارت فيما بعد من أمهات المؤمنين رضوان اللّه وسلامه عليهن.

مَن هو أبو سلمة؟

هو السيد عبد اللّه بن عبد الأسد بن هلال بن عبد اللّه بن عمرو بن مخزوم القرشي المخرومي، وأمه برة بنت عبد المطلب بن هاشم، فهو ابن عمة رسول اللّه ﷺ، وكان أخا رسول الله، وأخا سيد الشهداء حمزة من الرضاع: أرضعتهم ثويبة مولاة أبي لهب؛ أرضعت حمزة، ثم رسول الله، ثم أبا سلمة. وبنو مخزوم من البيوتات القرشية التي كانت تتقاسم الشرف في الجاهلية، فقد كان فيهم القبة والأعنة[1]، كما كان في بني هاشم السقاية. وإلى جده عبد المطلب انتهت السيادة والرئاسة في قريش. فالرجل فرع من أصلين كريمين يطاولان السماء بمفاخرهما وشرفهما، ومن ثم كانت له همة لا تسامئ، كما كان عيوفا للذلة أو أن يقيم على ضيم.

إسلامه:

كان أبو سلمة رجلا زكي النفس، طاهر الفطرة، مجانبًا للخنا والرذيلة، سباقًا إلى كل خير وفضيلة. وما أن عرض عليه الصديق الأكبر والداعية الأول أبو بكر رضي اللّه عنه الإسلام حتى استجاب له، فهو من السابقين الأولين إلى الإسلام. قال ابن إسحاق صاحب المغازي: إنه أسلم بعد عشرة أنفس، وهي مزية تجعله في الرعيل الأول من صحابة رسول اللّه ﷺ، ومن يوم أن أسلم وهو حريص على حضور مجلس رسول اللّه ﷺ يتلقى عنه الكتاب والحكمة وأصول العقيدة الصحيحة، وله حديث واحد في الاسترجاع عند المصيبة[2]، روى الإمام أحمد بسنده عن أم سلمة قالت: «أتاني أبو سلمة يومًا من عند رسول اللّه ﷺ فقال: سمعت من رسول اللّه ﷺ قولا سررت به، قال: «لا يصيب أحدًا من المسلمين مصيبة ثم يقول: اللهم أجرني في مصيبتي، وأخلف لي خيرًا منها إلا فعل به... الحديث» والظاهر أن قلة مروياته لتقدم وفاته، ولو تأخرت به الحياة لظفرنا من مروياته بشيء غير قليل.

---

(١) القبة كانت تضرب للجيش فيجمع فيها ما يمون به، والأعنة قيادة الخيل في الحروب.

(٢) البداية والنهاية جزء رابع ص ٩٠.

هجرته:

إن النفوس الكبيرة تستهين بكل شيء في سبيل دينها وعقيدتها، والقلوب المؤمنة سباقة إلى كل خير ديني أو دنيوي، والسيد أبو سلمة كان ذا قلب مؤمن ونفس كبيرة، فلا عجب أن كان من أوائل المهاجرين إلى الحبشة، ثم إلى المدينة، بل قيل: إنه أول من هاجر إليهما. روى ابن أبي عاصم في الأوائل من حديث ابن عباس رضي اللَّه عنهما: «أول من يعطى كتابه بيمينه أبو سلمة بن عبد الأسد. . . وهو أول من هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة»[1].

وقد صاحبه في هجرته إلى الحبشة زوجه السيدة أم سلمة، ومكث هو وزوجه بالحبشة مع القلة من إخوانهم المسلمين متحملين شظف العيش وألم الغربة، وولد لهما بها بعض الولد حتى نمى إلى المهاجرين بها نبأ مهادنة قريش للمسلمين بسبب إسلام السيد الهمام عمر بن الخطاب رضوان اللَّه عليه، فرجعا فيمن رجعوا، وما أن وصلوا إلى مكة حتى وجدوا أن محاربة قريش للمسلمين قد عادت كما كانت وأشد، فرجع البعض، ودخل البعض في جوار بعض أشراف قريش، ومن هؤلاء السيد أبو سلمة، فقد دخل في جوار خاله، ولما أجاره خاله مشى إليه رجال من بني مخزوم فقالوا له: يا أبا طالب، منعت منا ابن أخيك محمدًا، فما لك ولصاحبنا تمنعه منا؟ قال: هو استجار بي، وهو ابن أختي، وإني إذا لم أمنع ابن أختي لم أمنع ابن أخي. فعز على أبي لهب إحراجهم لأخيه أبي طالب فقال: يا معشر قريش، لقد أكثرتم على هذا الشيخ، ما تزالون تتواثبون عليه في جواره من بين قومه، واللَّه لتنتهن أو لنقومن معه في كل ما قام به حتى يبلغ ما أراد، فخافوا، وقالوا: بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة.

الهجرة إلى المدينة:

ولم يمنع أبا سلمة دخوله في جوار خاله من أن يناله بعض الإيذاء، حتى لقد فكر في الرجوع إلى الحبشة، ثم بلغه أن بالمدينة إخوانا لهم، فعزم على الهجرة إليها، ولا سيما وقد أذن رسول اللَّه ﷺ لأصحابه بالخروج إليها لما اشتد بهم الإيذاء، فكان أول من هاجر إليها من قريش من بني مخزوم، وكانت هجرته إلى المدينة قبل بيعة العقبة بسنة،

(١) الإصابة جزء ثان ص ٣٣٥.

فشد رحله إلى المدينة وبصحبته زوجه السيدة أم سلمة، وهنالك يبتلى الرجل أشد ابتلاء، فتمنع منه زوجه، ويخلع ذراع ولده سلمة، فما ضعف ولا استكان، بل سار مهاجرًا إلى ربه، حتى جعل اللّٰه له فرجا ومخرجًا، فلحقت به زوجه وولده.

وسأدع السيدة أم سلمة تحدثنا حديث صدق عن هجرة زوجها فتقول:

« لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة، رحل لي بعيره، ثم حملني عليه، وجعل معي ابني سلمة في حجري، ثم خرج يقود بي بعيره. فلما رأته رجال بني المغيرة - رهطها - قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه، علام نتركك تسير بها في البلاد؟ فنزعوا خطام البعير من يده، وأخذوني، فغضب عند ذلك بنو عبد الأسد - رهطه - وقالوا: واللّٰه لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا. قالت: فتجاذبوا ابني سلمة حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة، فَفُرِّقَ بيني وبين ابني وزوجي، فكنت أخرج كل غداة فأجلس في الأبطح - مكان بمكة - فلا أزال أبكي حتى أمسي - سنة أو قريبًا منها - حتى مر بي رجل من بني عمي فرأى ما بي فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة؟ فَرَّقْتُمْ بينها وبين زوجها وولدها. فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت، فرد بنو عبد الأسد إليّ ابني، فارتحلت بعيري، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة العبدري فقال: إلى أين يا ابنة أبي أمية؟ قلت: أريد زوجي بالمدينة. قال: أوما معك أحد؟ قلت: ما معي أحد إلا اللّٰه وابني هذا. فقال: واللّٰه ما لك من مترك، فأخذ بخطام البعير فانطلق معي يهوي بي، فواللّٰه ما صحبت رجلًا من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت استأخر ببعيري فحط عنه، ثم قيده في الشجر، ثم تنحى إلى شجرة فاضطجع تحتها. فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدمه فرحله، ثم استأخر عني وقال: اركبي. فإذا ركبت فاستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه فقادني حتى ينزل بي. فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة. فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال: زوجك في هذه القرية، فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعا إلى مكة،

فكانت أم سلمة تقول: « ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحبًا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة »[1].

وحقيق بنا أن نقف وقفة قصيرة هنا لنسجل للسيد أبي سلمة قوة إيمانه التي سمت على الأهل والولد والمال، ولنسجل للسيدة أم سلمة حرصها على هجرتها واللحاق بزوجها وتحملها في سبيل ذلك الآلام، ولم ترض بالظل الظليل بين قومها وفي وطنها، وآثرت عليهما رمال الصحراء وهجيرها في الهجرة إلى اللّٰه عز وجل، ولنسجل للعرب في شخص السيد عثمان بن طلحة الخلق الكريم والفضائل الإنسانية السامية، فما كانت المروءة والعفة والشجاعة وحماية الجار والوفاء بالعهود والترفع عن الدنايا إلا بعضًا من فضائلهم ومفاخرهم التي أهّلتهم لأن يكونوا حملة رسالة الإسلام الأولين، وأصحاب خير رسل اللّٰه أجمعين.

ويخطئ بعض المؤرخين في تصوير العرب بصورة غير التي امتازوا بها بين الأمم، ولو نظرنا بعين الإنصاف لوجدنا أن العرب أحفل الشعوب بالفضائل البشرية، ولأمر ما اختار اللّٰه خاتم رسله من العرب، وجعلهم أهلا لحمل الرسالة ونشرها، ولعل فيما صنعه عثمان بن طلحة في جاهليته عبرة ومُدكرا لأدعياء الحضارة في القرن العشرين الذين طالما هتكوا الأعراض تحت ستار التظاهر بالعطف والحنان، وتسوروا الخدور على الآمنات الغافلات، واحتالوا في سبيل الوصول إلى أغراضهم الدنيئة ما وسعتهم الحيلة.

جهاده في سبيل الإسلام:

لم تكن هجرة السيد أبي سلمة إلا بداية الجهاد في سبيل الدعوة، وما أن أذن اللّٰه للمسلمين في الجهاد حتى سارع إليه، فشهد بدرًا وأحدًا، وفيها أصيب بجرح فداواه شهرًا حتى برئ، فلما برئ بعثه رسول اللّٰه ﷺ في المحرم سنة أربع على رأس سرية إلى بني أسد، وكانت عدتها مائة وخمسين، وفيها من خيار المهاجرين والأنصار أمثال أبي

---

(١) البداية والنهاية جزء ٣ ص١٦٩- ١٧٠، وعثمان بن طلحة هذا؛ أسلم بعد الحديبية، وهاجر هو وخالد بن الوليد معًا ودفع إليه رسول الله وإلى ابن عمه شيبة مفاتيح الكعبة يوم الفتح وأقرها عليهم، وفي شأن عثمان هذا نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ الآية.

عبيدة وسعد بن أبي وقاص وأسيد بن حضير. فلما انتهوا إلى أرضهم أخذوهم على غرة، فتفرقوا وتركوا نعما كثيرة من الإبل والغنم، فأخذ ذلك كله أبو سلمة، وقفل راجعًا إلى المدينة بعد أن أبقى على هيبة المسلمين وسلطانهم في الأرض، وَخَمَّسَ الغنيمة فجعل الخمس للّه ولرسوله ولذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وقسم أربعة أخماسها بين المجاهدين.

ولما عاد إلى المدينة انتقض به جرحه ووافته منيته، فمات لثلاث بقين من جمادى الأولى سنة أربع من الهجرة، وقد وفى بما عاهد اللّه عليه. ولما احتضر دخل عليه رسول الله ﷺ فأغمضه ودعا له بخير قائلا: «اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وافسح له في قبره ونور له فيه». وبذلك حظي أبو سلمة بدعوات: كل واحدة منها خير من الدنيا وما فيها، فرضي اللّه عنه وأرضاه.

أما الحديث عن السيدة أم سلمة ففي مقالٍ تالٍ إن شاء الله.



(٨)

عبد اللّٰه بن سلام ، صحابي عدل[١]

ذكرت في مقالٍ سابقٍ تحت عنوان: « من روافد الإسرائيليات، الأخذ عن مسلمة أهل الكتاب». ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية، والعلامة ابن خلدون في مقدمته الشهيرة من دخول الكثير من الإسرائيليات عن طريق كعب الأحبار، ووهب بن منبه، وعبد اللّٰه بن سلام وأضرابهم.

وأحب أن أنبه اليوم إلى حقيقة، وأزيل وهمًا قد يتطرق إلى أذهان بعض القارئين، ذلك أنه ليس معنى أن هذه الإسرائيليات والمختلقات مروية عن هؤلاء وغيرهم أنها من وضعهم واختلاقهم، كما وقع في هذا الوهم بعض الناس قديمًا، وحديثًا، ولا سيما المستشرقون، ومن لف لفهم، ونهج منهجهم في البحث من الكُتَّاب المعاصرين المسلمين.

وإنما معنى هذا أنهم هم الذين رَوَوْهَا، ونقلوها لبعض الصحابة والتابعين من كتب أهل الكتاب كالتوراة، وشروحها، والصحف الأولى، وقد حملها عنهم هؤلاء بحسن نية، كما أسلفت.

ولم يقل أحد من أئمة الحديث ونقاده أن هؤلاء كانوا يتعمدون الكذب، والاختلاق لذلك رأيت أن أفرد لك منهم ترجمة تبين ما له، وما عليه، ومنزلته في الرواية، ودرجته في الصدق، وسأبدأ بعبد اللّٰه بن سلام؛ لأنه صحابي من العدول الأخيار، فأقول وبالله التوفيق:

مَن هو عبد اللّٰه بن سلام[٢] ؟

هو السيد الجليل عبد اللّٰه بن سلام بن الحارث أبو يوسف من ذرية يوسف النبي عليه الصلاة والسلام الإسرائيلي، ثم الأنصاري كان حليفًا للأنصار وكان من بني قينقاع، يقال: كان اسمه الحصين فسماه رسول اللّٰه ﷺ عبد الله، وقد جزم بذلك الطبري وابن سعد[٣].

---

(١) مجلة التضامن الإسلامي، سنة ٢٨ ج ١.

(٢) سلام بفتح السين، وتخفيف اللام.

(٣) الإصابة في تاريخ الصحابة ج٢ ص٣٢٠، الاستيعاب على هامش الإصابة ج٢ ص ٣٨٢.

وكان من الرواة العدول الضابطين روى عنه ابناه يوسف، ومحمد، ومن الصحابة فمن بعدهم أبو هريرة، وعبد اللّه بن معقل، وأنيس، وعبد اللّه بن حنظلة، وخَرَشة بن الحر، وقيس بن عباد[١]، وأبو سلمة بن عبد الرحمن وآخرون.

إسلامه: وقد أسلم في أول مقدم النبي ﷺ المدينة. وقد روى الإمام البخاري في صحيحه قصة إسلامه، ذلك أنه جاء إلى النبي ﷺ فسأله بعض أسئلة تأكد منها أنه نبي، لأنه ما يعلمها إلا نبي، فأسلم، ولما أسلم قال للرسول ﷺ: لا تعلن إسلامي حتى تسأل اليهود عني؛ لأنهم إن علموا إسلامي فسينتقصونني، فأرسل إليهم النبي ﷺ وسألهم عنه فقالوا: خَيْرُنا وابن خَيْرِنا، فلما أخبرهم بإسلامه قالوا: شَرُّنا، وابن شَرِّنا!!.

وإليك هذه القصة كما رواها البخاري في صحيحه عن أنس - رضي اللّه عنه - قال:

«.... فلما جاء نبي اللّه ﷺ جاء عبد اللّه بن سلام فقال: أشهد أنك رسول اللّه وأنك جئت بالحق، وقد علمت يهود أني سيدهم، وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم، فادعهم، فاسألهم عني قبل أن يعلموا أني قد أسلمت فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت قالوا فيَّ ما ليس فيَّ، فأرسل نبي اللّه ﷺ فأقبل فدخلوا عليه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «يا معشر اليهود، ويلكم اتقوا الله، فواللّه الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول اللّه حقًّا، وأني جئتكم بالحق، فأسلموا». قالوا: ما نعلمه، قال: «فأي رجل فيكم عبد اللّه بن سلام؟» قالوا: ذاك سيدنا، وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا، قال: «أرأيتم إن أسلم»؟ قالوا: حاشا للّه ما كان ليسلم، وكررها، وجابوه (ثلاثًا) قال: «يابن سلام اخرج عليهم فخرج، فقال: يا معشر يهود اتقوا اللّه فواللّه الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وأنه جاء بحق، فقالوا: كذبت، وفي رواية أخرى أنهم قالوا: شرنا وابن شرنا، وتنقصوه!! قال: هذا ما كنت أخاف يا رسول اللّه[٢]، وقد أسلم بإسلامه أهل بيته، وعمة له تسمى: خالدة.

وقد بشره النبي ﷺ بالجنة ففي صحيح البخاري عن سعد بن أبي وقاص - رضي اللّه عنه - قال: «ما سمعت النبي ﷺ يقول لأحد يمشي على الأرض إنه من أهل الجنة

(١) بضم العين وفتح الباء المخففة.

(٢) صحيح البخاري، باب هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، وباب، بعد باب كيف آخى النبي بين أصحابه.

إلا لعبد اللّه بن سلام »، ولا ينافي هذا الحديث ما هو الثابت المعروف من أنه ﷺ بشر غير عبد اللّه بن سلام بالجنة، وهم العشرة المبشرون بالجنة، ومنهم سعد نفسه، لأن سيدنا سعدًا إنما قال ذلك بعد موت معظم المبشرين بالجنة؛ لأن عبد اللّه بن سلام عاش بعدهم ولم يتأخر معه من العشرة غير سعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، ويدل على هذا قوله في الحديث: « يمشي على الأرض »[١] وكأن سعدًا كره تزكية نفسه أو أراد رضي اللّه عنه ما عداه وعدا سعيدًا من الأحياء، ومُحال أن يزكي النبي رجلًا ويبشره بالجنة، وهو كذاب، وقد كان عبد اللّه بن سلام معروفًا بأنه من أهل الجنة، وكان ذلك صدى لبشرى رسول اللّه ﷺ له بالجنة، وإن كان هو لا يرغب في التحدث بذلك هضمًا لنفسه وتواضعًا، فقد روى الإمام البخاري في « صحيحه » بسنده عن قيس بن عباد قال كنت جالسًا في مسجد المدينة، فدخل رجل على وجهه أثر الخشوع، فقالوا: هذا رجل من أهل الجنة. فصلى ركعتين خفيفتين، ثم خرج وتبعته، فقلت: إنك حين دخلت المسجد قالوا: هذا رجل من أهل الجنة، قال: واللّه ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم، وسأحدثك لم ذاك؟ رأيت رؤيا على عهد النبي ﷺ فقصصتها عليه، رأيت كأني في روضة ذكر من سعتها وخضرتها، وسطها عمود من حديد، أسفله في الأرض، وأعلاه في السماء، في أعلاه عروة، فقيل له: ارْقَ. قلت: لا أستطيع، فأتاني معصف - أي خادم، فرفع ثيابي من خلفي فرقيت حتى كنت في أعلاها فأخذت العروة، فقيل له: استمسك فاستيقظت وإنها لفي يدي، فقصصتها على النبي ﷺ قال: « تلك الروضة الإسلام، وذلك العمود عمود الإسلام، وتلك العروة؛ عروة الوثقى، فأنت على الإسلام حتى تموت وذاك الرجل عبد اللّه بن سلام »[٢].

وإنها لرؤيا معبرة عن استمساك الرجل بالإسلام وموته عليه ومثل هذا لا يعقل أن يكذب على رسول اللّه ﷺ، أو يختلق، ويتزيد في الرواية.

والصحابة كما قلت غير مرة عدول بشهادة الله. وشهادة رسوله ﷺ التي وردت بها الأحاديث الكثيرة المستفيضة الشاهدة لهم بالعدالة والصدق وتجنب الكذب.

---

(١) فتح الباري ج٨ ص٢٩ .

(٢) صحيح البخاري، كتاب الفضائل، باب مناقب عبد الله بن سلام رضي الله عنه .

ولم أر أحدًا من الصحابة على إيمانهم، وحصافتهم ويقظتهم، وشدة تفحصهم للرجال، ومعرفتهم بما يخفيه المرء من أحواله طعن في عبد اللّٰه بن سلام. أو رماه بالكذب والاختلاق، بل قد أثنوا عليه خيرا، ولو لم يكن إلا ثناء رسول اللّٰه ﷺ عليه لكفى، ذلك أكبر شاهد على صدقه وعدالته.

روى الإمام البخاري في «التاريخ الصغير» بسند جيد عن يزيد بن عمير قال: «حضرت معاذًا الوفاة، فقيل له: أوصنا، فقال: «التمسوا العلم عند أبي الدرداء، وسلمان، وابن مسعود، وعبد اللّٰه بن سلام الذي كان يهوديًّا؛ فأسلم، سمعت رسول اللّٰه ﷺ يقول: «إنه عاشر عشرة في الجنة»[١]، وأخرجه الترمذي عن معاذ مختصرًا وأخرج البغوي في المعجم بسند جيد عن عبد اللّٰه بن مغفل قال: نهى عبد اللّٰه بن سلام عليًّا عن خروجه إلى العراق، وقال: الزم منبر رسول اللّٰه ﷺ، فإن تركته لن تراه أبدًا، فقال علي: «إنه رجل صالح منا»، ومثل سيدنا علي لا يخفى عليه الرجل الصالح من الطالح.

وأخرج ابن عساكر بسند جيد عن أبي بُردة بن أبي موسى قال: «أتيت المدينة فإذا عبد اللّٰه بن سلام جالس في حلقة متخشعًا عليه سيما الخير».

وقد حمل عن رسول اللّٰه ﷺ بعض الأحاديث، أخرج الأمام أحمد وأصحاب السنن من طريق زرارة بن أوفى عن عبد اللّٰه بن سلام قال: «لما قدم النبي ﷺ المدينة كنت ممن انجفل[٢] فلما تبينت وجهه عرفت أن وجهه ليس وجه كذاب فسمعته يقول: «أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام».

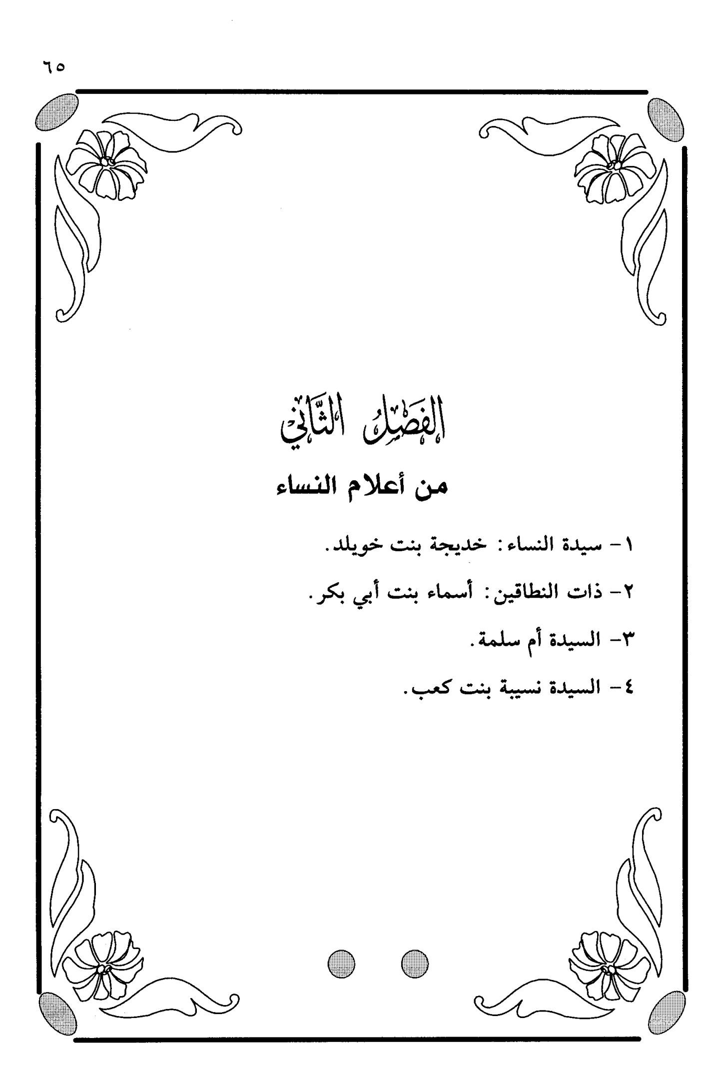
ولم أر أحدًا من أهل العلم، وعلماء الجرح والتعديل ذكر عبد اللّٰه بن سلام بسوء إلا ما كان من أمثال النَّظَّام الذين تجنوا على الحديث والمحدثين، والمستشرقين ومن تابعهم من الكتاب المحدثين، وبعض العلماء في العصر الأخير الذين استهانوا بالطعن في بعض الصحابة ونحن لا ننكر أن الرجل أدخل بعض الإسرائيليات ولا سيما في

(١) كناية عن أنه من السابقين إليها أو عاشر عشرة ممن أسلم من أهل الكتاب.
(٢) سعى إليه ليراه.

التفسير بمروياته، وأنه كان فيها بعض الأخبار البواطل، وبعض القصص الخرافى، ولكن الذي ننكره أن يكون وضع ذلك أو اختلقه من عنده، والحق أن ما روي عنه أخف بكثير مما روي عن غيره وكانت وفاته سنة ثلاث وأربعين للهجرة، فرضي اللّٰه عنه.

وأما كعب الأحبار ووهب بن منبه فسأخصهما بالحديث في المقال الآتي إن شاء اللّٰه تعالى.





الفصل الثاني

من أعلام النساء

١- سيدة النساء: خديجة بنت خويلد.

٢- ذات النطاقين: أسماء بنت أبي بكر.

٣- السيدة أم سلمة.

٤- السيدة نسيبة بنت كعب.

(١)

سيدة النساء : خديجة بنت خويلد[1]

(1)

سيدة لا كالنساء في الصميم من قريش نسبًا وشرفًا يزينها جمال الخلق وعقل هادئ متئد، ورباطة جأش تعز عن النظير، وسماحة نفس وسخاوة يد وطهارة ذيل وسمو عن الدنايا، تلكم السيدة هي أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، أول زوجة تزوجها رسول اللَّه ﷺ.

نسبها :

هي السيدة خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشية الأسدية تجتمع مع النبي ﷺ في جده الأعلى قصي، وأمها فاطمة بنت زائدة بن الأصم ينتهي نسبها إلى لؤي فهي شريفة الأبوين كريمة النجادين فلا عجب أن انحدرت إليها كرائم الصفات العربية وصارت فيها مضرب الأمثال.

نشأتها :

لا تحدثنا كُتب السير والتراجم عن حياتها الأولى إلا أنها كانت سيدة كريمة شريفة وكانت تلقب في الجاهلية بالطاهرة وكانت على جانب من الجمال والمال ولما تأَيَّمَتْ طلب يدها كثير من أشراف قريش فأبت واكتفت بالعمل في مالها تضارب رجالات من قريش بالعمل فيه وكان ممن عمل في مالها السيد الأمين محمد بن عبد اللَّه ﷺ قبل بعثته لما بلغها من أمانته وحسن معاملته وصدق حديثه وطيب شمائله وذلك قبل أن تتشرف بالزواج منه فيما بعد، ولم يكن رسول اللَّه ﷺ بأول زوج لها؛ فقد تزوجت من اثنين قبله وقد اختلف علماء الأنساب والسير في أيهما تزوجت أولًا، فذهب فريق منهم إلى أنها كانت تحت أبي هالة هند بن زرارة بن النباش ثم خلف عليها بعد أبي هالة عتيق بن عائذ المخزومي، وفريق ذهب إلى أنه تزوجها أولًا عتيق بن عائذ ثم خلف عليها أبو هالة هند بن زرارة بن النباش وقد رجح الأول ابن عبد البر في « الاستيعاب » وقد ولدت من أبي هالة هندًا وهالة ابني أبي هالة كما ولدت من عتيق هندًا ومهما يك من شيء فقد

---

(١) مجلة الحج، العدد الحادي عشر، السنة الثانية، جمادى الأولى، ١٣٦٨هـ، مارس ١٩٤٩م.

تزوجها بعدهما رسول اللّه فنالها من الشرف مالم تنله امرأة من قريش على عهدها .

زواجها برسول اللّه ﷺ :

قلت: إن رسول اللّه ﷺ كان يعمل لها في مالها، وآثرته على غيره؛ لِمَا له من الخصائص التي لا توجد في غيره. وكان غلامها ميسرة يصحبه في أسفاره في تجارته إلى الشام، وقد سمع ميسرة ما سمع ورأى ما رأى سمع مقالة بحيرا الراهب، وتبشيره له بالنبوة، ورأى تظليل الغمام للرسول الكريم وغير ذلك من أمارات النبوة، وشاهد عن كثب خصائص الرسول ﷺ، وما امتاز به من عطف نادرٍ، وبرٍ شامل، وحسن تدبير، وأمانة فائقة، وصدق حديث، وربح وفير، وطبيعي أن ميسرة - وهو الغلام الوفي - أخبر سيدته بما رأى وما سمع؛ فتحقق لديها صدق ما كانت تسمع عن هذا الإنسان الكامل ووافق الخبر الخبر؛ هذا إلى ما كانت تسمعه - وهي العاقلة اللبيبة - من ظهور نبي، ولا ننسى قرابتها بورقة بن نوفل الذي كان عنده علم من الكتب القديمة، ويعرف اللسان العربي والعبراني، وهو الذي بشرها فيما بعد بأنه نبي هذه الأمة، بل روى ابن إسحاق أن السيدة خديجة كانت بين لداتها القرشيات في يوم عيد لهن فجاءهن يهودي فقال: يا معشر نساء قريش إنه يوشك فيكن نبي قرب وجوده فأيتكن استطاعت أن تكون فراشًا له فلتفعل، فحصبه النساء وأغلظن له، وعضت خديجة على قوله ووقع ذلك في نفسها، فلا عجب أن كان لذلك كله أثر وأي أثر في نفس السيدة خديجة فرغبت في الزواج منه وأرسلت إليه دسيسًا لتتعرف رغبته. روي عن نفيسة بنت منية رضي اللّه عنها أنها قالت: كانت خديجة بنت خويلد امرأة حازمة عاقلة قوية شريفة مع ما أراد اللّه لها من الكرامة قالت: فأرسلتني دسيسة إلى محمد ﷺ بعد أن رجع من الشام فقالت: يا محمد ما يمنعك أن تتزوج، فقال: ما بيدي ما أتزوج به، قالت: فإن كُفِيتَ ذلك ودُعِيتَ إلى المال والجمال والشرف والكفاية، قال: فمن هي؟ قلت: خديجة، فأجاب فلما أخبر بذلك عمها عمرو بن أسد قال: «هذا الفحل لا يقدع أنفه»[1] وعمها هذا هو الذي تولى عقد زواجها كما تولى زواج النبي عمه أبو طالب وقد خطب أبو طالب خطبة الأملاك وهي تنم عن شرف النبي وشرف آبائه وهي قطعة من الأدب الحي وصدق التعبير

---

(١) أي أنه كريم وكفء.

وها هي:

« الحمد للّه الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضئ[١] معد وعنصر مضر وجعلنا حضنة بيته وسواس حرمه وجعل لنا بيتًا محجوجًا وحرمًا آمنًا وجعلنا حكام الناس ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد اللّه لا يوزن به رجل شرفًا ونبلًا وفضلًا وإن كان في المال قل فإن المال ظل زائل وعارية مسترجعة وهو واللّه بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل وقد خطب إليكم رغبة في كريمتكم خديجة وقد بذل لها من الصداق كذا وعلى ذلك ».

وقد أولم عليها رسول اللّه ﷺ نحرًا جزور أو جزورين وأطعم الناس وأمرت خديجة جواريها أن يرقصن ويضربن الدفوف فقد بلغت مناها وتم السرور، ولله در البوصيري حيث يقول:

ورأتهُ خديجةُ والتُّقىٰ والـ ... زهدُ فيهِ سَجِيّة والحياءُ
وأتاها أن الغمامةَ والسر ... ح أظلتهُ منهما أفياءُ
وأحاديثُ أن وعدَ رسول الـ ... لهِ بالبعثِ حان منه الوفاءُ
فدعتهُ إلى الزواجِ وما أحـ ... سن ما يبلغ المنى الأذكياءُ

وكان عُمر رسول اللّه ﷺ آنئذ خمسًا وعشرين سنة وعمر السيدة خديجة أربعين سنة وقد رزق منها رسول اللّه جميع أولاده إلا إبراهيم فمن مارية القبطية ولم يتزوج عليها رسول اللّه في حياتها قط ولا يفوتني أن أنبه إلى ماورد في بعض الروايات أن الذي تولى تزويجها أبوها خويلد وأنهم سقوه حتى ثمل وألبسوه المزعفر فلما صحا من سكره أخبروه بالزواج فأنكر عليهم ذلك فما زالت به السيدة خديجة حتى رضي، وهو غير صحيح لا من جهة العقل ولا النقل؛ فمثل رسول اللّه لا يُرغب عنه وهو من هو في قريش وقد سمعت آنفًا مقالة عمه أبي طالب، ولم ينازع فيها منازع كما أن المحفوظ عن أهل العلم أن خويلد مات قبل حرب الفِجَار فهي رواية تحمل في ثناياها دليل بطلانها[٢].

---

(١) أي أصل.

(٢) القصة لا تصح - كما قال الشيخ رحمه اللّه، وهي في « مسند أحمد » (١/ ٣١٢) بسند ضعيف - كما قال الأرنؤوط في تعليقه على المسند (٥/ ٤٧)، وانظر «الطبقات» لابن سعد (١/ ١٣١ - ١٣٣) حيث نقل عن محمد بن عمر الواقدي بعد أن أورد هذه القصة: « فهذا كله عندنا غَلَط ووهل، والثَّبت عندنا المحفوظ عن أهل العلم أن أباها =

إسلامها:

يكاد يجمع المؤرخون على أن السيدة خديجة رضي اللَّه عنها أول من آمن على الإطلاق. قال إمام أهل المغازي محمد بن إسحاق: «وآمنت خديجة بنت خويلد وصدقت بما جاءه من اللَّه ووازرته على أمره وكانت أول من آمن بالله ورسوله فخفف اللَّه بذلك عن رسوله ﷺ لا يسمع شيئًا يكرهه من رد عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك إلا فرج اللَّه عنه بها إذا رجع إليها تثبته وتخفف عنه وتهون عليه أمر الناس رضي اللَّه عنها وأرضاها» وكذا روى موسى بن عقبة عن الزهري أنها أول من آمنت بالله ورسوله، وفي الحق أن من اطَّلع على روايات بدء الوحي في «البخاري» وغيره من كتب الحديث يكاد يجزم بذلك؛ فقد كانت أول من يخبرها النبي ﷺ بكل ما رأى وسمع فتصدقه، وتذهب به إلى ورقة بن نوفل فيبشره بأنه النبي المبعوث في آخر الزمان، ثم انظر إلى قوة فراستها وذكائها وعلمها فيما رواه البيهقي بسنده عن خديجة أنها قالت: يا ابن عم تستطيع أن تخبرني بصاحبك الذي يأتيك فقال: نعم، فلما حضر قال: يا خديجة هذا جبريل فقالت: أتراه الآن؟ قال: نعم، قالت: فاجلس إلى شقي الأيمن، فتحول فجلس فقالت: هل تراه الآن؟ قال: نعم، قالت: فاجلس في حجري، فتحول فجلس في حجرها، فقالت: هل تراه الآن؟ قال: نعم، فحسرت رأسها فشالت خمارها- ورسول اللَّه جالس في حجرها- فقالت: هل تراه الآن؟ قال: لا، فقالت: ما هذا بشيطان، إن هذا الملك يا ابن عم، فاثبت وأبشر، وهذا إنما كانت تقصد استثبات أمر جبريل عليه السلام احتياطًا لدينها وليكون إيمانها عن يقين وبرهان؛ لا عن عجز وتقليد أما رسول اللَّه ﷺ؛ فكان على بينة من أمره وأن ما جاء من اللَّه حق لا شك فيه.



= خويلد بن أسد مات قبل الفِجَار، وأن عَمَّها عمرو بن أسد زَوَّجَها رسول اللَّه ﷺ. [الناشر].

سيدة النساء : خديجة بنت خويلد[١]

(2)

خُلقها وحُسن عشرتها :

كانت رضي اللَّه عنها المثل الأعلى في العشرة الكريمة، والخلق العظيم، والعقل السديد، وبعد النظر، والحب العميق لزوجها، والقلب الحنون والأم الرءوم، وكانت وزيرة صدق لرسول اللَّه يخلص لها وتخلص له، ويطلعها على خبيئة لمده وهواجس نفسه فيجد منها اطمئنان القلب، وثلج الصدر، وراحة الضمير، فكانت نعم الصديق الوفي، والمواسي الكريم، وكم جاء إليها ترتعد فرائصه فتهدئ من روعه، وكم جاء إليها وصدره ضائق بما يجد من تعنت قومه فتهون عليه، وتدخل السرور على نفسه وكم جاء إليها وعليه آثار الأذى فتمسح عنه الغبار بيمينها والألم بقلبها.

انظر إلى الرسول الكريم وقد نزل عليه جبريل الأمين، وهو يتعبد بغار حراء من غير سبق عهد به وضغطه ثلاث ضغطات ثم يتلو عليه قول اللَّه سبحانه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١ - ٥]، فيأتي إليها رسول اللَّه ممتقع اللون، مرتجف الفؤاد، من هول ما رأى ويقول: « واللَّه لقد خشيت على نفسي » ما ذا تُرى يكون جوابها؟

لقد كان جوابها جواب الواثق بالله كل الثقة المؤمن بالفضائل الثابتة والآداب العالية وما لها من أثر في الوقاية من مصارع السوء فتقول: « كلا ما كان اللَّه ليخزيك أبدًا؛ إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم[٢]، وتعين على نوائب الحق »، ثم لم تلبث أن ذهبت برسول اللَّه ﷺ إلى ابن عمها ورقة بن نوفل الذي كان عنده علم من الكتب القديمة وتقول: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك - تقصد رسول اللَّه - فيقص عليه رسول اللَّه ما رأى وما سمع، فيقول ورقة بن نوفل مبشرًا: هذا الناموس[٣] الذي كان ينزل على موسى، يا ليتني فيها جذعًا، ليتني حيًّا إذ

---

(١) مجلة الحج، العدد الثاني عشر، السنة الثانية، جمادى الثانية ١٣٦٨هـ، مارس١٩٤٩م.

(٢) الكل: صاحب العيال، أي: تعينه، والمعدوم: الفقير؛ أي: تعطيه ما يسد حاجته.

(٣) الناموس: رسول الخبر جبريل.

يخرجك قومك، قال الرسول ﷺ: أَوَ مُخْرِجِيَّ هم؟ قال: نعم، لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك؛ أنصرك نصرًا مؤزرًا، ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي، فهل رأيت أيها القارىء الفطن أعقل من هذه السيدة وأثبت جنانًا وأعذب حديثًا؟ ألا ما أجدرها بقول القائل:

ولو كان النساءُ كمثلِ هَذِي لَفُضِّلَتِ النِّسَاءُ على الرجالِ

وقد كان لهذه السيدة من الشرف والمنزلة في قريش ما دفع عن رسول الله ﷺ بعض أذى قومه ولم تنل منه قريش غاية النيل إلا بعد أن توفيت وتوفي عمه ومانعه أبو طالب فكانت أمانا وسلامًا على النبي في البيت وخارج البيت، وكما واست الرسول بنفسها وَاَسَتْهُ بمالها، فمن يوم أن عرفته وضعت مالها طوع إرادته؛ ينفق منه ما شاء في سبيل الله والدعوة الإسلامية فأغناه الله بعد أن كان عائلًا ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]، والمواساة بالنفس والمال؛ هما غاية الجود والوفاء فلا غرو أن حفظ لها رسول الله ﷺ هذا الجود والوفاء.

وفاء بوفاء:

ما كان وفاء السيدة خديجة رضي الله عنها لرسول الله ﷺ في حياتها بكريم العشرة وحسن التبعل، والمواساة بالنفس والمال ليضيع سدى؛ فقد بادلها رسول الله ﷺ هذا الوفاء في حياتها بكرم المعاملة، والرفق بها، وإدخال السرور على نفسها، وتبشيرها بالبشارات الحسنة التي هي أحق بها وأهلها، وبعد وفاتها بالترحم عليها، والإحسان إلى صديقاتها وإكرام كل من يمتُّ بسبب إليها.

وإذا جاز أن يضيع المعروف عند الناس فهو لا يضيع عند سيدنا محمد بن عبد الله، وكيف؟ وهو الذي يقابل الحسنة بأحسن منها، والجميل بما هو أعظم منه، وشمل بره من أساء إليه ومن أحسن إليه؛ وسما في باب الفضائل الإنسانية عن النظير حتى صار قمينًا بأن يخاطبه مولاه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وإذا كان رسول الله وفَّى لمن لم يستحق الوفاء فما بالك بمن هي أهل للوفاء؟ فلا عجب أن كان وفاء النبي للسيدة خديجة منقطع النظير فهو لا يفتأ يذكرها بالخير والثناء بالغداة والعشي حتى لتداخل الغيرة السيدة عائشة رضي الله عنها وها هي تحدث فتقول: «كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة، فيحسن الثناء عليها فذكرها يومًا من الأيام،

فأخذتني الغيرة، فقلت: هل كانت إلا عجوزًا قد أبدلك اللَّه خيرًا منها فغضب، ثم قال: واللَّه ما أبدلني اللَّه خيرًا منها؛ آمنت بي إذ كفر الناس؛ وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ورزقني اللَّه منها الولد دون غيرها من النساء، قالت عائشة: فقلت في نفسي: لا أذكرها بعدها بسبة أبدًا».

بل يتخذ هذا الوفاء مظاهر مختلفة، فتارة يظهر في الإحسان إلى صدائقها وقد كان يذبح الشاة فيوزعها على صواحبات خديجة، وفي الحديث الشريف عن عائشة رضي اللَّه عنها قالت: «كان رسول اللَّه ﷺ إذا ذبح الشاة يقول: «أرسلوا إلى أصدقاء خديجة». قالت فذكرت له يومًا فقال: «إني لأحب حبيبها» وفي رواية «إني رُزِقْتُ حبها»؛ وتارة يبدو فيما داخله ﷺ من غم وحزن عليها، روى ابن سعد بسنده عن خولة بنت حكيم أنها جاءت إلى رسول اللَّه ﷺ فقالت: «يا رسول كأني أراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة، قال: أجل، كانت أم العيال ولابة البيت»؟

وماذا يبتغي المرء من زوجه إلا أن تكون مهيمنة على تربية بنيها وإعدادهم إعدادًا حسنًا وقوَّامة على شئون بيتها بحسن الرعاية والتدبير وهما مبعث الذكرى والحنين؟

وأجمل من ذلك وأروع أن يرى الذي له أدنى علاقة بالسيدة خديجة فيرق له ويحن إليه ويثير في نفسه لواعج الشوق والعطف والحنان ففي غزوة بدر الكبرى أُسِرَ السيد أبو العاص بن الربيع صهر رسول اللَّه ﷺ - زوج ابنته السيدة زينب رضي اللَّه عنها - فأرسلت السيدة الوفية زوجته فداء له وفيه قلادة كانت والدتها السيدة خديجة قد قلدتها بها ليلة زفافها فلما رآها رسول اللَّه ﷺ وعرفها رق لها رقة شديدة، وقال لأصحابه: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها قلادتها فافعلوا»، فما كان من أصحابه إلا أن استجابوا، وكيف لا يستجيبون إلى نداء القلب المشوق وهم ذووا الحس المرهف، والذوق العالي، والشعور الرقيق؟!

وها هي هالة بنت خويلد أخت السيدة خديجة تستأذن على رسول اللَّه ﷺ، فيعرف استئذان خديجة فيرتاح لذلك قلبه، وتشرق أسارير وجهه، ويهش لها ويحن إليها؛ لأنها ذكرته بخديجة وأيامها الحلوة الخوالي وخلالها الغر، وأحاديثها العُذاب، فأي صورة أَجْلَى لحسن العهد وحفاظ الود ورعاية حرمة الصاحب والعشير في حياته وبعد وفاته من هذه الصورة المضيئة التي تأخذ بمجامع القلوب والأبصار؟!

وأي وفاء يسمو إلى هذا الوفاء ؟!

إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب مشرق وعاطفة مشبوبة ووجدان حساس.

فضائلها :

ها أنت قد رأيت ما امتازت به السيدة خديجة رضي اللَّه عنها من كمال الخلق وحسن العشرة ولطف المعاملة لرسول اللَّه ﷺ، لم ترفع عليه صوتها يومًا، ولم تضجره ساعة، ولم تكلفه رهقًا، ولا آذته أبدًا، وواسته بنفسها ومالها ونافحت عنه بكل ما تملك، وما زالت تعظمه وتعرف له حقه قبل النبوة وبعدها فلا عجب أن جاءتها من اللَّه ورسوله بالمزية والفضل والتنعم في مخارف الجنة. روى البخاري ومسلم وغيرهما عن علي قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد ». أي أن كل واحدة منهما خير نساء زمنها، وروى البخاري ومسلم بسندهما عن أبي هريرة قال: أتى جبريل إلى رسول اللَّه ﷺ فقال: « يا رسول اللَّه هذه خديجة قد أتتك معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب فإذا هي أتتك فاقرأ عليها من ربها ومني السلام وبشرها ببيت في الجنة من قصب[1] لا صخب فيه ولا نصب»، وإذا كان الجزاء من جنس العمل فما أحق السيدة خديجة بهذا النعيم الهادئ فقد بذلت غاية وسعها في إحاطة النبي بهالة من الهدوء والراحة في دنياه فكان جزاءً وفاقًا أن يزيح اللَّه عنها أي منغص في أخراها، وقد زاد الطبراني في الرواية المذكورة أنها قالت: « هو السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام ». وفي هذا الحديث ما يدل على فقهها، ووفور عقلها وكرامتها على ربها؛ حيث أقرأها السلام على لسان جبريل ولم يكن ذلك لأحد من أمهات المؤمنين وأصرح من ذلك في الدلالة على فضلها وكمالها ما رواه ابن مردويه في تفسيره بإسناد صحيح قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا ثلاث: مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد[2] ،

(١) القصب: اللؤلؤ المجوف، وفي اختيار هذا اللفظ لطيفة؛ إذ فيه إشارة إلى أنها حازت قصب السبق بمبادرتها إلى الإيمان، فما أحلى المشاكلة وما أجملها.

(٢) من الموافقات اللطيفة والأسرار الدقيقة أن الثلاثة الأُول كل واحدة منهن كفلت نبيًّا وأحسنت الصحبة في كفالتها وآمنت به، فآسية ربت موسى وأحسنت إليه وصدقته حين بُعث، ومريم كفلت ولدها أتم كفالة وأعظمها وصدقته حين أُرسل، وخديجة رغبت في زواج رسول الله ﷺ وواسته بنفسها ومالها، وصدقته حين نزل عليه الوحي من الله عز وجل.

وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام »، إلى غير ذلك من الآثار الكثيرة.

وقد اختلف العلماء في أيهما أفضل خديجة أم عائشة، وقد ذهب إلى تفضيل كُلٍّ فريق. ومال بعضهم إلى التوقف ولا أحب أن أسلك بك مسالك العلماء في هذا فلذلك مقام آخر على أن لكل من أمهات المؤمنين فضائل ثابتة، وللسيدتين الفاضلتين خديجة وعائشة القدح المعلى في باب الفضائل، على أن الذي تميل إليه النفس بعد القراءة والتمحيص: تفضيل خديجة؛ لما لها من مزية السبق في الإيمان، والمواساة بالنفس والمال ولست ممن يعنون بمثل هذه الخلافات؛ إذ لا فائدة ترجى من ذلك والواجب أن يؤتسى بهما في أخلاقهما وخصائصهما فذلك خير وأجدى.

أولادها:

من مزايا السيدة خديجة رضي اللّٰه عنها أن جميع أولاده ﷺ منها إلا السيد إبراهيم فمن السيدة مارية القبطية، ولم يختلف علماء السير والأنساب في أن أولاد النبي الإناث منها أربع وهن السيدات: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة رضي اللّٰه عنهن، وإنما الخلاف في الذكور فمن قائل: القاسم – وبه كان يكنى النبي، وعبد الله، وكان يلقب بالطيب والطاهر لأنه ولد بعد النبوة، ومن قائل: إنهم ثلاثة؛ القاسم، وعبد الله، والطيب، وبعضهم زاد الطاهر، وقد توفي أولاد رسول اللّٰه منها الذكور ولم يشبوا عن الطوق وأما الإناث فقد عشن وتزوجن فالسيدة زينب تزوجت من ابن خالتها أبي العاص ابن الربيع وقد أثنى عليه النبي خيرًا، فقال: «حدثني فصدقني ووعدني فَوَفَى لي».

وأما السيدتان رقية وأم كلثوم فقد تزوجتا من الحيي ذي النورين عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين وقد تزوج واحدة بعد الأخرى وقد قال له النبي ﷺ: «لو كان عندي يا عثمان عشرة لزوجتك واحدة بعد الأخرى».

وأما السيدة فاطمة فقد تزوجت من ابن عمها علي بن أبي طالب رضي اللّٰه عنه والثلاث الأول مِتْنَ في حياة أبيهن ﷺ.

أما السيدة فاطمة فتخلفت عن أبيها قليلًا فتحملت أثر الحزن وألم الفراق وقد أنجبت السيدة خديجة من أبي هالة ولدين هندًا وهالة ابني أبي هالة ربيبي رسول اللّٰه ﷺ وكان هند بن أبي هالة يقول: «أنا أكرم الناس أبًا وأمًّا وأخًا وأختًا؛ أبي رسول اللّٰه لأنه

تزوج أمي، وأمي خديجة، وأخي القاسم، وأختي فاطمة». وقد أسلم وشهد بدرًا، وقيل: أُحدًا، وقتل مع علي يوم الجمل وكان فصيحًا بليغًا وصف النبي ﷺ فأحسن وأتقن، وقد روى عنه حديث صفة النبي ابن أخته الحسن بن علي، وأما هالة فذكر ابن عبد البر أنه له صحبة.

كما أنجبت من عتيق بن عائذ المخزومي هندًا بنت عتيق وقد أسلمت وتزوجت، تزوجها صيفي بن أمية بن عائذ المخزومي ابن عمها. فولدت له محمد بن صيفي، ومهما يكن من شيء فمن إكرام اللَّه لها أن تنجب من أطهر البشر أطهر سلالة وأصفاها وأن ينجب منها النبي ﷺ دون غيرها ولعلك على ذكر من قول الرسول ﷺ آنفًا: «أم العيال وربة البيت».

وفاتها رضي اللَّه عنها:

بعد هذه الحياة الحافلة بجلائل الأعمال دعاها داعي الموت فاستجابت وهي راضية مطمئنة بما قدمت يداها وكانت وفاتها فجيعة للرسول ﷺ فقد عز المواس وغاب الحبيب ومما هول المصاب أن ماتت هي وعم النبي أبو طالب في عام واحد وكانا يدرءان عن النبي الكثير من سفاهة السفهاء وعدوان الطغاة المستبدين، وكانت وفاتها - على الصحيح - قبل الهجرة بثلاث سنين عام خرج بنو هاشم من الشِّعْبِ وكان عمرها خمسًا وستين سنة، وبذلك تكون عاشت مع المصطفى ﷺ خمسًا وعشرين سنة هي من حياتها بمنزلة الربيع من الزمان، وكانت وفاتها في رمضان، وقد أبى على النبي وفاؤه إلا أن ينزل القبر ويسويه بيديه الشريفتين فيا له من شرف عظيم ودفنت بالحجون ولم تكن فرضت صلاة الجنائز آنئذ فرضي اللَّه عنها وأرضاها وصب عليها شآبيب رحمته ما بقي إنسان على وجه الأرض.

وبعد: فهذه صفحات مشرقة من سيرة سيدة النساء خديجة قصدت بها تجلية حياة المسلمة الأولى وعسى أن يكون في هذه السيرة نبراس يستضيء به نساؤنا المسلمات اللآتي ينشدن السعادة الزوجية الحقة كما أرجو أن يكون فيها توجيه أنظار الباحثين إلى أن في تاريخ النساء المسلمات ما يجعل الباحث يزهى بهن ويفضلهن على كثير من النساء الغربيات اللآتي أولع الناس بهن وليس علينا إلا أن نكشف الغطاء عن هذه الكنوز المطمورة، وحينئذ يسفر الصبح لذي عينين.

(٢)

ذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر[١]

سيدة من فضليات النساء العربيات، وأشجع نساء الإسلام وأثبتهن جأشًا وأعظمهن تربيةً للولد على الشهامة وعزة النفس والإباء والتضحية في سبيل العقيدة. نشأت في بيت من أكرم بيوتات العرب وأشرفها في الجاهلية. وما أن بزغ فجر الإسلام حتى كان أول بيت استظل بظل الإسلام واستضاء بنوره، وما زال يستأثر بالفضائل والمكرمات حتى غدا أفضل بيت بعد بيت النبوة تلكم هي السيدة الفاضلة أسماء بنت سيد بني تيم الصديق أبي بكر، وشيخ الإسلام، وصاحب رسول اللَّه ﷺ في الغار، والباذل نفسه وماله في سبيل الله ورسوله، والذي رشحته مآثره المتكاثرة أن يكون أحق المسلمين بالخلافة بعد رسول اللَّه ﷺ، فأوثق عروة الإسلام بعد أن كادت تنفصم، وأقام دعائم الإسلام بعد أن كادت تتقوض.

وأمها السيدة قتلة، وقيل: قتيلة بنت عبد العزى قرشية من بني عامر بن لؤي، تزوجها السيد الجليل أبو بكر فأنجبت له عبد اللَّه وأسماء. ومن اللطائف أن السيدة أسماء وأباها وجدها أبا عتيق وأختها عائشة رضي اللَّه عنها وأخويها عبد اللَّه وعبد الرحمن وزوجها الزبير وولدها عبد اللَّه صحابيون رضوان اللَّه عليهم.

إسلامها ونشاتها :

كانت السيدة أسماء ممن أسلم قديمًا، حتى قيل: إنها أسلمت بعد سبعة عشر إنسانًا، وقد سرد ابن إسحاق أسماءَ مَنْ أسلم قديمًا من الصحابة فعدها منهم، وليس هذا بعجيب من ابنة أبي بكر الذي كان أول الناس إسلامًا وقال في شأنه الرسول صلوات اللَّه وسلامه عليه وعلى آله: « ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت له كبوة وتردد غير أبي بكر » فما أسماء إلا غصن من الشجرة الصديقية المباركة، وقد كانت أكبر من أختها السيدة عائشة بعشر سنين ولما شبت عن الطوق، وبلغت مبلغ النساء الكواعب تزوجت بسيد من سادات المسلمين وشجعانهم، وهو الزبير بن العوام حواري رسول اللَّه ﷺ.

ولما هاجر المسلمون إلى المدينة وهاجر أبوها الصديق بصحبة رسول اللَّه ﷺ هاجرت

---

(١) مجلة الأزهر، الجزء الأول، المجلد ٢٧ .

مع آل أبي بكر وهي متم في ولدها عبد اللَّه بن الزبير، وما أن بلغت قباء حتى وضعته، فكان أول مولود ولد للمهاجرين بالمدينة، ثم ولدت للزبير بعد ذلك عروة والمنذر، وكانت أسماء سيدة بيت معروف بالثراء، ومع ذلك ما كانت تتأبى - على شرفها ونشأتها في بيت معروف بالثراء - عن أن ترعى شئون بيت زوجها. روى ابن سعد بسنده عن عروة ابن الزبير عن أمه أسماء قالت: « تزوجني الزبير وماله في الأرض مال ولا مملوك ولا شيء غير فرسه. قالت: فكنت أعلف فرسه وأكفيه مئونته وأسومه، وأدق النوى لناضحه وكنت أنقل النوى من أرض الزبير... الحديث، وفيه: حتى أرسل إليَّ أبو بكر بعد ذلك خادمًا فكفتني سياسة الفرس ».

وقد عَمَّرَت أسماء عمرًا طويلًا، ومع هذا فلم يسقط لها سن، ولم يُنْكَر لها عقل، وإن كان قد كُف بصرها في آخر عمرها، وقد شهدت مقتل ابنها عبد اللَّه بن الزبير وأظهرت من الجلادة والصبر والشجاعة ما ينوء به الأبطال من الرجال كما سنذكر فيما بعد. ولم تلبث بعد قتله إلا قليلًا حتى لحقت به في جوار النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. وكانت وفاتها في آخر جمادىٰ الآخرة سنة ثلاث وسبعين فرضي اللَّه عنها وأرضاها.

المآثر الخالدة :

إذا ذُكِرَت الهجرة - وما لابسها من فداء وتضحية - ذُكِرَ الصديق أبو بكر في رأس سجل التضحية والفداء، وذُكِرَ ابنه عبد اللَّه وابنته أسماء، ولست الآن بصدد التحدث عن مآثر البيت البكري فذلك أمر يطول، ولكني سأتناول من هذه المآثر الباقية ما هو من صنيع السيدة أسماء. وأولى هذه المآثر ما يتعلق بتسميتها « ذات النطاقين »[1] ذلك أنه لما أُذِنَ لرسول اللَّه ﷺ في الهجرة ذهب إلى بيت الصديق ليخبره ففرح فرحًا شديدًا وقال: « الصحبة يا رسول الله »، فقال الرسول ﷺ: « نعم ». فلما عزم المهاجران الكريمان على الخروج لم يكن من أهل بيت أبي بكر إلا أن جهزنهما أحسن الجهاز، وصنعن لهما سفرة ووضعنها في جراب، ولم يكن للجراب وكاء يربط به ويحفظ فما كان من أسماء إلا أن شقت نطاقها نصفين، فربطت فم الجراب بأحدهما وانتطقت بالآخر فمن ثم سميت « ذات النطاقين » وقيل: إن الذي سماها بذلك رسول اللَّه ﷺ وأنه قال لها: « أبدلك اللَّه

---

(١) النطاقين: تثنية نطاق وهو ما تشد به المرأة وسطها، وقيل فيه غير ذلك.

عز وجل بنطاقك هذا نطاقين في الجنة »[١] وقيل: إنها سميت بذات النطاقين؛ لأنها شقت نطاقها نصفين فربطت بأحدهما السفرة وبالآخر السقاء، روى ابن سعد بسند صحيح عن أسماء قالت: صنعت سفرة للنبي ﷺ في بيت أبي بكر حين أراد أن يهاجر إلى المدينة فلم نجد لسفرته ولا لسقائه ما نربطهما به فقلت لأبي بكر: ما أجد إلا نطاقي، قال: شقيه اثنين فاربطي بواحد منهما السقاء وبالآخر السفرة.

والذي ذكره البخاري في «صحيحه» في حديث الهجرة أن قصة شق النطاق إنما كانت قبل خروج رسول اللّه وصاحبه إلى الغار، والذي ذكره ابن إسحاق أن ذلك كان بعد أن سكن الطلب وخرجا من الغار. والذي يظهر أن رواية البخاري هى الراجحة، وفي رواية ابن سعد المذكورة آنفًا ما يؤيد ذلك.

ومهما يكن من شيء فقد اشتهرت السيدة أسماء بهذا اللقب الذي ينم عن مأثرة خالدة. وما كان يجول بخاطر إنسان أن يأتي يوم يُعير فيه ابنها عبد اللّه بهذا اللقب الكريم من الحجاج بن يوسف الثقفي. ولما نمى إليها ذلك قالت له بلسان المعتزة بفضائلها: « كيف تعيره بذات النطاقين - تعني ابنها عبد اللّه - أجل قد كان لي نطاق أغطى به طعام رسول اللّه من النمل، ونطاق لابد منه للنساء ».

ولم تقف مآثر السيدة أسماء عند تجهيز السفرة وشق النطاق، بل تابعت المهاجرين الكريمين بالرعاية والعناية، فكانت تأتيهما مدة مكثهما في الغار بما يحتاجان إليه من الطعام. قال ابن إسحاق: « وكانت أسماء بنت أبي بكر رضي اللّه عنها تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما[٢] وإنما يدرك هذا العمل الإنساني المجيد - الذي ينبىء عن الشجاعة والجرأة والاستهانة بالأخطار - من يذهب إلى غار ثور في الليل الموحش ويرى ما يعانيه الصاعد من مشقة وتعب. وأُشهد اللّه لقد ذهبت إليه في الضحى وكنت في رفقة من الأصحاب فما بلغناه إلا وقد حفيت أقدامنا ونال منا التعب والإعياء. فلله در السيدة أسماء فقد ضربت في باب التضحية والإقدام مثلًا عاليًا، لا تزال تذكره لها الأجيال بالإعظام والإكبار.

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر، ترجمة أسماء.

(٢) البداية والنهاية جزء ثالث ص ١٧٩.

وما كانت حوادث الهجرة لتمر دون أن ينال السيدة أسماء منها أذى وإعنات من طاغوت قريش أبي جهل، وسأدع السيدة أسماء تتحدث عن هذا المشهد المؤلم الذي غاب فيه الرشد والحلم عن هذا الخبيث فلطم سيدة كريمة من بيت كريم. قالت: « لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل بن هشام فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجت إليهم فقالوا: أين أبوك يا ابنة أبي بكر؟ قالت: قلت: لا أدري والله أين أبي، قالت: فرفع أبو جهل يده - وكان فاحشا خبيثا - فلطم خدى لطمة طار منها قرطي ثم انصرفوا »[1] وقد ذهبت اللطمة وذهب ألمها وبقي الفخار لأسماء مسجلًا في صفحات الخلود.

عقلها وذكاؤها:

وقد كانت أسماء رضي الله عنها مثالًا للعقل الراجح، والذكاء النادر والقدرة على مواجهة المسائل المحرجة بالحلول التي تحتاج إلى عارضة قوية وبداهة حاضرة؛ روى ابن إسحاق عن السيدة أسماء قالت: « لما خرج رسول الله ﷺ وخرج معه أبو بكر احتمل أبو بكر ماله كله معه خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف درهم؛ فانطلق بها معه قالت: فدخل علينا جدي أبو قحافة وقد ذهب بصره فقال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه؛ قالت: كلا يا أبت؛ إنه قد ترك لنا خيرًا كثيرًا؛ قالت: وأخذت أحجارًا فوضعتها في كوة في البيت كان أبي يضع مَالهُ فيها ثم وضعت عليها ثوبًا ثم أخذت يده فقلت: يا أبت ضع يدك على هذا المال، قالت: فوضع يده عليه فقال: لا بأس إذا كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن؛ وفي هذا بلاغ لكم. ولا والله ما ترك لنا شيئًا؛ ولكن أردت أن أسكن الشيخ بذلك ». فأي عقل امرأة في مثل عقل أسماء؟ وأي تصرف أحسن من هذا التصرف في مثل هذا الموقف؟ ثم انظر إلى مبلغ علمها بالنفوس وطبائعها الذي ينم عنه قولها: « ولكن أردت أن أسكن الشيخ بذلك »، وقصة شق النطاق على بساطتها تدل هي الآخرى على سرعة الخاطر عند مواجهة المشكلات.

---

(١) القصة لا تصح، رواها ابن إسحاق كما في «السيرة» لابن هشام، قال ابن إسحاق: «فَحُدِّثْتُ عن أسماء... » القصة، والسند منقطع، وابن إسحاق لم يذكر من بينه وبين اسماء، وانظر - إن شئت الزيادة - بحثًا شيقًا في «تحذير الداعية من القصص الواهية» للشيخ علي حشيش - حفظه الله -. (مجلة التوحيد) عدد المحرم ١٤٢٤هـ. [الناشر].

شجاعتها وجهادها :

ولم يقف جهاد السيدة أسماء عند ما بذلته في الهجرة من تضحية ومخاطرة في سبيل [نصرة][1] رسول اللَّه وصاحبه أبي بكر، بل امتد هذا الجهاد إلى ما بعد الهجرة بحضورها بعض الغزوات تسقي العطشى، وتداوي الجرحى، وتثير الحمية في نفوس المهزومين والفارين. وبحسبها فضلًا أنها حضرت مع زوجها وابنها عبد اللَّه واقعة من مواقع الإسلام الفاصلة وهي: اليرموك وقد كان من سياسة القادة في هذه الملحمة أن أحضروا بعض النساء المشهورات بالإقدام والشجاعة وجعلوهن من وراء الجيش، وكان مما قاله لهن أبو سفيان رضي اللَّه عنه وهو قاص الجيش الإسلامي ومذكره: « من رأيتنه فارًّا فاضربنه بهذه الأحجار والعصي حتى يرجع ».

وقد كان لهذه السياسة الحكيمة أثرها، فما فر أحد إلا واستقبلنه ورددنه إلى صفوف المقاتلين، فلا عجب أن انتصر أربعون ألفًا من المسلمين على مائتي ألف أو يزيدون من الروم.

أما شجاعتها الأدبية والنفسية فأمرها عجب، والحديث عنها مستعذب، ومواقفها في هذا المضمار مواقف مشرفة، ولو لم يكن من أمرها إلا حثها ابنها عبد اللَّه على الثبات والصبر والموت شريفًا في سبيل العقيدة والحق الذي يدين به لكفى، ذلك أنه لما حاصرَ الحجاجُ ابنَ الزبير بمكة وضيق عليه الخناق بدأ أتباعه ينصرفون عنه ويطلبون من الحجاج الأمان، واستفحل الأمر حتى لم يبق مع ابن الزبير إلا القليل، فدخل عبد اللَّه بن الزبير – وهو الشجاع الذي يتطاير عنه الأبطال عند اللقاء – على أمه أسماء فشكا إليها خذلان الناس له وخروجهم إلى الحجاج، حتى أولاده وأهله، وأنه لم يبق معه إلا اليسير، ولم يبق لهم صبر ساعة، وقال لها: إن القوم يعطونني ما شئت من الدنيا، فما رأيك ؟ موقف محرج حقًّا يدعو إلى اليأس من النصر والإشارة بالاستسلام وطلب الأمان، والمساومة على أكبر قسط من المغانم ولاسيما من أم رؤوم، ولكن السيدة أسماء أخلفت ما كان يُظَنُّ من مثلها في هذا الموقف، فقالت: « يا بني؛ أنت أعلم إن كنت تعلم أنك على حق وتدعو إلى حق فاصبر عليه، فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك يلعب بها غلمان بني أمية، وإن كنت تعلم أنك أنما أردت الدنيا فلبئس العبد أنت، أهلكت نفسك، وأهلكت من قتل

(١) ما بين المعكوفين ليس في الأصل. [الناشر].

معك، وإن كنت على حق فما وهن الدين، وإلى كم خلودك في الدنيا ؟ » فدنا منها فقبل رأسها وقال: هذا - والله - رأيي، ولكني أحببت أن أعلم رأيك، فزدتني بصيرة مع بصيرتي »[1] وبعد أن تحدث بنعمة اللَّه عليه وطلب من أمه التجلد والتسلي خرج إلى القتال فكان آخر عهده بالحياة، فقد قتل شهيدًا ثم صُلِب، ولم يزل مصلوبًا حتى أمر عبد الملك بإنزاله من الخشبة. وتسمو السيدة أسماء في شجاعتها فتواجه الحجاج بما يكره. روي أنها دخلت على الحجاج بعد أن صلب ابنها فقالت له: أما آن لهذا الراكب أن ينزل ؟ قال: المنافق ؟ قالت: لا والله ما كان منافقًا، بل كان صوامًا قوامًا قال: اذهبي فإنك عجوز قد خرفت، فقالت: لا والله ما خرفت ولكني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: « يخرج في ثقيف كذاب ومُبير فأما الكذاب فقد رأيناه[2] وأما المُبير فأنت هو ». وتسمو في صبرها وتجلدها حينما دخل عليها عبد اللَّه بن عمر فقال معزيا: « إن هذا الجسد ليس بشيء، وإنما الأرواح عند اللَّه فاتقي اللَّه واصبري، فقالت: وما يمنعني من الصبر وقد أهدي رأس يحيى بن زكريا إلى بغي من بغايا بني إسرائيل ».

روايتها الحديث :

وتجمع السيدة أسماء إلى شرف الصحبة شرف الرواية عن رسول اللَّه ﷺ فقد روت عنه عدة أحاديث في الصحيحين والسنن. قال الخزرجي في «الخلاصة»: لها ستة وخمسون حديثًا اتفق البخاري ومسلم على أربعة عشر منها وانفرد البخاري بأربعة ومسلم بمثلها وروى عنها ابناها عبد الله، وعروة وأحفادها، وعبد اللَّه بن كيسان مولاها وابن عباس ووهب بن كيسان وغيرهم.

وبعدُ: فهذه سيرة السيدة أسماء بنت الصديق أنموذج حي لما ينبغي أن تكون عليه المرأة المسلمة في عقيدتها وشجاعتها ومجاهرتها بالحق وحسن تبعلها لزوجها والقيام على تربية أولادها ومحافظتها على شرفها وعفافها؛ فهي نعم القدوة لكل امرأة مسلمة تنشد الكمال والحق والخير، وإن في سيرتها وسيرة مثيلاتها لمتسعا للقول والكتابة والخطابة، فما بال نسائنا المسلمات المتعلمات لا يعرفن إلا شهيرات

---

(١) البداية والنهاية، جزء ثامن ص ٣٣٠.

(٢) تعني المختار بن عبيد الثقفي.

الغرب ولا يكدن يكتبن أو يتحدثن عن شهيرات النساء في الإسلام إلا قليلًا مع أن في الإسلام من النساء الكوامل ولا سيما في الصدر الأول مالا يوجد في أمة من الأمم، ولو أن موقفًا من مواقف السيدة أسماء وقفته امرأة من نساء الغرب لحظيت بالثناء والإكبار من الكثيرين منا، ولتحدث عنها المتحدثون والمتحدثات وأطنبوا في الحديث. فسلام اللّٰه عليك أيتها السيدة أسماء يوم ولدت ويوم مت ويوم تبعثين في عداد الكاملات من النساء.



(٣)

السيدة أم سلمة رضي اللّه عنها[1]

نسبها :

هي السيدة هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد اللّه بن عمرو بن مخزوم المخزومية القرشية. واسم أبيها حذيفة، وقيل: سهيل، وكان أبوها أحد أجواد العرب وكرمائهم حتى لقب بزاد الراكب، لأنه كان إذا سافر لا يترك أحدًا يرافقه ومعه زاد، بل يكفي رفقته من الزاد، وكان جدها من الشرف بمكان حتى كان الرجل من بني مخزوم يؤثر أن ينتسب إليه فيقال له: « المغيري ».

وأمها عاتكة بنت عامر بن ربيعة بن مالك الكنانية من بني فراس. تزوجت أولًا بابن عمها أبي سلمة بن عبد الأسد، فلما مات سنة أربع خلف عليها رسول اللّه ﷺ فصارت من أمهات المؤمنين.

إسلامها وحياتها:

كانت أم سلمة رضي اللّه عنها من النساء اللاتي سبقن إلى الإسلام، والظاهر أنها أسلمت بعد زوجها أبي سلمة بقليل. وكما كان السيد أبو سلمة مثلًا عاليًا للرجال في الهجرة إلى الحبشة والمدينة، كذلك كانت السيدة أم سلمة، فقد صاحبته في هجرته إلى الحبشة، وكانت إحدى أربع نسوة سارعن بالهجرة إليها: منهن السيدة رقية بنت رسول اللّه صلوات اللّه وسلامه عليه وزوج السيد الحيي عثمان بن عفان رضي اللّه عنه.

ولما أذن النبي ﷺ للمسلمين في الهجرة إلى المدينة سارعت معه إلي الهجرة إليها، وقيل: إنها أول ظعينة هاجرت إلى المدينة. وقصة هجرتها إلى المدينة قصة رائعة كما سبق في مقالي السابق. وقد ولدت لأبي سلمة ابنهما سلمة وبه كنيا، وعمر ودرة وزينب ولم تعقب من النبي ﷺ. وقد حظي أولادها من زوجها الأول بعد وفاته برعاية النبي ﷺ ونالهم من عطفه وبره الكثير، وأنزلهم منزلة أبنائه، فيا له من شرف عظيم.

وكانت أم سلمة موصوفة بالجمال البارع، والعقل البالغ، والرأي الراجح. ونساء

---

(١) مجلة الأزهر، الجزء الثالث، المجلد السادس والعشرون، صفر ١٣٧٤هـ - سبتمبر ١٩٥٤م.

بني مخزوم مشهورات بالجمال وحسن التبعل، حتى كان يقال: «المخزوميات رياحين العرب». ويظهر أن كبر السن وما صادفها في حياتها من مشاق وبلاء قد أذهب الكثير مما كانت عليه من جمال ونضرة، وإن بدت بادئ النظر ذات جمال. أخرج ابن سعد من طريق عروة عن عائشة بسند فيه الواقدي قالت: لما تزوج رسول اللّه ﷺ أم سلمة حزنت حزنًا شديدًا، لما ذكر لنا من جمالها، فتلطفت حتى رأيتها، فرأيت والله أضعاف ما وصف فذكرت ذلك لحفصة. فقالت: ما هي كما يقال. قالت: فرأيتها بعد ذلك فكانت كما قالت حفصة، ولكني كنت غيرى[1]. ويدل على عقلها وأصالة رأيها إشارتها على النبي صلوات اللّه وسلامه عليه عام الحديبية، ذلك أن النبي ﷺ لما فرغ من عهد الحديبية قال لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا». فما قام منهم أحد. حتى قال ذلك ثلاث مرات، فدخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت السيدة العاقلة: يا رسول الله، اخرج ثم لا تكلم منهم أحدًا كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك. ففعل رسول اللّه ﷺ كما أشارت عليه، فلما رأى الصحابة ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق رأس بعض.

أم سلمة أم المؤمنين:

كانت أم سلمة عروبًا لزوجها أبي سلمة، ولما توفي سنة أربع حزنت عليه حزنًا شديدًا وبقيت وفية له بعد مماته كما وفت له في حياته. وقد بلغ من وفائها له أن كان يجول بخاطرها أن ليس هناك خير من أبي سلمة، وكانت قد سمعت من رسول اللّه صلوات اللّه وسلامه عليه حديثًا في الصبر عند المصيبة والاسترجاع والدعاء بالأجر والإخلاف، فلما توفي أبو سلمة استرجعت ودعت بهذا الدعاء فنفعها اللّه به، ومنَّ عليها بمن لم يكن يخطر لها على بال أن يتزوج بها وهو رسول اللّه ﷺ.

روى الإمام مسلم في «صحيحه» عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: إنا للّه وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرًا منها إلا آجره اللّه في مصيبته وأخلف له خيرًا منها». فلما توفي أبو سلمة قلت: من خير من أبي سلمة؟ أول بيت هاجر إلى رسول اللّه ﷺ. ثم

(١) الإصابة جزء ٤ ص٤٥٨.

عزم لي فقلتها. فأخلف لي خيرًا منه: رسول اللَّه ﷺ.

أما قصة زواج رسول اللَّه بها فإنها لما انتهت عدتها في شوال أرسل إليها رسول اللَّه ﷺ أبا بكر رضي اللَّه عنه يخطبها عليه فلم تقبل، فبعث إليها عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه فاعتذرت، فلم يجد رسول اللَّه صلوات اللَّه وسلامه عليه بُدًّا من أن يذهب إليها بنفسه. روى الإمام أحمد عنها قالت: لما انقضت عدتي استأذن عليَّ رسول اللَّه ﷺ وأنا أدبغ إهابًا لي، فغسلت يدي من القرظ، وأذنت له فوضعت له وسادة أدم حشوها ليف فقعد عليها فخطبني إلى نفسه، فلما فرغ من مقالته قلت: يا رسول الله، ما بي أن لا تكون بك الرغبة، ولكني امرأة غيرى فأخاف أن ترى شيئًا يعذبني اللَّه به، وأنا امرأة قد دخلت في السن، وأنا ذات عيال. فقال: «أما ما ذكرت من الغيرة فسأدعو اللَّه أن يذهبها عنك، وأما ما ذكرت من السن فقد أصابني مثل الذي أصابك. وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالك عيالي». قالت: فقد سلمت لرسول اللَّه ﷺ وتولى تزويجها ابنها سلمة أكبر أبنائها، وبذلك تشرفت بزوجيتها لرسول اللَّه ﷺ وصارت أُمًّا من عداد أمهات المؤمنين.

ومن ثَمَّ نرى أن زواج رسول اللَّه بها لم يكن إلا جبرًا لخاطرها وكسرها، وحفظًا لها ولأولادها من الضيعة، ووفاءً بحق زوج من خيار المسلمين، آثر رضاء اللَّه ورسوله على الدنيا وزخرفها ومتعها، وخاطر بنفسه حتى استحق الشهادة في سبيل الله، وبذلك ضرب رسول اللَّه صلوات اللَّه وسلامه عليه أروع الأمثال في باب المواساة بالنفس والمال، ووضع الأساس الصالح لأولي الأمر لرعاية حقوق المواطن الصالح والجندي الباسل المضحي بنفسه في سبيل اللَّه والحق والوطن. فهذه الاعتبارات السامية هي التي حدت برسول اللَّه ﷺ أن يتزوج بها.

روايتها الحديث وعلمها:

كانت أم سلمة رضي اللَّه عنها كبقية أمهات المؤمنين: عاقلة عالمة، راوية لحديث رسول اللَّه ﷺ، إما بالذات وإما بالواسطة. وقد مكن لها طول بقائها بعد الرسول رواية الكثيرين عنها؛ روت عن النبي ﷺ، وعن زوجها أبي سلمة، وعن السيدة فاطمة الزهراء. وروى عنها ابناها عمر وزينب، وأخوها عامر، وابن أخيها مصعب بن عبد اللَّه،

ومكاتبها نبهان، ومواليها عبد اللّٰه بن رافع ونافع وسفينة، ومن كبار التابعين أبو عثمان النهدي وسعيد بن المسيِّب وسليمان بن يسار وغيرهم. ولها من المرويات في كتب الحديث ثلاثمائة وثمانية وسبعون حديثًا، اتفق البخاري ومسلم على ثلاثة عشر منها، وانفرد البخاري بثلاثة ومسلم بمثلها.

ومن فضائلها أن بعض آيات الوحي نزلت ببيتها، ورُوي عنها أنها قالت: في بيتي نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، فأرسل رسول اللّٰه ﷺ إلى فاطمة وعلي والحسن والحسين فقال: هؤلاء أهل بيتي. قالت: فقلت: يا رسول اللّٰه أما أنا من أهل البيت؟ فقال: بلى إن شاء الله. وسياق الآيات يدخل أزواج النبي ﷺ في أهل البيت إذ الخطاب إليهن، والكلام السابق واللاحق في شأنهن.

وإذا كان حسن السؤال نصف العلم كما يقولون، فقد كان لحسن سؤالها للنبي ﷺ أن أنزل اللّٰه بسبب ذلك قرآنا يتلى إلى يوم الدين ناطقًا بأن الرجال والنساء سواء في الأجر وعظم الثواب، روى الإمام أحمد عن أم سلمة أنها قالت: «يا نبي اللّٰه مالي أسمع الرجال يذكرون في القرآن والنساء لا يذكرون؟ فأنزل اللّٰه قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ الآية [الأحزاب: ٣٥].

وروى الحاكم في «مستدركه» عنها أنها قالت: يا رسول الله، لا نسمع اللّٰه ذكر النساء في الهجرة بشيء، فأنزل اللّٰه سبحانه: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [آل عمران: ١٩٥] الآية.

وفاتها:

وبعد هذه الحياة الطويلة التي ذاقت فيها المر والحلو، والتي حفلت بجلائل الأعمال وعظائم الأمور، وافاها الأجل المحتوم، وقد اختلف في سنة وفاتها فقال الواقدي: ماتت سنة تسع وخمسين للهجرة، وقيل: آخر سنة إحدى وستين، وقيل: سنة اثنتين وستين إبان خلافة يزيد بن معاوية، وبعد مقتل الحسين. روى محمد بن سعد عن

شهر بن حوشب قال: إنا لعند أم سلمة زوج النبي ﷺ فسمعنا صارخة فأقبلت حتى انتهيت إلى أم سلمة فقالت: قتل الحسين، قد فعلوها، ملأ الله قبورهم أو بيوتهم عليهم نارًا، ووقعت مغشيًا عليها وقتا.

وهذا القصة إن صحت تدفع قول الواقدي. وهي آخر أمهات المؤمنين موتًا كما قال الحافظان: الذهبي وابن حجر، وبموتها انطفأ آخر مصباح من مصابيح أزواج النبي ﷺ طالما شَعَّت النور والهدى والعلم.



(٤)

السيدة نسيبة بنت كعب، رضي الله عنها[1]

إن لكل أمة من الأمم تاريخًا تستمد منه مجدها الغابر وعظمتها التالدة وتحاول - ما وسعها الجهد - أن تصل حاضرها بماضيها، وأن تحيي ما درس من أخلاق سلفها الصالح، وآثار آبائها، وأجدادها الأقدمين، ولا خير في حاضر لم يقم على ماض مجيد، ولا في خلف لم يمجد أعمال السلف، ولا في حضارة تقوم على الغض من شأن كل قديم والأخذ بكل جديد.

وتاريخ الإسلام تاريخ مجيد حافل بالذكريات العظيمة، والعبر المؤثرة، ومواقف البطولة النادرة وصحائف الشرف والمروءة التي طمرت في زوايا الإهمال والنسيان وفي هذا التاريخ من الصحائف المشرقة الوضاءة التي تستحق الخلود ما ليس في غيره فهو كبستان ناضر زكي، حافل بالثمار الشهية والأزاهير الشذية، يجد فيه الناظر ما يغذي الروح ويشبع النفس، ويملأ العين والقلب، وهذا التاريخ لا يحتاج إلا إلى عناية الباحثين في الكشف عنه، وحينئذ يؤمن العالم بعظمة الإسلام وعظمة أبنائه وبذلك نكون قد أدينا للإسلام ورجاله حقًا لازمًا علينا وهأنذا أكشف عن ناحية من هذه النواحي المشرقة من صحائف البطوله في الإسلام تلكم هي صحيفة الصحابية الجليلة نسيبة بنت كعب الأنصارية.

سيرتها :

وسيرتها سيرة عطرة تفوح البطولة والإخلاص وصدق الوفاء والثبات حيث يفر الكماة وإليك موقفًا من هذه المواقف الخالدة وهو ثباتها يوم أحد، قال العلامة ابن هشام في «سيرته»: وقاتلت نسيبة بنت كعب المازنية يوم أحد فذكر سعيد بن أبي زيد الأنصاري أن أم سعد بنت سعد بن الربيع كانت تقول : دخلت على أم عمارة فقلت لها: يا خالة أخبريني خبرك، فقالت: خرجت يوم أحد أول النهار لأنظر ما يصنع الناس ومعي سقاء فيه ماء أسقي به الجرحى ، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ في أصحابه والدولة والريح

---

(١) مجلة الحج - العدد الحادي عشر والثاني عشر - السنة الثالثة، جمادى الأولى - جمادى الثانية ١٣٦٩هـ - مارس - إبريل ١٩٥٠م.

للمسلمين فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول اللَّه ﷺ فقمت أباشر القتال، وأذب عنه بالسيف، وأرمي عنه بالقوس، حتى خلصت الجراح إليّ قالت - أي الرواية عنها - فرأيت على عاتقها جرحًا أجوف له غور، فقلت: من أصابك بهذا؟ قالت: ابن قمئة - أقمأه اللَّه - لمَّا ولى الناس عن رسول اللَّه ﷺ أقبل يقول: دلوني على محمد؛ لا نجوت إن نجا!! فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير وأناس ممن ثبت مع رسول اللَّه ﷺ فضربني هذه الضربة ولقد ضربته على ذلك ضربات ولكن عدو اللَّه كان عليه درعان، وروي عن الفاروق عمر رضي اللَّه عنه أنه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول عنها: «ما التفتُّ يوم أحد يمينًا أو شمالًا إلا رأيتها تقاتل دوني».

يا للروعة والدهشة سيدة من القوارير تقف في جفن الموت حيث يفر الشجعان وتجود بالنفس حيث يضن الجُوَّادُ ثم تنزل بها الجراح والآلام فلا يزيدها ذلك إلا إيمانًا ورضى وثباتًا واطمئنانًا اللهم إن هذا أثر الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب ويشع نوره على النفوس، فتستهين بالآلام في سبيل الغاية الشريفة، وتستعذب العذاب في سبيل رضى اللَّه ورسوله، فلله درك يا أم عمارة، لقد برأت جراحك وذهبت آلامك ولكن بقيت ذكراك منقوشة على صفحات القلوب. وكانت السيدة نسيبة قد خرجت للجهاد هي وزوجها زيد وابناها حبيب وعبد اللَّه فلما رآهم رسول اللَّه ﷺ قال: «بارك اللَّه فيكم أهل بيت». فقالت أم عمارة رضي اللَّه عنها: ادع اللَّه أن نرافقك في الجنة. فقال ذو الخلق العظيم: «اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة». وعند ذلك قالت قولة الصدق والرضى: ما أبالي ما أصابني من الدنيا، وكان رسول اللَّه ﷺ يعرف لنسيبة إيمانها وثبات قدمها في الجهاد وقد زارها ذات يوم في بيتها فلما دخل قدمت إليه طعامًا فقال لها: «كلي». فقالت: إني صائمة، فقال: «إن الصائم إذا أكل عنده صلت عليه الملائكة»، فكانت تروي هذا الحديث وغيره عن رسول اللَّه ﷺ فاجتمع لها شرف الجهاد مع رسول اللَّه وشرف نقل العلم عنه.

وإذا تصفحنا بعض صفحات التاريخ ووصلنا إلى حروب الردة، وجدنا السيدة نسيبة بنت كعب وولديها حبيبًا وعبد اللَّه في الرعيل الأول من المجاهدين؛ فقد أبت عليها نفسها الكبيرة وإيمانها القوي إلا أن تجاهد في تثبيت سلطان الإسلام وإعادة مجده كما جاهدت في نشره ورفع رايته وقدمت في ذلك ولدًا من ولديها ويدًا من يديها، ذلك أن

رسول اللّٰه ﷺ كان قد أرسل ابنها حبيب بن زيد إلى مُسَيْلِمَةَ الكذاب صاحب اليمامة فكان مسيلمة إذا قال له: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟ قال: نعم، وإذا قال له: أتشهد أني رسول الله؟ قال: أنا أصم لا أسمع، ففعل ذلك مرارًا وهو لا يجيب إلا بهذا، فقطعه غليظ القلب مسيلمة عضوًا عضوًا فمات شهيدًا - رضي اللّٰه عنه - فعز على أمه أن ينال منه هذا الوحش البشري على هذا الحالة المؤلمة وحز ذلك في نفسها وخلف في قلبها ألمًا لا يبرح إلا بقتل مسيلمة، حتى إنها نذرت أن لا يصيبها غسل حتى يقتل مسيلمة وعاهدت اللّٰه أن تموت دونه فشهدت اليمامة مع سيف اللّٰه المسلول خالد ابن الوليد رضي اللّٰه عنه ومعها ابنها عبد اللّٰه بن زيد فأمكنه اللّٰه سبحانه من أن ينتقم لأخيه، فشارك في قتل مسيلمة الكذاب ذلك أن وحشيًا رماه بالحربة، وضربه عبد اللّٰه بن زيد بالسيف أما هي فقد أبلت بلاءً حسنًا وقد جرحت يومئذ اثني عشر جرحًا ما بين طعنة برمح وضربة بسيف وقطعت يدها فرجعت بيد واحدة ولكنها شفت ما في نفسها وقدمت للإسلام خدمة لا تنسى.

أيها القراء الكرام:

لقد قرأتم صورة من الصور الصحيحة للمرأة المسلمة في عهدها الأول لم يمنعها حياؤها وأنوثتها أن تسقي العطشى وتداوي الجرحى وإن تجاهد وتحمل السيف وتذود عن الحمى والدين وما كان جهاد المرأة المسلمة ليخرق من سياج عفافها شيئًا فهي تجاهد وتقاتل وهي على أتم ما تكون حشمةً ووقارًا وعفافًا ولعل في هذا بلاغًا لهؤلاء الذين يشيدون بجهاد المرأة في الحروب الحديثة وما دروا أن المرأة العربية المسلمة كان لها السبق في هذا المضمار مع احتفاظها بشرفها وكرامتها فهي أحق بالإشادة وأولى بالتقدير.

ولئن كانت الأم مدرسة كما يقال فما أجل مدرسة السيدة نسيبة بنت كعب وما أسماها، لقد تخرج في هذه المدرسة ولداها اللذان رضعا في لبنها - من الصغر - الشجاعة والإقدام والثبات على الحق وإباء الضيم وحب اللّٰه وحب رسوله ﷺ فوهبا نفوسهما في سبيل الدين ونصرة الحق حتى استشهدا في سبيل اللّٰه وها أنتم قد قرأتم آنفًا كيف استشهد السيد حبيب ولدها ولو أنه أجرى كلمة الباطل على لسانه وقلبه مطمئن

لنجا ولكن الإيمان القوي يعمل عمله في النفوس فتستهين بكل شيء في سبيل العقيدة وهل تلد العصا غير العصية ؟ !

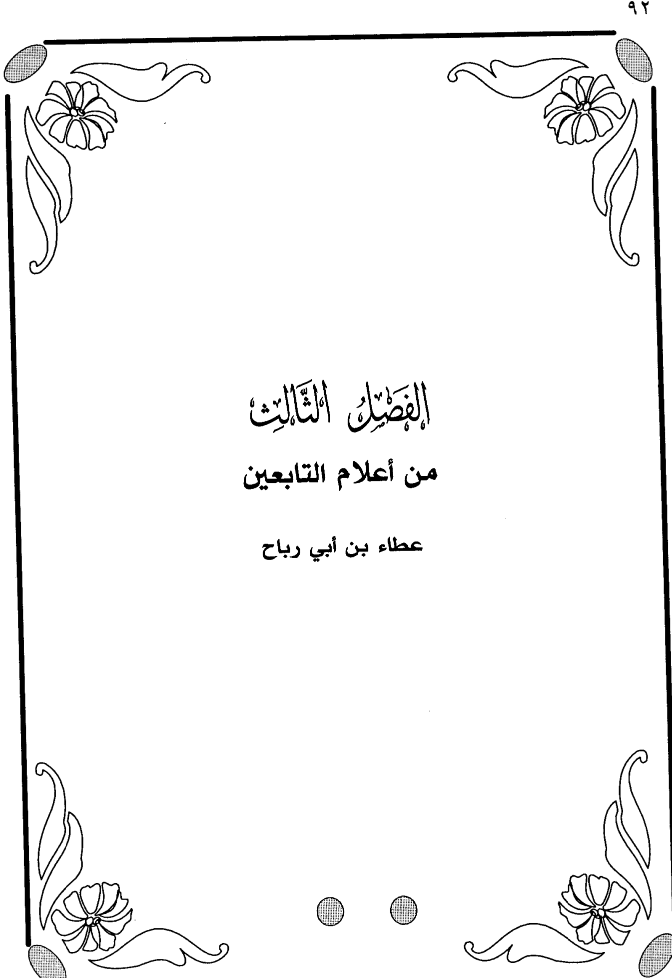
أيها القراء الكرام:

لتكن لنسائنا في هذه السيدة قدوة وأسوة حسنة وليعملن على أن يكن ربات بيوت بكل ما في الكلمة من معنى وعلى تنشئة أبنائهن على أخلاق الإسلام الرفيعة وَلْيُعَلِّمْنَ أولادهن من الصغر أن للإسلام حقوقًا على المسلم، وأن الجهاد في سبيل الله غاية الغايات.

لقد نشر الإسلام ظله على الدنيا يوم كانت النساء مسلمات حقًا، ويوم كان الرجال يرون أن الشهادة في سبيل الله إحدى الحسنيين. وصدق الله حيث يقول: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة: ٥٢].

فيا رجال الإسلام ويا نساءه ليعمل كل منكم في حدود إمكانه وطاقته على أن يعود للإسلام مجده وللمسلمين عزهم وحينئذ يحق علينا قول الله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.





الفصل الثالث

من أعلام التابعين

عطاء بن أبي رباح

(١)

عطاء بن أبي رباح رحمه الله[1]

تقدمة :

مكة بلد اللَّه الحرام فيها أول بيت وُضع للناس وفيها نشأ رسول اللَّه سيدنا محمد ﷺ ومنها أشرقت شمس الإسلام وبزغ نور التوحيد والهداية ومن هذا النور استضاء العالم وانتشر العلم والعرفان. ومن يوم انتشر الإسلام واستقر سلطانه أضحت مكة من أهم مراكز الحياة العلمية الإسلامية وتكونت بها مدارس فكرية فبعضها في التفسير وبعضها في الحديث وبعضها في الفقه، وقد قام بهذه الحياة العلمية علماء أجلاء لا يشق لهم غبار؛ وقد كان لرباني هذه الأمة وحبرها الجليل - ابن عباس رضي اللَّه عنهما - مركز الصدارة في مكة وفي مدرسة ابن عباس تخرج أفاضل التابعين من علماء الأمة ومن هؤلاء الأعلام: عطاء بن أبي رباح الذي نحن بصدد الكتابة عنه، وقد سارت الحياة العلمية بمكة قدما ونشأ بها على توالي الأجيال والقرون علماء في كل علم من علوم الإسلام يشار إليهم بالبنان ويدين بفضلهم العالم الإسلامي وذلك شيء يذكر ولا ينكر ونحن إذ نقوم اليوم برسالة العلم في هذه البلاد المقدسة العزيزة علينا، فإنما نؤدي دينًا في ذمتنا وحقًّا لازمًا علينا قاصدين إرضاء اللَّه ورسوله، وإنه لحبيب إلى قلبي وقلب كل مسلم مخلص أنه تعود الحياة العلمية إلى مكة جذعة كما كانت وأن تعود لها زعامتها في الدين والمعرفة وما ذلك على الله بعزيز.

نسبه :

هو أبو محمد عطاء بن أبي رباح - واسم أبي رباح أسلم مولى بني فهر أو جمح مفتي أهل مكة ومحدثهم، كان من مولدي الجند[2] - ولد في خلافة عثمان رضي اللَّه عنه، وقيل: في خلافة الفاروق عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه وهو أشبه بالصواب وقد نشأ بمكة وكان أبوه نوبيًّا يصنع المكاتل، وذكروا من صفاته الخلقية أنه كان أسود أعور أفطس أشل أعرج ثم عمي بعد ذلك وقطعت يده مع ابن الزبير، وهذا ليس يعاب عليه

---

(١) مجلة الحج، العدد الأول، السنة الثالثة، رجب ١٣٦٨هـ مايو .

(٢) الجند بفتح الجيم والنون وبعدها دال مهملة: بليدة مشهورة باليمن، خرج منها جماعة من العلماء.

فلئن فاته جمال الخلقة فقد ناله جمال الخلق وكريم الخصال وزانه جمال العلم وجلال العلماء ومقاييس الرجال في الإسلام إنما هي بالتقوى وصدق الله في قوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقد عرف معاصروه له كل ذلك فأحلوه المنزلة اللائقة به فكان معتمدهم وإليه مرجعهم.

طبقته:

كان عطاء من خيار التابعين وأفاضلهم وأكابرهم ويقال: إنه أدرك مائتي صحابي[1] فلا عجب أن كان مجمعًا لهذه البحور الفياضة وبلغ شأوًا بعيدًا في العلم والمعرفة، روى عن ابن عمر وابن عمرو وعبد الله بن الزبير وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وأسامة بن زيد وعائشة وأم سلمة، وغيرهم رضي الله عنهم، وعن ابن عباس؛ سمع التفسير وغيره وكان من أبَرِّ تلاميذه وأعلمهم ومن مدرسته تخرج، وروى عنه ابنه يعقوب والزهري وعمرو بن دينار وأبو الزبير وقتادة ويحيى بن أبي كثير ومالك بن دينار وحبيب بن أبي ثابت والأعمش وأيوب السختياني وغيرهم من الأئمة الأعلام وبذلك استفاد وأفاد، وتعلم وعَلَّمَ وكان من تكريمه لمجالس العلم يقول: « من جلس مجلس ذكر الله كَفَّرَ الله عنه بذلك المجلس عشر مجالس من مجالس الباطل، فقيل له: ما مجلس الذكر؟ قال: مجلس الحلال والحرام، كيف تصوم كيف تنكح وتطلق وتبيع وتشتري؟ »[2].

علمه وخلقه :

لقي عطاء - كما قلنا - كثيرًا من الصحابة وأخذ عنهم الشيء الكثير، كما كان من تلامذة ابن عباس المخلصين الملازمين له وقد كان لهذه المدرسة شأنها في العلوم الشرعية ولا سيما التفسير فقد ضربوا فيه بسهم راجح وكانت لهم فيه آراء صائبة وأقوال مرضية وقديمًا قال الإمام تقي الدين أحمد ابن تيميه: « إن أعلم الناس بالتفسير أهل مكة لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد وعطاء بن أبي رباح وعكرمة مولى ابن عباس وسعيد ابن جبير وغيرهم»، وقد مهر السيد عطاء في التفسير والحديث واستنباط الأحكام الشرعية حتى غدا مفتي مكة ومحدثهم وطارت شهرته بمعرفة المناسك فقد كان أعلم

---

(١) الخبر في «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٨١): عن خالد بن أبي نوف عن عطاء قال: «أدركت من أصحاب رسول الله ﷺ مائتين». [الناشر].

(٢) الخبر في «البداية والنهاية» لابن كثير (٩/ ٣٠٧). [الناشر].

التابعين بها، قال قتادة: «كان أعلم التابعين أربعة: كان عطاء بن أبي رباح أعلمهم بالمناسك، وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير، وكان عكرمة أعلمهم بالسِّير، وكان الحسن أعلمهم بالحلال والحرام»، ولم يكتسب السيد عطاء هذه المبرة إلا بالخبرة الطويلة والبحث والاستقصاء وتطبيق العلم على العمل فقد حج سبعين حجة فلا عجب أن أصبح علمًا في المناسك، والحج من الفرائض التي لا تثبت وترسخ في النفس إلا بالعمل والتتبع للمنازل التي نزل فيها الرسول ﷺ والمعاينة والمشاهدة، ولذا قلَّدهُ أمراءُ بني أمية الفتوى وتعليم الحجيج المناسك والمشاعر، قال إبراهيم بن كيسان: «أذكرهم في زمان بني أمية يأمرون صائحًا يصيح لا يفتي الناس إلا عطاء بن أبي رباح» وإياه عنى الشاعر لقوله:

سَلِ المُفْتِي المكي هل في تزاورٍ وضمة مُشْتَاق الفؤادِ جُنَاحُ؟
فقال: معاذَ اللهِ أن يذهبَ التُّقَى تلاصق أكباد بهن جراحُ

فلما بلغه البيتان قال: والله ما قلت شيئًا من هذا. وما يدل على طول باعه في العلم أن الحلقة في المسجد الحرام كانت لشيخه ابن عباس فلما مات شيخه صارت الحلقة له ومن ثَمَّ تصدر للإفتاء والتدريس ونشر العلم.

وكان عطاء ثقةً ثبتًا لا يقول إلا بالعلم، سئل عن مسألة فقال فيها: لا أعلم. فقيل له: ألا تقول فيها برأيك؟ فقال: إني أستحي من اللَّه أن يُدان في الأرض برأيي[1]، وتلك حلية من حلى علمائنا الأوائل أرجو أن تسود بين العلماء حتى يبقى للعلم جلاله وللعلماء تحريهم وتثبتهم، ولم يكن ثرثارًا؛ بل كان قليل الكلام وإذا تكلم فكأنما يتكلم عن إلهام، قال إسماعيل ابن أمية: «كان عطاء يطيل الصمت فإذا تكلم يخيل إلينا أنه يُؤَيَّدُ» والصمت من أمارات العقل الهادئ والتفكير السديد، وفي الحكم «إذا كان الكلام من فضة كان السكوت من ذهب»، ومن كثر كلامه كثرت عثراته.

وقد جمع إلى العلم الزهد والورع وهما زينة العلماء، قال ابن جريج: «كان المسجد فراشه عشرين سنة وكان من أحسن الناس صلاة»[2].

(١) ومن أقواله النفيسة - رحمه اللَّه -: «لا أدري نصف العلم، ويُقال: نصف الجهل». «السير» (٥/ ٨٥). [الناشر].

(٢) عن ابن جريج قال: «لزمت عطاء ثماني عشرة سنة، وكان بعدما كبر وضعف يقوم إلى الصلاة، فيقرأ مائتي آية من البقرة وهو قائم لا يزول منه شيء ولا يتحرك». انظر «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٥/ ٨٧). [الناشر].

ومن أخلاقه أنه كان جم التواضع حريصًا على إرضاء محدثه ينصت لما يلقى إليه كأنه ليس له علم وقد يكون علمه قبل ذلك بأزمان.

وها هو يحدث عن نفسه فيقول: «إن الرجل ليحدثني بالحديث فأنصت له كأني لم أكن سمعته وقد سمعته قبل أن يولد فأريه أني إنما سمعته الآن».

وتلك خلة من خلال الخير تنم على التواضع وعدم الاغترار بالنفس والحرص على اقتناص المعرفة والشعور المرهف في معاملة الناس ومحادثتهم، وكان يحب أن يبادله الناس هذا الشعور ويألم أن لا يكون الناس على هذا الخلق، قال معاذ بن سعد: كنت جالسًا عند عطاء فحدث بحديث فعرض له رجل في حديثه فغضب عطاء وقال: ما هذه الأخلاق؟! وما هذه الطبائع؟! والله إني لأسمع الحديث من الرجل وأنا أعلم به منه فأريه أني لا أحسن شيئا منه[1].

ثناء العلماء عليه:

لئن كان عطاء رحمه اللّه بهذه المنزلة في العلم والأخلاق الكريمة فقد استحق ثناء الأئمة وشهدوا له بما هو أهل له ومعرفة الحق لأهله من ميزات السلف الصالح وما كانوا يجدون في ذلك غضاضة؛ لأنهم كانوا يصدرون في أحكامهم عن دينهم الصحيح ونفوسهم الطاهرة البريئة لا عن الأهواء والشهوات وها هو شيخه ابن عباس - على جلالة شأنه - يقول: «يا أهل مكة تجتمعون عليّ وعندكم عطاء بن أبي رباح»[2]. وقدم ابن عمر مكة فجعلوا يسألونه فقال: «تجمعون لي المسائل وفيكم عطاء بن أبي رباح». وقال فيه الإمام أبو حنيفة رحمه الله: «ما رأيت أحدًا أفضل من عطاء». ومثل هذه الشهادة من إمام الفقهاء تنبئ عن منزلته في الاجتهاد والاستنباط، وقال الأوزاعي: مات عطاء يوم مات وهو أرضى أهل الأرض عند الناس، والله إذا أحب عبدًا وضع له القبول في الأرض، وقال قتادة: قال لي سليمان بن هشام: هل بمكة أحد؟ قلت: نعم أقدم رجل في جزيرة العرب علمًا، قال: مَنْ؟ قلت: عطاء، وقال سلمة بن كهيل: «ما رأيت أحدًا

---

(١) قال الشاعر:

وتَرَاهُ يُصْغِي للحديثِ بسمعهِ ... وَبِقَلْبِهِ وَلَعَلَّهُ أَدْرَىٰ بِهِ

(٢) انظر ذلك الخبر مع ترجمة نفيسة لعطاء في «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٥/ ٨١). [الناشر].

يريد بهذا العلم وجه اللَّه إلا ثلاثة عطاء ومجاهد وطاووس» وقد أخذ عليه ضعف مُرْسَلَاتِهِ كما أخذ عليه بعض العلماء أنه ربما يروي عمن لم يسمع منه، روي عن الإمام أحمد رحمه اللَّه قال: «مرسلات سعيد بن المسيِّب أصح المرسلات، ومرسلات إبراهيم لا بأس بها، وليس في المرسلات أضعف من مرسلات الحسن وعطاء، فإنهما كانا يأخذان عن كل أحد»، وهذا لا يحط من قدر عطاء ومنزلته العلمية فهو كما قال الإمام الذهبي – وهو من أهل الاستقراء التام في نقد الرجال –: ثبت حجة رضي إمام كبير الشأن.

بعض آرائه ومعتقداته:

كان السيد عطاء يؤمن بالقدر خيره وشره، محبًّا للاقتداء بالسلف الصالح، يمقت كل مبتدع، ويخالف المبتدعة في آرائهم، لا يكفر أحدًا من أهل القبلة، روي عن سعيد ابن سلام البصري أنه قال: سمعت أبا حنيفة النعمان يقول: لقيت عطاء بمكة فسألته عن شيء، فقال: من أين أنت؟ فقلت: من أهل الكوفة، قال: أنت من أهل القرية الذين فارقوا دينهم وكانو شيعًا؟! قلت: نعم، قال: فمن أي الأصناف أنت؟ قلت: ممن لا يسب السلف ويؤمن بالقدر ولا يكفر أحدًا من أهل القبلة بذنب، قال عطاء: عرفت فالزم، وكان يقول: «ما اجتمعت عليه الأمة أولى عندنا من الإسناد». وقال ابن جريج: رأيت عطاء بن أبي رباح يطوف بالبيت فقال لقائده: أمسكوا احفظوا عني خمسًا: «القدر خيره وشره حلوه ومره من اللَّه عز وجل، ليس للعباد فيه مشيئة ولا تفويض، وأهل قبلتنا مؤمنون حرام دماؤهم وأموالهم إلا بحقها، وقتال الفئة الباغية بالأيدي والنصال والسلاح والشهادة على الخوارج بالضلالة».

وكان يرى الإيمان يزيد وينقص يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية وأن الصلاة والزكاة وغيرها من التكاليف الشرعية من الدين، قيل لعطاء: وإن هاهنا قومًا يقولون الإيمان لا يزيد ولا ينقص فقال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]. فما هذا الهدى الذي زادهم؟! قلت: ويزعمون أن الصلاة والزكاة ليستا من الدين، فقال: قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، فجعل ذلك دينا، فانظر كيف تكون الإصابة في

القول!! ويذكر الرأي مدعمًا بدليله.

وكان يرى أن التقية جائزة إن خاف الشخص على نفسه أو عرضه، قال الأوزاعي: كنت باليمامة وعليها رجل والٍ يمتحن الناس من أصحاب رسول اللَّه ﷺ أنه منافق وما هو بمؤمن، ويأخذ عليهم بالطلاق والعتاق أن يسمى المسيء منافقًا وما يسميه مؤمنًا فأطاعوه على ذلك وجعلوه له، قال: فلقيت عطاء فيما بعد فسألته عن ذلك، فقال: ما أرى بذلك بأسًا لقول اللَّه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: ٢٨].

ومن نصائحه الغاليه أنه كان يدعو إلى القصد في القول وترك الفضول من الكلام خشية الإثم، روي عن يعلى بن عبيد قال: دخلنا على محمد بن سوقة، فقال: أحدثكم بحديث لعله ينفعكم، فإنه نفعني، قال لي عطاء بن أبي رباح: يا ابن أخي إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام، وكانوا يعدون فضول الكلام إثمًا، ماعدا كتاب اللَّه أن يقرأ، وأمر بمعروف أو نهي عن منكر أو ينطق العبد بحاجته في معيشته التي لا بد له منها أتنكرون ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠، ١١]، و ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨] أما يستحي أحدكم لو نُشرت عليه صحيفته التي أملى صدر نهاره وليس فيها شيء من أمر آخرته!!

وهكذا تجده لا يذكر رأيًا؛ إلا أتبعه بالحجة والبرهان وذلك إن دل؛ فإنما يدل على أن له ذهنًا حادًّا وعقلًا راجحًا لا يقبل إلا الإقناع والاقتناع، ومن آرائه في تفسير القرآن أنه كان يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢]؛ ذلك في إقامة الحد عليهما، وكان يؤول قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤] أي الصوم أنها في الكبير الهَرِم الذي لا يطيق الصوم فله أن يفطر ويفدي ولذا كان في آخر عمره يفطر في رمضان من الضعف والكبر ويفدي وهو في رأيه هذا متابع لشيخه ابن عباس.

ومن تفسيره لقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النور: ٣٧]، قال: لا يلهيهم بيع ولا شراء عن مواضع حقوق اللَّه تعالى التي افترضها عليهم أن يؤدوها في أوقاتها، وقد كان السيد عطاء ورعًا في فتواه، روى الثوري عن عبد اللَّه بن الوليد - يعني الوصافي - قال قلت لعطاء: ما ترى في صاحب قلم إن هو كتب به عاش هو وعياله في سعة، وإن هو تركه افتقر؟ قال: من الرأس؟ قلت: القسرى

لخالد قال عطاء: قال العبد الصالح: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧]. وقال: أفضل ما أوتي العباد العقل عند اللّه وهو الدين، ومن مأثور كلامه «إن اللّه لا يحب الفتى يلبس الثوب المشهور فيعرض اللّه عنه حتى يضع ذلك الثوب» وكان يقول: «ينبغي للعبد أن يكون كالمريض لا بد له من قوت، وليس كل الطعام يوافقه» ويقول: الدعوة تعمي عين الحكيم فكيف بالجاهل؟! «ولا تغبطن صاحب نعمة بما هو فيه فإنك لا تدري إلى ماذا يصير بعد الموت».

وفاته:

بعد هذه الحياة الحافلة بالاشتغال بالعلم والبحث والتنقيب وسهر الليالي الطوال في قنص الفوائد والحرص على الفرائد - حتى لقد كان يقول: «لأن أرى في بيتي شيطانا خير من أن أرى فيه وسادة لأنها تدعو إلى النوم». وافاه الأجل المحتوم بعد أن بلغ من الكبر عتيًا وقد اختلف في سنة وفاته فقيل: سنة أربع عشر ومائة، وقيل: توفي سنة خمس عشر ومائة، والأكثرون على الأول وها نحن بعد اثني عشر قرنًا من وفاة هذا الإمام الجليل ننشر سيرته عاطرة على سمع الزمان، فاعتبروا يا أولي الأبصار.





الفصل الرابع

من أئمة الإسلام

١- الإمام أبو حنيفة النعمان.

٢- الإمام أحمد بن حنبل.

٣- الإمام الشافعي.

٤- الإمام ابن حزم.

(١)

إمام الفقهاء: أبو حنيفة النعمان[(١)][(٢)]

(٨٠ - ١٥٠هـ)

(1)

تقدمة:

لما انتشر الإسلام واتسعت رقعته، وامتد سلطانه حتى بلغ ما بلغ الليل والنهار دخلت فيه الكثرة الكاثرة من أبناء هذه البلاد التي استظلت بلواء الإسلام عن طواعية واختيار، وأخلصوا لهذا الدين وللغته العربية: لغة القرآن غاية الإخلاص فلا تعجب إذا وُجد من هؤلاء أئمة أعلام: في التفسير والحديث، والفقه والاجتهاد، واللغة العربية وعلومها وآدابها، والعلوم العقلية ولا سيما الكلام، والعلوم العملية كالطب والهندسة، والرياضيات كالحساب والجبر والمقابلة، والعلوم الكونية كالكيمياء والطبيعة، والفلك.

من هؤلاء الأئمة الأعلام؛ إمام الفقهاء أبوحنيفة النعمان، الذي يعتبر مفخرة للفقه الإسلامي - ولا سيما في عصوره الأولى- وسأتناول في هذا المقال شيئًا من جوانبه الفقهية والاجتهادية، وعلمه بالقرآن والسنة وأنه ذو باع طويل فيها، وعصره ونسبه، وحياته الخصبة المشرفة التي تجعله في عداد الخالدين من رجالات العلم في العالم.

نسبه ونشأته:

الإمام أبو حنيفة: هو النعمان بن ثابت بن زوطى[(٣)] التيمي ولاءً، ذلك أن زوطى جد الإمام كان فارسًا من أهل كابُل[(٤)] وكان مملوكًا لبني تيم اللَّه بن ثعلبة، فأسلم فأعتق فصار ولاؤه لهم، أما والده ثابت فقد ولد على الإسلام، وهذا هو المعتمد في نسبه، وإن

---

(١) مجلة الوعي الإسلامي، العدد السبعون، شوال سنة ١٣٩٠هـ، نوفمبر ١٩٧٠م.

(٢) للاستزادة من أخبار الإمام أبي حنيفة انظر: سير أعلام النبلاء (٦/ ٣٩٠)، وتاريخ بغداد (١٣/ ٣٢٣، ٣٢٤)، وتهذيب الكمال (٢٩/ ٤١٧)، وتذكرة الحفاظ (١/ ١٦٨)، والبداية والنهاية (١٠/ ١٠٧). [الناشر] .

(٣) زوطى بوزن مودمى كما ضبطه الإمام النووي، وضبطه صاحب القاموس بفتحٍ للزاي كسلمى والمحققون على الأول.

(٤) عاصمة أفغانستان.

زعم بعضهم أنه لم يجر على أحد من أجداده رق بل بالغ البعض، فجعله يتصل إلى العرب بنسب.

ولا يضير الإمام قط أن يكون أصله فارسيًا، ولا أن يكون أحد أجداده استرق ثم أعتق، لأن الإسلام لا يفرق بين عربي وعجمي، ولا بين مولى وسيد في التقدير الديني والعلمي، وفي الموالي من رفعه دينه وعلمه إلى مقاعد الشرف والسيادة، وفي العرب من أوبقه كفره، ورمى به في زوايا الإهمال جهله، وكانت ولادة الإمام بالكوفة سنة ثمانين للهجرة، وقد عاش بها معظم حياته، ولم يفارقها إلا إلى مكة فترة وجيزة، وإلى بغداد قبيل وفاته وكانت وفاته سنة مائة وخمسين فهو إذن عاصر معظم الدولة الأموية، وأوائل دولة بني العباس.

عصره وكونه تابعيا:

إن العصر الذي عاش فيه الإمام يعتبر من عصور الإسلام الذهبية، والإمام ولد ونشأ في قرن يعتبر من القرون الخيرة الفاضلة، وهو عصر التابعين ففي الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان عن النبي ﷺ أنه قال: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم..»[١] وقد صح كما قال الإمام الذهبي[٢] أنه رأى أنس بن مالك - رضي الله عنه - وهو صغير، وروى ابن سعد في كتابه «الطبقات» عن الإمام أنه قال: «قَدِمَ أنس بن مالك الكوفة ونزل النخع، وكان يخضب بالحمرة قد رأيته مرارًا» كما أنه رأى عبد الله ابن أبي أوفى، وغيره من الصحابة ورؤيته بعض الصحابة ليس فيها خلاف بين العلماء، وإنما الخلاف في سماعه منهم، والثقات من حفاظ الحديث ونقاده على أن الإمام لم يسمع من أحد منهم، ومذهب جمهور المحدثين أن السماع من الصحابي ليس شرطًا لتحقق كونه تابعيًا[٣] وهي خصوصية امتاز بها الإمام عن بقية الأئمة الأربعة.

---

(١) لم يثبت عن النبي ﷺ الحديث بلفظة: «خير القرون»، وإنما الثابت: «خيرُ النَّاسِ قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» من حديث عبيدة بن عبد الله، والحديث رواه البخاري برقم (٢٦٥٢)، ومسلم برقم (١٨٣٠)، وإنما وردت روايات أخرى بألفاظ مقاربة: «خيركم قرني»، و«إن خيركم قرني». [الناشر].

(٢) تذكرة الحفاظ ج١ ص١٥٨ ط الهند.

(٣) الذي عليه الجمهور والمحققون من العلماء أن التابعي: من لقي الصحابي وهو مسلم سواء سمع منه أم لا، وإن كان من سمع من الصحابي أجمل ممن لم يسمع ولا شك.

أساتذته وشيوخه :

وللإمام شيوخ كثيرون من أعيانهم محمد بن السائب الكلبي النسابة المفسر، وجعفر الصادق، وابن شهاب الزهري عالم الشام والحجاز، وشعبة بن الحجاج، وربيعة الرأي شيخ الإمام مالك، وسليمان بن مهران من كبار المحدثين، وحماد بن أبي سليمان وهو الأستاذ الأكبر للإمام أبي حنيفة، وقد لازمه ملازمة طويلة وتخرج على يديه، ونهل وعلَّ من مَعِينِهِ الثر، وحتى أُثِرَ عن حماد أنه قال: «لقد أنزفتني»[١].

تلاميذه :

وقد روى عن الإمام وأخذ منه العلم والفقه الكثيرون من الأئمة من مشاهيرهم محمد ابن إسحاق بن يسار أمام أهل المغازي، ومحمد بن عمر الواقدي، وإبراهيم بن أدهم، والحسن البصري، و«أبو يوسف القاضي، ومحمد بن الحسن، وزفر بن الهذيل»، وغيرهم وهؤلاء الثلاثة هم أخص تلاميذه المتفقهين عليه، ويدل على جلالته أن بعض شيوخه قد أخذ عنه كربيعة الرأي ومالك وحماد بن أبي سليمان، ووصل بعض المؤلفين في مناقبه بتلاميذه والآخذين عنه إلى نحو الثمانمائة وسرد أسماء الكثيرين منهم[٢].

فقه الإمام :

والإمام أبو حنيفة أحد أذكياء الدنيا المعدودين، ورائد الأئمة المجتهدين المشهورين، وأحد الفقهاء الأربعة المتبوعين، الذين طبقت شهرتهم الآفاق، وسادت مذاهبهم في أقطار العروبة والإسلام، وقد أقر للإمام بالفقاهة وتملك ناصية الاجتهاد، وبلوغه الغاية في ذلك جمهرة من فقهاء الشريعة الكبار، وأئمة الحديث المشهورين، روي عن الإمام اللوذعى[٣] محمد بن إدريس الشافعي أنه قال: «الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة»[٤]، وهذا عبد اللّه بن المبارك يقول: «كان أبو حنيفة أفقه الناس ما رأيت أفقه منه».

---

(١) يعني أخذت كل ما معي من العلم.

(٢) عقود الجمان في مناقب الإمام أبي حنيفة النعمان، مخطوط بمكتبة الحرم المكي.

(٣) في القاموس: اللوذعي: الخفيفُ الذكي، الظريفُ الذَّهِنُ، الحديدُ الفؤادِ واللَّسِنُ الفصيحُ، كأنه يَلْذَعُ بالنار من ذكائه. اهـ. [الناشر].

(٤) وبنحوها قال الذهبي في السير وعبارته: «وعُني بطلب الآثار، وارتحل في ذلك، وأما الفقه والتدقيق في الرأي وغوامضه، فإليه المنتهى والناس عليه عيال في ذلك». سير أعلام النبلاء (٦/ ٣٩٢). [الناشر].

ويقول في حقه سفيان الثوري: « وهو أفقه أهل الأرض » وأثنى عليه وعلى قوة حجته إمام دار الهجرة مالك بن أنس فقال: « لقد رأيت فتى لو كلمك في هذه السارية أن يجعلها ذهبا لقام بحجته ».

علمه بالقرآن والسنة :

وقد كان الإمام حافظًا للقرآن، مديمًا للقراءة له، وقد روي أنه كان يختم القرآن في رمضان ستين ختمة، ختمة بالليل وختمة بالنهار، كما كان عالمًا بعلومه وناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، وعامه وخاصه، ومطلقه ومقيده إلى غير ذلك من علوم القرآن التي لابد منها لمن يبلغ الاجتهاد في الأحكام، وبيان الحلال والحرام. كما كان - رضي اللّه عنه - حافظًا للأحاديث والسنن شديد العناية بها، ثقة في الرواية، بصيرًا بالعلل والرجال، مقبول الجرح والتعديل[١]، روى الخطيب البغدادى في «تاريخ بغداد» عن سفيان بن عيينة قال: « أول من أقعدني للحديث أبوحنيفة، قدمت الكوفة فقال أبو حنيفة: هذا أعلم الناس بحديث عمرو بن دينار فاجتمعوا عليَّ فحدثتهم » وناهيك برجل يزكي سفيان بن عيينة في الحديث، والإمام أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة - الترمذي وهو أحد الأئمة الستة في الحديث يعتمد على الإمام في التعديل والتجريح فيروي في كتاب العلل من « جامعه » عن الحماني قال: سمعت أبا حنيفة يقول: ما رأيت أكذب من جابر الجعفي[٢] ولا أفضل من عطاء بن أبي رباح » كما أثنى عليه جهابذة الحديث ونقاده، سئل يحيى بن معين - وهو الإمام الحجة في الجرح والتعديل: هل حدث سفيان عن أبي حنيفة ؟ قال: نعم؛ كان أبو حنيفة ثقة صدوقًا في الفقه والحديث مأمونًا على دين الله، وروي عنه أنه قال: سمعت يحيى بن سعيد القطان يقول: « لا نكذب اللّه تعالى، ما سمعنا أحسن من رأي أبي حنيفة[٣].

وكان يحيى بن سعيد القطان يذهب في الفتوى مذهب الكوفيين فيختار قول أبي

---

(١) قال الذهبي: «فإن الإمام أبي حنيفة طلب الحديث وأكثر منه في سنة مائة وبعدها. . .» «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٣٩٦). [الناشر].

(٢) انظر ما ذكره الإمام مسلم في مقدمة صحيحه عن جابر بن يزيد الجعفي، صحيح مسلم بشرح النووي ج١ ص١٠١- ١٠٣.

(٣) عند الذهبي في «السير» زيادة في كلام يحيى بن سعيد : «. . . وقد أخذنا بأكثر أقواله» . [الناشر].

حنيفة من أقوالهم[١] ويقول في حق الإمام تلميذه أبو يوسف وهو من حفاظ الحديث كما قال ابن جرير الطبري « كان أبو حنيفة أبصر بالحديث مني »، ويقول: « ما رأيت أعلم بتفسير الحديث من أبي حنيفة »، ولا عجب أن يكون الإمام أبو حنيفة بهذه المنزلة وقد أخذ الحديث عن رجاله كسفيان الثورى وشعبة بن الحجاج، والأعمش وغيرهم من أئمة الرواية، وكانت الكوفة آنئذ منزلًا لكثير من الأئمة الذين جمعوا بين الرواية والدراية[٢] وأما ما ذكر في بغداد من الطعن في الإمام فذلك من آثار التحامل والتعصب، قال الإمام السيوطي في كتابه « مناقب أبي حنيفة »: « لاتغتر بكلام الخطيب فإن عنده العصبية الزائدة على جماعة من العلماء كأبي حنيفة وأحمد وبعض أصحابه، وتحامل عليهم بكل وجه » ولم يسلم - في الغالب - أحد من مشاهير العلماء من الطعن والتجريح بغير حق ولعن اللّه الحاسدين والحاقدين.

التجني على الإمام:

وقد غَمَط الإمامَ حقَّهُ - في العناية بالأحاديث والسنة، وثقته في الرواية - بعض حاسديه ورموه بما ليس فيه فزعموا أنه قليل البضاعة في الحديث، وأنه قلت روايته تبعًا لذلك قلة لا نصدقها في حق طالب من طلاب الحديث فضلًا عن إمام مجتهد تَزَعَّمَ مدرسة في الفقه والاجتهاد يعتبر رجالها مفخرة من مفاخر الإسلام قديمًا وحديثًا، وإليك ما ذكره العلامة ابن خلدون في مقدمته[٣]، وحكايته هذا القول الضعيف عن هذا البعض، ورده عليهم قال: « واعلم أن الأئمة المجتهدين تفاوتوا في الإكثار من هذه الصناعة والإقلال فأبو حنيفة رضي اللّه عنه - يقال: بلغت روايته إلى سبعة عشر حديثًا أو نحوها، ومالك - رحمه اللّه - إنما صح عنده في كتاب «الموطأ» وغايتها ثلاثمائة حديث[٤] أو نحوها، وأحمد بن حنبل في «مسنده» خمسون ألف حديث وَلِكُلٍّ ما أَدَّاهُ إليه اجتهاده في ذلك، وقد تَقَوَّلَ بعض المبغضين المتعسفين إلى أن منهم من كان قليل

(١) عقود الجمان.

(٢) مقدمة نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية ص٣٣ وما بعدها.

(٣) مقدمة ابن خلدون، بحث علوم الحديث.

(٤) هذا العدد يخالف ما ذكره الإمام ابن عبد البر وهو أعلم الناس بالموطأ من أن عدة أحاديثه المسندة المرفوعة ثمانمائة وثلاثون حديثًا، هذا عدا ما فيه من الموقوفات والمقطوعات والبلاغات.

البضاعة في الحديث فلذا قلت روايته، ولا سبيل إلى هذا المعتقد في كبار الأئمة لأن الشريعة أنما تؤخذ من الكتاب والسنة، ومن كان قليل البضاعة في الحديث فيتعين عليه طلبه..» إلى أن قال: «والإمام أبو حنيفة إنما قَلَّت روايته لما شدد في شروط الرواية والتحمل، وضعف رواية الحديث اليقيني إذا عارضها الفعل النفسي، وقلت من أجلها روايته فقل حديثه، لا أنه ترك رواية الحديث متعمدًا فحاشاه من ذلك، ويدل على أنه من كبار المجتهدين في علم الحديث اعتماد مذهبه بينهم، والتعويل عليه»[1].

فها نحن نرى أن ابن خلدون ذكر هذه المقالة المتجنية على الإمام بلفظ «يقال» وهي من صيغ التضعيف في عرف علماء الرواية، وإذا كان ابن خلدون بين السبب في قلة رواية الإمام فمراده بذلك القلة النسبية لا ما حكاه في صدر كلامه بصيغة التضعيف، ومما ذكرنا من نص المقدمة يتبين للباحث المنصف والقارئ المتثبت أن عزو هذا القول الضعيف إلى ابن خلدون تجن كذلك على العلامة ابن خلدون، وخيانة للأمانة في البحث، وقد انزلق إلى هذا الرأي الضعيف الذي لا سند له بعض الكاتبين المحدثين[2] في الحياة العقلية في صدر الإسلام وجعله من قول الثقات، ويعلم اللَّه أن القائل به ليس من الثقة في شيء، وأنا لا أنكر تفاوت الأئمة في الحفظ والرواية فذلك أمر معلوم مفروغ منه، ولكن الذي لا أكاد أصدقه أن تنزل مرويات الإمام الأعظم إلى هذه القلة الضئيلة وكيف يتهيأ لمجتهد أن يبني مذهبًا على سبعة عشر حديثًا صحت عنده، وأقل ما يقال في مسائله التي تكلم فيها أنها تبلغ ثلاثًا وثمانين ألف مسألة في العبادات والمعاملات، وكيف يجوز قبول هذا القول وشاهد العيان يرده، فكثرة أحاديث الإمام تظهر من حججه المسرودة في أبواب الفقه التي نقلها عنه أصحابه، والمدونة في تلك المسانيد السبعة عشر[3] لكبار الأئمة من أصحابه وسائر الحفاظ، وكان مع الخطيب

---

(١) سبق قول الذهبي في (ص٩٧، ٩٨) فراجعه، ونقل الذهبي أيضًا عن أبي يوسف قوله؛ قال أبو حنيفة: «لا ينبغي للرجل أن يحدث إلا بما يحفظه من وقت ما سمعه». اهـ. ولعل هذا أيضًا من أسباب قلة رواية أبي حنيفة. [الناشر].

(٢) هو الأستاذ أحمد أمين - رحمه الله - في كتابه «فجر الإسلام» ص ٢٤٤.

(٣) طبع بالهند من هذه المسانيد خمسة عشر مسندًا في مجلدين كبيرين وهي تعرف بجامع المسانيد، وقد جمعها الإمام الخوارزمي المتوفى سنة ٦٦٥هـ.

البغدادى عندما حل في دمشق مسند أبي حنيفة للدارقطني، ومسند أبي حنيفة لابن شاهين وهما زائدان على السبعة عشر المذكورة[١].

والظاهر أن الخطأ دخل على القائل بأن الإمام لم يصح عنده إلا سبعة عشر حديثًا من أنه سمع أن للإمام سبعة عشر مسندًا أى كتابًا مرتبة أحاديثه على حسب الصحابة فظن أن المراد بالمسند الحديث الذي ذكر له إسناد فوهم هذا الوهم الفاحش. وكيف نصدق مثل هذا الرأي العاري عن الحجة، وهذا هو الحسن بن زياد أحد تلاميذ الإمام كان يقول: « كان أبو حنيفة يروي أربعة آلاف حديث: ألفين لحماد، وألفين لسائر المشيخة »، وإليك ما ذكره الحافظ الناقد الذهبي في حق الإمام: « ولولا كثرة اعتنائه بالحديث ما تهيأ له استنباط مسائل الفقه فإنه أول من استنبطه من الأدلة، وعدم ظهوره في الخارج لا يدل على عدم اعتنائه بالحديث كما زعمه بعض من يحسده، وليس كما زعم، وإنما قلت الرواية عن الإمام - وإن كان متسع الحفظ - لأمرين:

أحدهما: اشتغاله باستنباط المسائل من الأدلة كما كان أجلاء الصحابة كأبي بكر وعمر وغيرهما يشتغلون بالعمل عن الرواية حتى قَلَّتْ روايتهم بالنسبة لكثرة حديثهم، وكثرت رواية من دونهم بالنسبة إليهم، وهذان الإمامان مالك والشافعي لم يرويا إلا القليل بالنسبة لما سمعاه لاشتغالهما باستخراج المسائل.

ثانيهما: أن الإمام أبا حنيفة كان من المتشددين في الرواية وفي تصحيح الأحاديث، وقد ذكر العلامة ابن الصلاح أن من مذاهب التشديد - يعنى في الرواية - مذهب من قال: لا حجة إلا فيما رواه الراوي من حفظه وذلك مروي عن مالك وأبي حنيفة رضي اللَّه عنهما »[٢].

وكان للإمام شفوف نظر في الأحاديث، والترجيح بينها، ومن لا يعرف ذلك يلصق به ما هو براء منه، سُئِلَ الأعمش - وهو من كبار المحدثين - عن مسائل، فقال لأبي حنيفة: ما تقول فيها؟ قال كذا وكذا، فقال الأعمش: من أين لك كذا؟! فقال الإمام: أنت حدثتنا عن أبي صالح عن أبي هريرة عن رسول اللَّه ﷺ بكذا، وحدثتنا عن فلان

(١) مقدمة نصب الراية ص ٤١.
(٢) علوم الحديث لابن الصلاح ص١٨٥ ط حلب.

الصحابي عن رسول اللّٰه ﷺ بكذا، وسرد عدة أحاديث على هذا النمط وصار يتكلم فيها، ويستنبط منها على حسب اجتهاده فقال الأعمش: حسبك ما حدثت به ساعة واحدة، ما علمت بأنك تعمل بهذه الأحاديث، يامعشر الفقهاء: أنتم الأطباء ونحن الصيادلة، وأنت أيها الرجل أخذت بكلا الطرفين!

وقصارى القول - وحماداه - أن الإمام أبا حنيفة بريء من تهمة قلة البضاعة في الحديث، والحمد للّٰه الذي هدانا إلى تجلية هذه المسألة الشائكة وبحسبنا هذا اليوم، وندع الحديث عن بقية جوانب الإمام الخصبة المشرقة إلى المقال الآتي إن شاء اللّٰه تعالى.



الإمام أبوحنيفة[١]

(2)

في مقال سابق تحدثت عن بعض جوانب حياة إمام الفقهاء- وهو الإمام أبو حنيفة النعمان- أحد الأئمة المتبوعين والمشهورين، وقد ركزت عنايتى في ذلك المقال على نفي تهمة ألصقت بالإمام زورًا من قديم الزمان، وهي قلة بضاعته في الحديث، واليوم أعرض لجوانب أخرى من حياة هذا الإمام الكبير، ولاسيما اجتهاده الفقهي، ومنحاه في هذا الاجتهاد، فأقول وبالله التوفيق:

تحول في حياة الإمام:

لم يشتغل الإمام في صغره ومبدأ حياته بطلب العلم، والاختلاف إلى مجالس العلماء، وإنما كان يختلف إلى الاسواق، فقد كان يحترف التجارة في البز[٢]، وفي غدوة من غدواته إلى السوق، مر على الإمام الشعبي وهو جالس. فدعاه، فقال له: إلى من تختلف؟ فقال أبوحنيفة: أختلف إلى فلان - يريد رجلًا معروفا بالتجارة - فقال الشعبى: لم أعن السوق، عنيت الاختلاف إلى العلماء، فقال له أبوحنيفة: أنا قليل الاختلاف إليهم، فقال له الشعبى: لا تفعل، وعليك بالنظر في العلم، ومجالسة العلماء، فإني أرى فيك يقظة وفطنة. فقال أبو حنيفة: فوقع في قلبي من قوله، فتركت الاختلاف إلى السوق، وأخذت في العلم فنفعني اللّٰه به.

اشتغاله في أول طلبه بالجدل والكلام:

وقد رأى أبوحنيفة في أول طلبه للعلم الإسلام يتعرض للطعن من بعض الطوائف كالزنادقة وأضرابهم ممن دخلوا في الإسلام وهم يضمرون الكيد والعداء كما رأى ظهور كثير من الطوائف المبتدعة الذين ابتدعوا في الإسلام ما ليس منه كالروافض، والخوارج، والمرجئة، والقدرية الذين يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أُنُف[٣]، فاشتغل

---

(١) مجلة الوعي الإسلامي، السنة السابعة، العدد ٨٣.

(٢) في «القاموس المحيط»: البز: الثياب، أو متاع البيت من الثياب ونحوها، وبائعه البزاز، وحرفته البزازة.

(٣) أي مستأنف: أي أن الله لا يعلم بالأشياء قبل وقوعها، وقد تطورت كلمة القدرية فأضحت وصفًا لمن يقولون: إن العبد يخلق أفعاله الاختيارية وهم المعتزلة.

في أول أمره بعلم الجدل، والكلام، والرد على الروافض والخوارج والزنادقة وأضرابهم، وقد أكسبه هذا اللون من المعرفة قوة في الحجاج والجدل وإفحام الخصوم، والمرونة العقلية الفائقة، والقدرة على حل المشكلات والمعضلات، وسرعة البديهة في المجادلة، والمناظرة مما سنعرض لشيء منه فيما بعد.

ثم خطر له خاطر فقال: إن المتقدمين من أصحاب رسول اللَّه ﷺ، والتابعين من بعدهم؛ لم يكن فيهم شيء مما نذكره نحن، وكانوا عليه أقدر، وبه أعرف، وأعلم منا بحقائق الأمور، ولم يروا منازعين، ولا مجادلين، ورأيت خوضهم في الشرائع، وأبواب الفقه، فبدا له في الأمر بداء[1].

اشتغاله بالفقه:

وبينما هو على هذا الحال، وكان يجلس بالقرب من حلقة الإمام حماد بن أبي سليمان - الذي صار فيما بعد أجل أساتذة أبي حنيفة، وأعظمهم تكوينا له، وتأثيرًا فيه - إذ جاءته امرأة فقالت له: رجل له امرأة أراد أن يطلقها للسُّنَّة، كيف يصنع؟ قال أبوحنيفة: «فلم أدر ما أقول، وسقط في يدي فأمرتها أن تسأل حمادًا، ثم ترجع إليَّ فتخبرني، فذهبت فسألت حمادًا، فأجابها ثم رجعت فأخبرتني وكان لهذه الحادثة تأثيرها في نفسه»، فقال: لا حاجة لي في الكلام[2] فأخذت نعلي وصرت أجلس إلى حماد أسمع مسائله وأحفظ قوله حتى قال: «لا يجلس أحد في صدر الحلقة بحذائي غير أبي حنيفة فصحبته عشر سنين» فقال أبو حنيفة: فنازعتني نفسي الطلب للرياسة - يعني أن يتصدى للتدريس- فأحببت أن أعتزله وأجلس في حلقة نفسي، فخرجت ليلة، وعزمي أن أفعل، فلما دخل المسجد ورأيته لم تطب نفسي أن أعتزله، فجلست معه، ولأمر ما، تخلف حماد عن الدرس، فأمر أبا حنيفة أن يجلس مكانه، فوردت عليه مسائل، فكان يجيب عنها ويكتب الجواب، وبعد شهرين قدم أستاذه حماد، فعرض عليه أبوحنيفة المسائل التي أفتى فيها فوافقه في أربعين مسألة وخالفه في عشرين فآلى الإمام أبوحنيفة على نفسه ألا يفارق شيخه حمادًا أبدًا حتى يموت، فلم يفارقه حتى مات بعد ما

(١) أي ظهر له رأي.

(٢) غمز الذهبي في سيره (٦/ ٣٩٨) في هذه الحكاية وقال: «... وهذه أيضًا اللَّه أعلم بصحتها، وما علمنا أن الكلام في ذلك الوقت كان له وجود». [الناشر].

أخذ عليه كل ما كان عنده من علم، وكان كثيرًا ما يناقش شيخه حمادًا ويسأله، ويناظره حتى كان ربما يتبرم منه لذلك، روي عن الإمام أنه قال: «لزمت حمادًا لزومًا ما أعلم أحدًا لزم أحدًا مثل ما لزمته، وكنت أكثر السؤال فربما يتبرم مني، ويقول: «يا أبا حنيفة قد انتفخ جنبي، وضاق صدري».

ولعلك أيها القارئ الكريم على ذكر من الكلمة الصادقة المعبرة عن غاية الاستقصاء التي قالها له شيخه حماد: «لقد أنزفتني».

تأهل أبي حنيفة للأستاذية:

ولما مات شيخ الإمام حماد فكر طلاب العلم والمعرفة فيمن يقوم مقامه فأجلسوا كثيرين من أهل العلم فلم يجدوا عندهم كبير غناء[1]. ثم أجلسوا الإمام أبا حنيفة، فوجدوا عنده من العلم والفقه ما لم يجدوه عند غيره، ووجدوا عنده في سائر المعارف، والثقافات السائدة آنئذ نفاذًا، وسعة أفق وعلمًا غزيرًا فلزموه وتركوا غيره، وعظم شأنه حتى صارت حلقته أعظم حلقة في المسجد، فتخرج به أقوام صاروا أئمة في العلم من أشهرهم الفقهاء: «أبو يوسف، ومحمد بن الحسن الشيباني، وزفر بن الهذيل العنبري، وواعظ زمانه الحسن البصري، وإمام أهل المغازي محمد بن إسحاق بن يسار - صاحب السيرة المشهورة- ومتصوف زمانه إبراهيم بن أدهم»، وغيرهم.

وكذلك كان مرجع الناس في الفتوى وحل المشكلات المستعصية والمسائل العلمية العويصة، بل كانوا يرجعون إليه فيما يعتريهم في حياتهم الدنيوية، فيجدون عنده المعونة الصادقة والحل الموفق لايدخل بلدًا إلا اجتمع عليه الناس، وسألوه، قال الإمام الليث بن سعد - محدث مصر، وعالمها وفقيهها-: كنت أتمنى رؤية أبي حنيفة حتى رأيت الناس متقصفين[2] على شيخ فقال له رجل يا أبا حنيفة وسأله عن مسألة، فوالله ما أعجبني صوابه، كما أعجبني سرعة جوابه.

منحاه في الاجتهاد:

الإمام أبوحنيفة كغيره من الكثيرين من أئمة الفقه والاجتهاد يأخذ بالاصول الأربعة-

---

(١) غناء بفتح الغين، أي نفع واستغناء بهم عنه

(٢) مجتمعين في التزاحم عليه.

التي تستنبط منها الأحكام، ويعرف الحلال والحرام:

١- الكتاب ٢- والسنة ٣- والإجماع ٤- والقياس[1] .

والثلاثة الأولى قدر متفق عليه بين جميع الفقهاء، وأما القياس فهو محط خلاف الفقهاء في الأخذ به أو عدم الأخذ به، والآخذون به يختلفون في الأخذ به قلة وكثرة، فمنهم المكثر ومنهم المقل لأصول أَصَّلُوها وقواعد وضعوها.

وقد كان الإمام أبوحنيفة - رضي اللَّه تعالى عنه - عالمًا بالأصلين الشريفين- اللذين إليهما عند التحقق مرجع جميع الأحكام، وهما القرآن الكريم والسنة المُطهرة- عِلْمًا أَهَّلَهُ لأن يكون إمامًا كبيرًا بين أئمة الاجتهاد في الإسلام، أما علمه بالقرآن الكريم، وأسباب نزوله، وأول ما نزل، وآخر ما نزل، وتدرجه في التشريع، ومكيه ومدنيه، وعامه وخاصه، ومطلقه ومقيده، ومحكمه ومتشابهه، وناسخه ومنسوخه؛ فهذا ما أقر به الموافق والمخالف، وأما علمه بالمصدر الثاني من مصـادر التشريع في الإسلام، فقد بينت في المقال السابق بما لا يدع مجالًا للشك علم الإمام أبي حنيفة بالسنن والأحاديث، ونفيت عنه تهمة قلة بضاعته في الحديث، وندرة ما صح عنه من أحاديث.

وقد بين لنا الإمام أبو حنيفة منهجه في الاجتهاد، فقد روي عنه أنه قال: « آخذ بكتاب الله، فإن لم أجد في كتاب اللَّه فبسنة رسول اللَّه ﷺ، فإن لم أجد في سنة رسول اللَّه أخذت بقول أصحابه من شئت وأدع من شئت، ولا أخرج عن قولهم إلى قول غيرهم فأما إذا انتهى الأمر إلى إبراهيم - يعنى النخعي - والشعبي وابن سيرين والحسن- يعني البصري - وعطاء - أي التابعين - فقوم اجتهدوا، فأجتهد كما اجتهدوا »، وروي عنه أيضًا أنه قال: « إذا جاء الحديث عن رسول اللَّه ﷺ فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن الصحابة اخترنا ولم نخرج عن رأيهم، وإذا جاء عن التابعين زاحمناهم »[2] وقد قدمت في المقال السابق أن الإمام أبا حنيفة يعتبر من التابعين لأنه لقي بعض الصحابة بل قيل: إنه روى عن بعضهم فهو حينما يزاحمهم ويجتهد مثلهم فلأنه من طبقتهم، وهو منهج لا غبار عليه.

(١) نقل الذهبي في السير عن وكيع قال: سمعت أبا حنيفة يقول: «البول في المسجد أحسن من بعض القياس». اهـ. ومن هذا يُعْلَم أنه لم يأخذ بالقياس دائمًا كما قال البعض. [الناشر].

(١) عقود الجمان في مناقب أبي حنيفة النعمان مخطوط بمكتبة الحرم المكي.

ولكن بعض الحاسدين له، والحاقدين عليه رموه بأنه لا يأخذ بالأحاديث والآثار ويغلب الرأي والقياس عليها. وها هو الإمام يدافع عن نفسه فيقول: «عجبًا للناس يقولون أفتى بالرأي وما أُفتي إلا بالأثر».

وقال لما سئل عن الكلام في الأعراض، والأجسام: هذه مقالات الفلاسفة عليك بالأثر وطريقة السلف وإياك وكل محدثة فإن كل محدثة بدعة[١]، فهل بعد هذه المقالات الواضحة البينة يدعي مدعٍ أن الإمام كان لا يأخذ بالأحاديث والآثار[٢].

نعم إذا لم يجد في القرآن والسنة والأحاديث وضاق عليه الاستدلال بها ولم يكن في المسألة إجماع فليس إلا إعمال الرأي والاجتهاد وهذا هو ما دل عليه الحديث المشهور أن رسول اللَّه ﷺ قال لمعاذ بن جبل الأنصارى الخزرجى، الإمام المقدم في علم الحلال والحرام – حين بعثه إلى اليمن في السنة العاشرة للهجرة أميرًا وقاضيًا ومفتيًا –: «كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟» قال: بما في كتاب الله، قال: «فإن لم يكن في كتاب الله؟» قال: فبسنة رسول اللَّه ﷺ قال: «فإن لم يكن في سنة رسول الله؟» قال: أجتهد، وإني لا آلو – أي لا أقصر – قال: «فضرب رسول اللَّه ﷺ صدري»[٣]، ثم قال: «الحمد للَّه الذي وفق رسولَ رسولِ اللَّه لما يرضي رسولَ الله» رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه[٤]، وهذا تقرير قولي من النبي ﷺ لطريقة معاذ، ومنهجه في الحكم والاجتهاد، وقد شاع على ألسنة بعض أهل العلم ولا سيما المتحاملين منهم على الإمام أبي حنيفة أنه لا يأخذ بكثير من الأحاديث، وأنه يرجح الرأي والقياس عليها، وهى مقالة فيها تجن على الإمام، ومجافاة للحق والواقع، وإليك ما قاله إمام اشتهر بحدة اللسان وصراحة النقد، وعدم المداهنة في الحق، وهو الإمام أبو محمد بن حزم الاندلسي قال: وجميع أصحاب أبي حنيفة مجمعون على أن مذهب أبي حنيفة: أن ضعيف الحديث أولى عندهم من القياس والرأي، فهو لا يقيس إلا إذا انسدت عليه مسالك الاستدلال

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الحديث: هو قول النبي ﷺ، وأفعاله، وتقريراته، وصفاته الخلقية، والأثر: هو ما روي عن الصحابة من أقوالهم وأفعالهم من غير أن يرفع وينسب إلى النبي ﷺ.

(٣) يعني بيده تثبيتًا لما في قلبه من هذا العلم المكنوز، والفقه الأصيل، وزيادة شرح لصدره.

(٤) الحديث ضَعَّفَه غير واحد من أهل العلم، وانظر «الضعيفة» للشيخ الألباني رحمه الله برقم (٨٨١). [الناشر].

بالأحاديث التي يحتج بها.

وقد بينت أن الإمام له شروط شديدة في الحكم على الأحاديث بالصحة والحسن، ومعاذ اللَّه أن يترك حديثًا صحيحًا، ثم يحتج بالقياس والرأي، وما عسى أن يبدو في نظر بعض العلماء والباحثين أنه كذلك بادئ الرأي، فعند التحقيق والتدقيق يظهر أنه ليس كذلك. وأرجو أن تتاح لي الفرصة للحديث عن ذلك فيما بعد إن شاء اللَّه تعالى.

على أني أحب في هذا المقام أن أقول: إن المجتهد مهما جلت منزلته واتسع علمه بالأحاديث والآثار لا يلزم أن يبلغه كل حديث مروي، وَلو بلغه فليس بلازم أن يصح عنده، ولو صح عنده فليس بلازم أن يأخذ به لأنه قد يكون - ولو في نظره هو - مرجوحًا، أو منسوخًا، أو مخصصًا بدليل آخر أو مقيدًا، أو غير ذلك مما يعرفه أهل العلم بأصول الفقه، ومسالك الاجتهاد في الإسلام، ومن ثم كان اختلاف الأئمة في الفروع الفقهية - مع أنهم جميعًا كان معولهم في استنباط الأحكام الفقهية على القرآن والسنة، وكانو ينشدون الحق والصواب لا يبغون بهما بديلا، ولم يكن للهوى النفسي والتعصب للرأي بغير حق أي أثر في استنباطاتهم، واجتهاداتهم، وإذا حدث في بعض العصور تعصب مذهبي فقد كان ذلك في العصور المتأخرة، ومن أتباع الفقهاء المتأخرين حينما كسدت سوق الاجتهاد وغلبت ملكة التقليد.

وقد نقل الإمام الشاطبي - في «الموافقات» - أنه ما من إمام من الأئمة الأربعة إلا صح عنه أنه قال: «إذا صح الحديث فهو مذهبي، واضربوا بقولي عرض الحائط». وهذا هو اللائق بمقام أئمتنا الكبار وأخلاقهم، وجلال أقدارهم.

هذا، ولا يزال في الحديث عن الإمام الأعظم أبي حنيفة مجال ومجال، فإلى المقال الآتي إن شاء اللَّه تعالى.



عبقريّة إمَام[1]

(3)

لما اتسعت رقعة الإسلام، وأظل بلوائه دولتي فارس والروم، اعتنق هذا الدين عن طواعية واختيار الألوف المؤلفة من أبناء هاتين الدولتين، وصاروا عربا بالمربى واللسان، وقد تناسى هؤلاء ما ورثوه من عقائد وأفكار وأخلصوا غاية الإخلاص لهذا الدين الحق- دين الإسلام- وللغته العربية - لغة القرآن - ولقد صقل الإسلام بثقافته الكثير من هؤلاء وكَوَّنَ منهم فئة يشار إليها بالبنان في العلم والفقه، والقيادة والسياسة، والفصاحة والبلاغة، والورع والزهد، والفضائل والأخلاق العالية وتاريخ الإسلام حافل بالأئمة الأعلام، والعلماء المبرزين في كل فن، وقد بلغوا من الكثرة حدًا لانكاد نجده في أي أمة من الأمم قديمًا وحديثًا، وتركوا لنا رصيدًا ضخمًا، وثروة طائلة من العلوم والمعارف، والخصائص النفسية والمذاهب العقلية.

والإمام الذي أعنيه بهذا العنوان هو إمام الأئمة أبو حنفية النعمان إمام المذهب الحنفي، والمقدم إذا ما ذكر الفقهاء المسلمون- بل وغيرهم- من فقهاء الأمم والشعوب، وبحسبنا تبيانا لمنزلته في الفقه والاجتهاد مقالة الإمام محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله: « الناس في الفقه عيال على أبي حنفية » وما أجلها شهادة من مثل الإمام الشافعي.

وليس من قصدي في هذا المقال التحدث عن الإمام أبي حنفية من جوانبه الخصبة المتعددة فذلك أمر يطول، ولكني سأتناول جانبًا من جوانبه المشرقة وهو ذكاؤه المفرط وألمعيته الصادقة وسرعة بديهته الفائقة، وقدرته العجيبة على حل المشكلات من أقرب طريق، وبدون لجاج في الخصومة والجدال، وعلمه الغزير بالغرائز وأحوال النفوس البشرية في وقت لم تكن المباحث النفسية قد نضجت، ووصلت إلى ما بلغته في العصر الحديث.

وليس أدل على براعته وقوته في الحجاج والمناظرة مما روي أنه قيل للإمام مالك ابن أنس إمام دار الهجرة: هل رأيت أبا حنيفة؟: « قال: نعم رأيت رجلا لو كلمك في

---

(١) مجلة الأزهر، الجزء الخامس والسادس، السنة السابعة والثلاثون، رجب وشعبان سنة ١٣٨٥هـ، نوفمبر وديسمبر ١٩٦٥م.

هذه السارية أن يجعلها ذهبا لقام بحجته».

ومن لطائف الإمام أبي حنيفة وأجوبته الراجحة التي تدل على العقلية الناضجة وقوة العارضة أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود الباري جل وعلا فقال لهم: دعوني فإني مفكر في أمر قد أخبرت عنه: ذكروا لي أن سفينة في البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر، وليس بها أحد يسوقها ولايحرسها، وهي مع ذلك تذهب وتجيء، وتخترق الأمواج العظام حتى تتخلص منها، وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد، أو يرشدها مرشد فقالوا: هذا لا يقوله عاقل!! فقال لهم: ويحكم فكيف تكون هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي، وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع؟!!! فبهت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه. وبهذه الطريقة السهلة توصل إلى إقناع هؤلاء الزنادقة وإلزامهم بالإقرار بالخالق جل وعلا من غير أن يسلك معهم ما ساقه علماء الكلام والمناطقة من ذكر الأقيسة والمقدمات من مثل قولهم: العالم حادث، وكل حادث لا بد له من محدث، وقولهم: إن الممكن لا يترجح أحد طرفيه إلا بمرجح، وهذا المرجح لابد أن يكون قديمًا، وإلا لزم الدور أو التسلسل وكلاهما باطل.

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر، فقد روي أن الإمام مالك سُئِلَ عن وجود الصانع جل وعلا فاستدل له باختلاف اللغات والأصوات والنغمات، وقد أخذ ذلك من قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

وسُئِلَ الإمام الشافعي عن ذلك فقال: هذا ورق التوت طعمه واحد، تأكله الدود فيخرج منه الإبريسم، وتأكله النحل فيخرج منه العسل، وتأكله الشاة والبقر والأنعام فتلقيه بعرًا وروثًا، وتأكله الظباء فيخرج منها المسك؛ وهو شيء واحد، وكأني بالإمام يرد على الطبعيين الذين ينكرون وجود الإله ويرون أن العالم وجد بالطبيعة، ولو أن الأشياء استفادت خواصها من ذواتها لا من اللّه سبحانه لما تكون من الشيء الواحد أشياء متباينة، وقد استوحى الإمام هذا الدليل من قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ

بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

وسئل الإمام أحمد عن ذلك فقال: ههنا حصن حصين أملس، ليس له باب ولا منفذ، ظاهره كالفضة البيضاء، وباطنه كالذهب الإبريز، فبينا هو كذلك إذ انصدع جداره فخرج منه حيوان سميع بصير، ذو شكل حسن، وصوت مليح، يعني بذلك - رحمه اللَّه - البيضة إذا خرج منها الفرخ ومن عبقريات الإمام أبي حنيفة - رحمه اللَّه - التي تدل على علم أصيل بالنفوس البشرية وغرائزها ومواطن الشعور فيها أنه كان للإمام جار، وكان له « طاووس » فَسُرِقَ فجاء صاحبه إلى الإمام، فقال له: سُرِقَ طاووسي ماذا أفعل ؟ فلما غدا الإمام إلى المسجد قام بين الناس فقال: أما يستحي من يسرق طاووس جاره ثم يجيء يصلي، وأثر الريش على رأسه، فمسح الرجل الذي سرق الطاووس رأسه، فقال الإمام أبوحنيفة: يا هذا رد على هذا طاووسه فما كان من الرجل وقد ظهرت إدانته إلا أن رده إلى صاحبه.

وهذه القصة تدل على أن بعض أئمة المسلمين وعلمائهم كانوا يعرفون بعض قواعد علم النفس وأصوله قبل أن يعرف الغربيون ذلك، وهذا العلم وإن لم يدون في الإسلام على أنه علم مستقل إلا أننا نجد الكثير من بحوثه ومسائله مبثوثة في بعض كتب الأئمة الأعلام من كتب الفقه، والتفسير والحديث، والتاريخ والسير والتراجم وقد سبق الإمام أبوحنيفة رجال العصر الحديث الذين يحاولون التوصل إلى الجاني عن طريق الانفعالات النفسية وقياساتها، وقد أسسوا لذلك مدارس تعرف بمدارس « علم النفس الجنائي » وهذا العلم يدرس عندنا الآن ببعض الكليات والمعاهد التي تعنى بالتحقيقات الجنائية والقضائية، والجاني مهما حاول إخفاء جريمته فلابد أن تظهر عليه انفعالات أو تصرفات من غير قصد عند ذكر الجريمة أو ما يتصل بها إما بتغير في قسمات الوجه أو التلعثم في الكلام، أو القيام بحركات لا شعورية ألا ترى إلى هذا السارق قد رفع يده بطريقة لاشعورية ليزيل ما عسى أن يكون على رأسه، من الريش حينما سمع مقالة الإمام، ولو أنه فكر قليلًا لأيقن أن لا ريش على رأسه، ولكن الشعور بالجريمة لم يدع مجالا للتفكير وصدق القائل:

كادَ المريبُ أن يقول: خُذُوني

وما لنا نعجب من علم الإمام بالمباحث النفسية، وهذا القرآن الكريم قد أشار إلى بعض قواعده وأصوله في أثناء آياته قال عز شأنه في شأن أعداء الإسلام والمسلمين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨]، ويقول في شأن المنافقين: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٢٩، ٣٠]، وقد ورد عن سيدنا ذي النورين عثمان بن عفان رضي اللّٰه تعالى عنه في تفسير «لحن القول» قوله: «ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها اللّٰه على صفحات وجهه وفلتات لسانه». وهذا الذي ذكره ذو النورين يعتبر سبقًا لبعض ما يذكره علماء النفس في مبحث «الشعور» و«اللاشعور» والعقل الظاهر، والعقل الباطن ونحوها.

ولو أن المسلمين استفادوا بهذه الإرشادات والتوجيهات القرآنية، وهذه الأقوال المأثورة عن علماء السلف الصالح لكانوا هم أسبق الناس إلى تدوينه، وتوسعة القول فيه.

ومن الأمثلة الدالة على ذكاء الإمام أبي حنيفة وقدرته الفائقة على حل المشكلات ما ذكر في الكتب التي عنيت بمناقبه، والكشف عن خصائصه ومزاياه وهو أن جماعة من اللصوص دخلوا على رجل فأخذوا متاعه واستحلفوه بالطلاق ثلاثًا أن لا يعلم أحدا فأصبح الرجل وهو يرى اللصوص يبيعون متاعه وهو لا يقدر أن يتكلم من أجل يمينه، فجاء الرجل ليشاور الإمام أبا حنيفة، فقال له الإمام أحضر لي إمام حَيِّك والمؤذن والمستورين منهم، فأحضرهم الرجل فقال لهم أبو حنيفة: هل تحبون أن يرد اللّٰه على هذا متاعه؟ قالوا: نعم، قال: فاجمعوا كل داعر وكل متهم، فأدخلوهم في دار أو مسجد ثم أخرجوهم واحدًا واحدًا، ثم قولوا له: هذا لصك؟ فإن كان ليس بلصه قال: لا، وإن كان لصه فليسكت، فإذا سكت فاقبضوا عليه، ففعلوا ما أشار عليهم به الإمام، وبهذه الطريقة العجيبة التي لا تتفتق إلا عن ذهن حاد، وعقل واسع، توصلوا إلى معرفة الجُناة السارقين، وردوا على الرجل جميع ما سرق منه، وفي الكتب التي تحدثت عن الإمام أبي حنيفة من أمثال هذه الحلول الموفقة شيء كثير.

ألا ما أشد حاجتنا ولا سيما فقهاؤنا وقضاتنا إلى الإحاطة بهذه الجوانب المشرقة من سيرة هذا الإمام العبقري الذي يعتبر من أفذاذ العلم المعدودين.

عقود الجمان

في مناقب الإمام أبي حنيفة النعمان رحمه الله[١]

(4)

ليس أحب إلى نفس الباحث من أن يخلو بنفسه ساعات يدرس فيها شخصية من شخصيات الإسلام الفذة التي كان لها أكبر الأثر في بناء صرح الثقافة الإسلامية إلى منهل العالم أحقابًا من الزمان، والإمام أبو حنيفة رحمه اللّٰه في الرعيل الأول من العلماء المجتهدين الذين كونوا لهم مدارس وآراء لاتزال تدرسها الأجيال المتعاقبة بعناية واجتهاد ولاتزال تتفاخر به وبأمثاله علماء أوربا الذين يحاولون أن يقللوا من شأن علماء الإسلام ويرمونهم بالجمود وقلة الإنتاج.

وستؤمن معي - بعد قراءة المحاضرة إن شاء اللّٰه - بعظمة الخلق الإسلامي ممتدة في رجاله وسمو البحث وبعد النظر والتسامح الحق مجسدا في علمائه، وعظمة الإسلام في تكييف أبنائه.

لمؤلفه[٢] زين الدين الشيخ محمد بن يوسف الصالحي الدمشقي نزيل البرقوقية بخامقاه مصر المتوفى سنة ٩٤٧هـ.

فرغ من تأليفه سنة ٩٣٩ آخر شهر ربيع الآخر والنسخة الخطية الموجودة بمكتبة الحرم المكي الشريف فرغ من كتابتها في ٣٠ من شوال سنة ١٠٥٩، روى الإمام مسلم في مقدمة صحيحه تعليقًا ووصله أبو داود في سننه وابن خزيمة في صحيحه وغيرهم عن عائشة رضي اللّٰه عنها قالت: « أمرنا رسول اللّٰه ﷺ أن ننزل الناس منازلهم » سنده حسن كان يحيى بن معين إذا ذكر له من يتكلم في أبي حنيفة يقول:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالقوم اعداءٌ له وخصومُ
كضرائرِ الحسناءِ قُلْنَ لوجهها حسدًا وبغيًا أنه لَذَمِيمُ

بسم اللّٰه الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين.

المحاضرة التي ألقيت على طلبة المعهد السعودى والبعثات وغيرهم من أهل العلم والأدب.

---

(١) مجلة الحج، العدد الخامس، السنة الثانية، ذو القعدة سنة ١٣٦٧هـ، سبتمبر سنة ١٩٤٨م.

(٢) يقصد به مؤلف كتاب «عقود الجمان في مناقب الإمام أبي حنيفة النعمان». [الناشر] .

« الإمام أبو حنيفة رحمه الله »

نسبه :

هو النعمان بن ثابت بن زوطى[١] بن ماه التيمي ولاءً وذلك أن زوطى جد الإمام كان فارسيًّا من كابل[٢] وكان مملوكا لبني تيم اللّٰه ابن ثعلبة فأسلم فأعتق فصار ولاؤه لهم، وولد والده ثابت على الإسلام وهذا هو المعتمد عند العلماء، ويرى بعضهم أن الإمام لم يجر على أحد من أجداده رق قط وأنه من أحرار فارس، بل بالغ بعضهم فزعم أن الإمام يتصل إلى العرب بنسب، ويظهر أن المحبين للإمام دعاهم حبهم إلى انتحال هذا، وما دروا أن الإسلام لا يفرق بين عربي وعجمي، ولا بين مولى وسيد وفي الموالى من رفعه إسلامه إلى مقاعد الشرف والكرامة، وفي السادات من أوبقه كفره فانحط به إلى دركات الضعة والهوان، وكني بأبي حنيفة، مؤنث حنيف وهو المسلم المائل عن الباطل إلى الحق وقيل أنه كني بذلك لكثرة ملازمته الدواة، وحنيفة بلغة العراق: الدواة، وأما ما قيل أنه كني بذلك لبنت له تسمى حنيفة، فغير صحيح إذ لم يعقب الإمام إلا ولدًا ذكرًا وهو حماد. ولد الإمام سنة ثمانين من الهجرة، في خلافة عبد الملك بن مروان من خلفاء بنى أمية، وتوفي سنة مائة وخمسين، فهو إذن قد عاصر الدولة الأموية ردحًا من الزمان كما شاهد أوائل الدولة العباسية، وكانت ولادته بالكوفه وعاش بها معظم حياته ولم يفارقها إلا إلى مكة فترة وجيزة وإلى بغداد قبيل وفاته.

أوصافه :

روى الخطيب البغدادي عن أبي يوسف تلميذ الإمام قال: « كان الإمام أبو حنيفة رحمه اللّٰه ربعة ليس بالطويل ولا بالقصير، وكان من أحسن الناس صورة، وأبلغهم منطقا وأبينهم على ما يريد وكان جميلًا تعلوه سمرة لبَّاسًا حسن الهيئة كثير التعطر يعرق بريح الطيب إذا أقبل وإذا خرج من منزله لايخوض فيما لا يعنيه ولا يسمع إليه.

طبقته:

اختص الإمام أبو حنيفة رحمه اللّٰه بين الأئمة الأربعة بأنه رأى بعض الصحابة فقد

---

(١) زوطى بوزن موسى، كما ذكره الإمام النووي وضبط صاحب القاموس الزاي كسلمى.

(٢) كابل بكاف فألف فموحدة مضمومة هو ثغر من ثغور طخروستان أقليم متاخم للهند.

صح - كما قال الحافظ الناقد أبو عبد اللّٰه الذهبي - أنه رأى أنس بن مالك رضي اللّٰه عنه، وهو صغير، وروى ابن اسعد - في كتابه الطبقات - عن الإمام أبي حنيفة قال: قدم أنس بن مالك الكوفة ونزل النخع وكان يخضب بالحمرة قد رأيته مرارًا، كما أنه رأى عبد اللّٰه بن أبي أوفى، وغيره من الصحابه فهو إذن من التابعين ورؤيته لبعض الصحابة ليس فيها خلاف، إنما الخلاف في سماعه منهم والثقات من حفاظ الحديث ونقاده على أنه لم يسمع من أحد منهم وبعضهم يرى أنه سمع منهم وقد رووا في ذلك روايات له عن الصحابة إلا أنها ضعيفة.

وقد روي في صحيح مسلم وغيره من كتب الحديث أن رسول اللّٰه ﷺ قال: «لو كان الإيمان بالثريا لتناوله رجل من أبناء فارس» وفي رواية - لو كان العلم معلقًا بالثريا لتناوله رجال من فارس وقد قال الإمام السيوطي في كتابه «تبييض الصحيفة في مناقب أبي حنيفة» وغيره أن في هذا الحديث بشارة بالإمام أبي حنيفة بيد أنها بطريق الرمز والإشارة، لا بطريق التصريح والعبارة وأما ما يروى أن رسول اللّٰه ﷺ قال: «يكون في أمتي رجل يقال له النعمان بن ثابت هو سراج أمتي، فهو حديث موضوع، وكل حديث فيه التصريح باسم أبي حنيفة فهو مختلق مكذوب وينبغي التنبه لمثل هذه الموضوعات التي ذكرت في بعض كتب المناقب كمناقب المكي ومناقب الكردي والإعراض عنها فإن الحجة في ذلك هم أهل الحديث.

شيوخه:

شيوخه كثيرون جدًّا أغلبهم من أعيان التابعين كمحمد بن السائب الكلبي النسابة المفسر وجعفر الصادق ومحمد الباقر وابن شهاب الزهري وشعبة بن الحجاج وربيعة الرأي شيخ الإمام مالك وسليمان بن مهران الأعمش من كبار المحدثين والإمام مالك وحماد بن أبي سليمان الأستاذ الأكبر للإمام أبي حنيفة فلا عجب أن كان خريج هؤلاء وغيرهم قد مهر في غالب العلوم والفنون وضرب في الفقه بسهم راجح.

من أخذ عنه:

وقد أخذ عنه كثيرون لا يحصيهم العد ولم يكن لأحد من الأئمة من الأصحاب والتلاميذ مثل ما كان للإمام أبي حنيفة، ولم ينتفع العلماء وجميع الناس بمثل ما انتفعوا

به وبأصحابه في تفسير الأحاديث المشتبهة والمسائل المستنبطة، والنوازل والقضاء والفتوى وقد ذكر صاحب عقود الجمان في مناقب الإمام أبي حنيفة النعمان، أن من أخذ عنه نحو الثمانمائة من أعيانهم محمد بن إسحاق بن يسار إمام أهل المغازي، ومحمد بن عمر الواقدي وإبراهيم بن أدهم والحسن البصري واعظ أهل زمانه.

ومما يدل على فضله ومنزلته أن كثيرًا من شيوخه قد أخذوا عنه كربيعة الرأي وعاصم المقرئ وحماد بن سليمان والإمام مالك وغيرهم وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على عظمة علماء الإسلام الأوائل وسمو أنفسهم عن الأهواء والشهوات النفسية فما كان الشيخ يترفع عن الأخذ عن تلميذه ما دام أهلًا لذلك ولا كان الكبير يترفع عن الاستفادة من الصغير وذلك لأنهم كانوا ينشدون الحق أينما كان ولعله يكون في هذا الخلق الإسلامي زاجر للذين يستنكفون عن السؤال والاستفادة وحافز لهم على الجد في طلب العلم والبحث عنه أينما كان وإلا ماتوا بين الجهل والغرور وصدق عليهم قول القائل.

يموتُ الجاهلُ في جهله ميتة جالنيوس في طبه

وأبر تلاميذ الإمام الذين حملوا علمه ورفعوا لواءه ونشروا ذكره هم الإمام أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم قاضي العباسيين الأكبر؛ والإمام محمد بن الحسن الشيباني والإمام زفر بن الهذيل العنبري وعلى هؤلاء الثلاثة وإمامهم الأكبر قام فقه الحنفية.



عقود الجمان في مناقب الإمام أبي حنيفة النعمان، رحمه الله[1]

(5)

أخلاقه :

لئن كان الإمام أبوحنيفة قد اتسع عقله لكل فن فقد اتسع خلقه لغر الفضائل وقد كان لأخلاقه الكريمة أكبر الأثر في قبول علمه وذيوع اسمه والانتفاع به.

فقد كان رجلًا سخيًّا معطاءً جوادًا مؤثرًا شديد البر بتلاميذه والإحسان إليهم، يواسيهم إذا افتقروا ويجاملهم إذا حضروا ويسأل عنهم إذا غابوا، وقد وسع اللّه سبحانه عليه دنياه فوسع على عباد اللّه قال تلميذه أبو يوسف « كان أبو حنيفة شديد البر لكل من عرفه وكان يعطي الرجل خمسين دينارًا أو أكثر فإذا شكره بحضرة قوم غُمَّ لذلك وقال: اشكر اللّه تعالى فإنما هو رزق ساقه اللّه إليك».

وكان معروفًا بالورع والزهد قال عبد اللّه بن المبارك « قدمت الكوفة فسألت عن أزهد أهلها؟ فقيل لي: أبوحنيفة»، وقال أيضًا وقد ذكر عنده الإمام أبوحنيفة « ماذا يقال في رجل عرضت عليه الدنيا والأموال فنبذها، وضرب بالسياط فصبر عليها ولم يدخل فيما كان غيره يطلبه ويتمناه»، ومن نوادره التي تدل على شدة الورع أنه رؤي جالسا في الشمس وبجواره ظل دار لإنسان فَسُئِلَ: لِمَ لَمْ يجلس في الظل؟! فقال: لي على صاحب هذه الدار شيء فكرهت أن استظل بظل حائطه فيكون منفعة وهو يشير إلى حديث « كل قرض جر منفعة فهو ربا »[2] .

فأي ورع - أيها المسلمون الكرام - أعلى من هذا وأي حيطة في الحلال والحرام تداني هذا التحوط البالغ والتباعد عن مواطن الشبهات، أما قيامه الليل وتلاوته القرآن الكريم؛ فَحَدِّث عنها ولا حرج فقد تواتر عنه قيام الليل وتهجده وتعبده[3] وكان يختم القرآن في رمضان ستين ختمة، ختمة بالليل وختمة بالنهار، ولعل السبب في قيامه الليل، ما ذكره الإمام القرطبي في التذكرة عن أبي يوسف قال: « كنت أمشي مع أبي

---

(١) مجلة الحج، العدد السادس، السنة الثانية، ذو الحجة ١٣٦٧هـ، نوفمبر ١٩٤٨م.

(٢) الحديث ضعيف، وانظر « الإرواء » للشيخ الألباني رحمه اللّه (١٣٩٨) و«ضعيف الجامع» (٤٢٤٤). [الناشر] .

(٣) «تذكرة الحفاظ» للذهبي.

حنيفة فقال رجل لآخر: هذا أبو حنيفة لا ينام الليل، فقال: والله لا يتحدث الناس عني بما لم أفعل، فكان يُحيي الليل «صلاةً ودعاءً وتضرعًا»[١].

فأين نحن اليوم من هذا الخُلق الكريم، وما منا إلا من يستتر بما ليس فيه ويحب أن يُحمد بما لم يفعل، وكان يكره الغيبة وكان إذا تكلم رجل في مجلسه كلامًا غير حسن سأله سؤالًا قاصدًا أن يحول مجرى الحديث حتى ينزه مجلسه عن اللغو والباطل، وقيل له ذات يوم: الناس يتكلمون فيك وأنت لا تتكلم في أحد، فقال: ذلك فضل اللَّه يؤتيه من يشاء وكان في غاية الحلم، شتمه رجل فقال له: يا زنديق، فقال: غفر اللَّه لك، اللَّه يعلم مني خلاف ما تقول، وكان يقول: «اللهم من ضاق بنا صدره فإن قلوبنا قد اتسعت»، ومن رعايته لحق الجوار أنه كان له جار إسكافي[٢] بالكوفة كان يشرب بالحانة ثم يرجع بالليل يتغنى بقول الشاعر:

أَضَاعُوني وأيُّ فَتًى أضاعوا ... ليوم كريهةٍ وسَدادِ ثَغْرِ
كأني لَمْ أكُنْ فِيهم وَسِيطًا ... ولم يَكُ نِسْبَتي في آل عمروِ
أحرر في المجامعِ كُلَّ يوم ... فيا للَّه مَظْلَمَتي وصبري

فتفقده ليلة أو ليلتين فسأل عنه فقيل أخذه العسس فلما صلى أبو حنيفة الصبح أمر بشد بغلته وركب حتى دار الوالي، فأخبر به فأمر بدخوله راكبًا إلى مكان جلوسه فلما دخل عليه تلقاه، وقال: أنا كنت أحق بالمجيء إليك، فهلا أرسلت إليّ فأتيتك؟! فقال: إن جارًا لي أخذه العسس منذ ليال فأمر الأمير بإطلاقه، فقال: نعم وكل من مُسِكَ تلك الليلة إلى هذا الحين فأمر الأمير بإطلاقهم فركب أبو حنيفة راجعًا والإسكافي يمشي

---

(١) قال الذهبي: «وقد روي من وجهين أن أبا حنيفة قرأ القرآن كله في ركعة، ونحو هذا الخبر نقل عن أبي يوسف، وقال أبو عاصم النبيل: كان أبو حنيفة يُسمى الوتد لكثرة صلاته، ونقل الذهبي أيضًا عن أسد بن عمرو أن أبا حنيفة رحمه اللَّه صلى العشاء والصبح بوضوء أربعين سنة، وقال يحيى بن عبد الحميد الحماني عن أبيه أنه صحب أبا حنيفة ستة أشهر، قال: فما رأيته صلى الغداة إلا بوضوء عشاء الآخرة، وكان يختم كل ليلة عند السحر.

وقال الذهبي أيضًا: ويروى أن أبا حنيفة ختم القرآن سبعة آلاف مرة، قال مسعر بن كدام: رأيت أبا حنيفة قرأ القرآن في ركعة، ونقل الذهبي عن محمد بن الحسن عن القاسم بن معن، أن أبا حنيفة قام ليلة يردد قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦] ويبكي ويتضرع إلى الفجر». اهـ. «سير أعلام النبلاء». [الناشر]

(٢) في القاموس - الإسكاف بالكسر والأسكوف بالضم والمسكاف والسيكف كصيقل: الخفاف.

وراءه فقال: هل أضعناك؟ فقال: لا، بل حفظت ورعيت فجزاك اللَّه خيرًا عن حرمة الجوار ورعاية الحق، وتاب الرجل ولم يعد إلى ما كان عليه ولازم مجلس الإمام وصار من الفقهاء.

وكان من نُبْلِهِ وعُلو نفسه أنه كان يرد جوائز السلطان، أجازه أبوجعفر المنصور بثلاثة آلاف درهم فتمايل في ردها، فقال يا أمير المؤمنين أنا ببغداد غريب وليس لها عندي موضع فاجعلها في بيت مال المسلمين فأجابه المنصور إلى ذلك.

وكذا ترفع عن مجالسهم، قال أبو جعفر: لم لا تغشانا يا أبا حنيفة؟ فقال هذه المقولة الحكيمة: «لأنك إذا قربتني فتنتني وإذا أقصيتنى أحزنتني وليس عندي ما أخافك عليه وإنما يغشاك من يخشاك وكان كثيرًا ما يتمثل بقول القائل:

عطاء ذي العرش خير من عطائكمُ وسيبه واسعٌ يرجى وينتظرُ
يكدر ما تعطون منكمُ واللَّهُ يُعطي بلا مَنٍّ ولاكدرِ

ومن عرفانه للجميل لأستاذه أنه قال: ما صليت صلاة منذ مات حماد بن أبي سلمة يعنى شيخه إلا استغفرت له مع والدي وإني لأستغفر لمن تعلمت منه وتعلم مني».

فلله أنت يا أبا حنيفة ترفعت عن الدنايا فكنت ملكًا لا كالملوك تاجك القناعة والرضا والمروءة والكرم وترفعت عن الدنيا فحللت منها منزلة حسدك عليها الملوك والأمراء.

فهلا يكون لكم – أيها النشء ويا رجال المستقبل – قدوة حسنة في هذا الإمام الكبير والتخلق بآدابه ذلك ما نرجوا.

نشاته وطلبه العلم:

لم يعرف عن الإمام أبي حنيفة في مبدأ أمره إلا أنه كان يختلف إلى السوق فقد كان يحترف التجارة من صغره، وفي غدوة من غدواته مر على الإمام الشعبي وهو جالس، فدعاه، فقال له إلى من تختلف؟ فقال الإمام: أختلف إلى فلان، فقال الشعبي: لم أعن السوق، عنيت الاختلاف إلى العلماء، فقال له الإمام: أنا قليل الاختلاف إليهم فقال له الشعبي: لا تفعل وعليك النظر في العلم ومجالسة العلماء فإني أرى فيك يقظة وفطنة، قال الإمام: فوقع في قلبي من قوله فتركت الاختلاف إلى السوق وأخذت في العلم

فنفعني اللّٰه به، وقد اشتغل الإمام في مبدأ طلبه العلم بالجدل والكلام والرد على الخوارج وغيرهم من المبتدعة ثم خطر له خاطر فقال: « إن المتقدمين من أصحاب رسول اللّٰه والتابعين لم يكن فيهم شيء مما نذكره نحن وكانوا عليه أقدر وبه أعرف وأعلم بحقائق الأمور ولم يروا منازعين ولا مجادلين ورأيت خوضهم في الشرائع وأبواب الفقه »[(١)].

وبينما هو في هذا الأمر وكان يجلس بالقرب من حلقة حماد بن أبي سليمان إذ جاءته امرأة فقالت له: « رجل له امرأة أراد أن يطلقها للسنة كيف يصنع؟ » قال الإمام: فلم أدر ما أقول وسقط في يدي، فأمرتها أن تسأل حمادًا ثم ترجع إليّ فتخبرني، فسألت حمادًا فأجابها ثم رجعت فأخبرته فقال لا حاجة له في الكلام[(٢)] فأخذت نعلي وكنت أجلس إلى حماد وأسمع مسائله وأحفظ قوله حتى قال: « لا يجلس أحد في صدر الحلقة بحذائي غير أبي حنيفة » فصحبته عشر سنين فنازعتني نفسي الطلب للرياسة فأحببت أن أعتزله وأجلس في حلقة فخرجت ليلة وعزمي أن أفعل فلما دخلت المسجد ورأيته لم تطب نفسي أن أعتزله فجلست معه ولأمر ما تخلف حماد عن الدرس فأمر أبا حنيفة أن يجلس مكانه فوردت عليه مسائل فكان يجيب عنها ويكتب الجواب، وبعد شهرين قدم أستاذه فعرض المسائل التي أفتى فيها فوافقه في أربعين مسألة وخالفه في عشرين. فآلى الإمام على نفسه أن لا يفارق شيخه حتى يموت فلم يفارقه حتى مات، بعد أن أخذ كل ما كان عنده من علم حتى روي أن حمادًا قال لأبي حنيفة: «لقد أنزفتني أي: أخذت جميع ما عندي من علم»، ولما مات شيخه حماد فكروا فيمن يقوم مقامه فأجلسوا كثيرًا من أهل العلم فلم يجدوا عندهم كبير غناء - نفع - ثم أجلسوا الإمام أبا حنيفة فوجدوا عنده ما لم يجدوه عند غيره ووجدوا عنده في كل المعارف نفاذًا وعلمًا غزيرًا فلزموه وتركوا غيره، وعظم شأنه حتى صارت حلقته أعظم حلقة في المسجد وتخرج به أقوام صاروا أئمة في العلم ومما حبب إليه الإفتاء والتدريس، رؤيا رؤيت له؛ رأى كأنه نبش قبر رسول اللّٰه ﷺ وجمع عظامه فوضعها على صدره فَسَئَلَ عن هذه الرؤيا ابن سيرين - المشهور بتعبير الرؤيا - فقال: إن صاحب هذه الرؤيا يفتح للناس من سنن رسول اللّٰه ﷺ وتأويلها ما لم يسبقه إليه أحد وقيل: إنه هو الذي رأى هذه الرؤيا فأدركه غم فلما عبرها له ابن سيرين

(١) عقود الجمان في مناقب الإمام، مخطوط بمكتبة الحرم المكي الشريف.
(٢) سبق تعليق الذهبي على ذلك (ص١١٠) [الناشر] .

انشرحت نفسه وأتى بالعجب العجاب.

« منحاه في الاجتهاد »:

روي عن الإمام أنه قال: « آخذ بكتاب اللَّه فإن لم أجد في كتاب اللَّه فبسنة رسوله ﷺ، فإن لم أجد في سنة رسول اللَّه أخذت بقول أصحابه من شئت وأدع من شئت ولا أخرج عن قولهم إلى قول غيرهم فأما إذا انتهى الأمر إلى إبراهيم والشعبي وابن سيرين والحسن وعطاء أي التابعين فقوم اجتهدوا فأجتهد كما اجتهدوا ».

وروي عنه أيضًا: أنه قال: « إذا جاء الحديث عن رسول اللَّه ﷺ فعلى الرأس والعين وإذا جاء عن الصحابة اخترنا ولم نخرج عن رأيهم وإذا جاء عن التابعين زاحمناهم ».

وهو منهج لاغبار عليه ولكن الحاسدين كذبوا عليه وألصقوا به التهم، وهذا هو الإمام يدافع عن نفسه فيقول: « عجبًا للناس يقولون: أفتي بالرأي وما أُفتي إلا بالأثر » وقال - لما سُئِلَ عن الكلام في الأعراض والأجسام: هذه مقالات الفلاسفة عليك بالأثر وطريقة السلف وإياك وكل محدثة فإنها بدعة.

فهل بعد هذه المقالات البينة يدعي مدع أن الإمام كان لا يأخذ بالأحاديث، نعم إذا لم يجد في كتاب ولا سنة ولا كلام صحابي ولا إجماع قاس واجتهد وأعمل رأيه، وهذا ليس يعاب عليه، وقد جاء في الحديث المشهور أن رسول اللَّه ﷺ قال لمعاذ بن جبل حين وجهه إلى اليمن: «بم تقضي؟» قال: بما في كتاب الله، قال: «فإن لم تجد؟» قال: بما في سنة رسول اللَّه ﷺ، قال: «فإن لم تجد؟» قال: أجتهد برأيي. وقد شاع على ألسنة العامة أن الإمام أبا حنيفة لا يأخذ بكثير من الأحاديث والواقع خلاف ذلك.

قال الإمام أبو محمد بن حزم: « جميع أصحاب أبي حنيفة يجمعون على أن مذهب أبي حنيفة؛ أن ضعيف الحديث أولى عنده من القياس والرأي »، فهو لا يقيس إلا إذا انسدت عليه مسالك الاستدلال بالمنقول الثابت على أن المجتهد لا يلزم أن يبلغه كل حديث، ولو بلغه فليس بلازم أن يكون صحيحًا عنده. ولو صح عنده فليس بلازم أن يأخذ به لأنه قد يكون - ولو في نظره هو - منسوخًا أو مخصوصًا أو مقيدًا أو غير ذلك مما يعرفه أهل الاصول ومن هنا كان اختلاف الأئمة في الفروع مع أنهم جميعًا كانوا ينشدون الحق لا يبغون عنه بديلًا.

وقد نقل عن الأئمة الأربعة أنهم قالوا: « إذا صح الحديث فهو مذهبي واضربوا بقولي عرض الحائط».

« عنايته بالحديث والرد على من رماه بقلة بضاعته فيه » :

كان الإمام أبو حنيفة شديد الفحص عن الناسخ والمنسوخ قوي المعرفة بحديث أهل الكوفة - ابن مسعود وعلي - رضي اللَّه عنهما - وغيرهما من الصحابة شديد الاتباع لما كان الناس عليه - أي الصحابة - وكان بصيرًا بنقد الأحاديث ومعرفة صحيحها من سقيمها. قال أبو يوسف تلميذ الإمام - وهو من أهل الحديث - « ما رأيت أعلم بتفسير الحديث من أبي حنيفة» وقال أيضًا: «كان أبو حنيفة أبصر بالحديث مني » وكان رحمه اللَّه بصيرًا بعلل الحديث والتعديل والتخريج مقبول القول في ذلك روى أبو عيسى الترمذي في كتاب العلل من جامعه عن الحماني قال: سمعت أبا حنيفة يقول: « ما رأيت أكذب من جابر الجُعْفِيُ ولا أفضل من عطاء بن أبي رباح ». وقد أخذ الحديث عن جهابذته وشيوخه كسفيان الثوري وشعبة بن الحجاج والأعمش وغيرهم. وقد شهد له سفيان الثورى أحفظ الناس للحديث فقال: هو أفقه أهل الأرض[1]. وروى الخطيب البغدادي في تاريخه عن سفيان بن عيينة قال: «أول من أقعدني للحديث أبو حنيفة، قدمت الكوفة فقال أبو حنيفة: هذا أعلم الناس بحديث عمرو بن دينار، فاجتمعوا عليّ فحدثتهم ». وناهيك برجل يزكيه سفيان بن عيينة في الحديث.

وقد شهد له نقاد الحديث وأئمته، روى الخطيب عن يحيى بن معين قال: سمعت يحيى بن سعيد القطان يقول: لا نكذب اللَّه تعالى، ما سمعنا أحسن من رأي أبي حنيفة وكان يحيى بن سعيد يذهب في الفتوى مذهب الكوفيين ويختار قول أبي حنيفة من أقوالهم، وسئل يحيى بن معين إمام أهل الجرح والتعديل هل حدث سفيان عن أبي حنيفة؟ قال: نعم « كان أبو حنيفة ثقة صدوقًا في الفقه والحديث مأمونًا على دين الله » فلو أنهم علموا منه انحرافًا عن الحديث فكيف يشهدون له هذه الشهادات وهم الذين لا تأخذهم في الحق لومة لائم، وقال الإمام الحافظ الناقد البصير أبو عبد اللَّه الذهبي في كتاب «طبقات

(١) نقل الذهبي في «سير أعلام النبلاء» أن ابن المبارك سُئِل: مالك أفقه، أو أبو حنيفة؟ قال: أبو حنيفة، وقال الخريبي: ما يقع في أبي حنيفة إلا حاسد أو جاهل. [الناشر].

الحفاظ»: «ولولا كثرة اعتنائه بالحديث ما تهيأ له استنباط مسائل الفقه فإنه أول من استنبطه من الأدلة وعدم ظهوره في الخارج لايدل على عدم اعتنائه بالحديث كما زعمه بعض من يحسده. وليس كما زعم» وإنما قلت الرواية عند الإمام وإن كان متسع الحفظ لأمرين: أحدهما: اشتغاله عن الرواية باستنباط المسائل من الأدلة كما كان أجلاء الصحابة كأبي بكر وعمر وغيرهما يشتغلون بالعمل عن الرواية حتى قلت روايتهم بالنسبة لكثرة حديثهم وكثرة رواية من دونهم بالنسبة إليهم وهذان الإمامان مالك والشافعي لم يرويا إلا القليل بالنسبة لما سمعاه وذلك لاشتغالهم باستخراج المسائل.

الثاني: أن الإمام أبا حنيفة كان من المتشددين في الرواية وتصحيح الأحاديث. روي عن أبي يوسف أنه قال: «كان أبوحنيفة لا يرى أن يروي من الحديث إلا ما حفظه عن الذي سمعه منه»[(١)].

وروى الطحاوي عن أبي يوسف قال: قال أبوحنيفة: «لا ينبغي للرجل أن يحدث من الحديث إلا بما حفظه يوم سمعه إلى يوم يحدث به». وروى يحيى بن نصر قال: سمعت أبا حنيفة يقول: عندي صناديق من الحديث ما أخرجت منها إلا اليسير الذي ينتفع به وعلى الجملة فقد اضطره هذا التشدد إلى التقليل من الرواية والتوسع في القياس والاستحسان فما لم يكن فيه كتاب ولا أثر صحيح فليس أمام المجتهد فيه إلا القياس.

مسانيد الإمام أبي حنيفة :

وقد روى الإمام أبو حنيفة رحمه اللَّه سبعة عشر مسندا[(١)] «والمسند في لسان أهل الحديث هو الكتاب الذي جمعت فيه أحاديث كل صحابي على حدة» وقد رواها عنه الثقات من الحفاظ والعلماء مما يدل على اطلاعه وحفظه لكثير من الأحاديث ، وها هي المسانيد ورواتها:

المسند الأول: تخريج الحافظ أبي محمد عبد اللَّه بن محمد يعقوب الحارثي رحمه الله تعالى.

المسند الثاني: تخريج الحافظ أبي القاسم طلحة بن محمد بن جعفر الشاهد رحمه الله.

---

(١) «الانتقاء» لابن عبد البر ص١٣٩ .

(١) وقد طبع من هذه المسانيد بالهند خمسة عشر مسندًا وهي ما تعرف بمسند الخوارزمي؛ فقد جمع المسانيد الخمسة عشر ورتبها على الأبواب الفقهية.

المسند الثالث: تخريج الحافظ أبي الحسن محمد بن المظفر بن موسى بن عيسى رحمه اللّٰه تعالى.

المسند الرابع: تخريج الحافظ أبي نعيم أحمد بن أحمد الأصفهاني الشافعي رحمه الله تعالى.

المسند الخامس: تخريج الحافظ القاضي أبي بكر محمد عبد الباقي الأنصاري رحمه اللّٰه تعالى.

المسند السادس: تخريج الحافظ أبي أحمد عبد اللّٰه بن عدي الجرجاني الشافعي رحمه اللّٰه تعالى.

المسند السابع: تخريج الحافظ أبي محمد بن إبراهيم بن حبيش من سماعات الحسن بن زياد اللؤلؤي صاحب أبي حنيفة عنه رحمه اللّٰه تعالى.

المسند الثامن: تخريج الحافظ القاضي أبي الحسن عمر بن الحسن الأشناني رحمه الله تعالى.

المسند التاسع: تخريج أبي بكر أحمد بن محمد بن خالد بن الكلاعي بفتح الكاف رحمه اللّٰه تعالى.

المسند العاشر: تخريج الحافظ أبي عبد اللّٰه الحسين بن محمد بن خسرو البلخي رحمه اللّٰه تعالى.

المسند الحادي عشر: تخريج بعض المحدثين من حديث أبي يوسف عن أبي حنيفة رحمه اللّٰه تعالى.

المسند الثاني عشر: تخريج بعض المحدثين من حديث الإمام محمد بن الحسن تلميذ الإمام رحمه اللّٰه تعالى.

المسند الثالث عشر: تخريج بعض المحدثين من حديث الإمام حماد بن الإمام عن أبيه رحمه اللّٰه تعالى.

المسند الرابع عشر: تخريج الإمام محمد بن الحسن وتسمى الآثار.

المسند الخامس عشر: تخريج القاضي أبي القاسم عبد اللّٰه بن محمد بن أبي العوام وهو باب كبير من كتاب المناقب.

المسند السادس عشر: تخريج الحافظ أبي بكر بن المقرئ.

المسند السابع عشر: تخريج الحافظ أبي علي البكري وهو آخر من خرج.

وقد أخطأ بعض من ظن أن المراد من المسند الحديث الواحد لا الكتاب المخرج على أسماء الصحابة فقال: إن الإمام لم يصح عنده إلا سبعة عشر حديثا وهو كلام لا يقبل وقد نقل هذا القول وفنده فيلسوف العرب الاجتماعي عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته التي وضع أصول علم الاجتماع. قال رحمه الله: «واعلم أيضًا أن الأئمة المجتهدين تفاوتوا في الآثار من هذه الصناعة والإقلال، فأبو حنيفة رحمه اللّه يقال: بلغت روايته سبعة عشر حديثا أو نحوها، ثم قال: وقد تقول بعض المتعصبين المتعسفين إلى أن منهم من كان قليل الصناعة في الحديث فهذا قلت روايته ولا سبيل إلى هذا المعتقد في كبار الأئمة لأن الشريعة إنما تؤخذ من الكتاب والسنة ومن كان قليل البضاعة من الحديث يتعين عليه طلبه وروايته والجد والتشمير في ذلك ليأخذ الدين عن أصول صحيحة، ثم قال والإمام أبو حنيفة إنما قلت روايته لما شدد في شروط الرواة والتحمل وضعف روايته الحديث إذا عارضه الفعل النفسي وقَلَّتْ من أجلها روايته فقل حديثه، لا أنه ترك رواية الحديث متعمدًا فحاشاه من ذلك ويدل على أنه من كبار المجتهدين في علم الحديث اعتماد مذهبه بينهم والتعويل عليه واعتباره ردًّا مقبولًا ... إلخ[1].

وقد رُزق الإمام أبو حنيفة موهبة خاصة في فهم الأحاديث واستخراج الأحكام منها والجمع بينهما في مهارة ودقة فائقتين سئل الاعمش - وهو من كبار المحدثين - عن مسائل فقال لأبي حنيفة ما تقول؟ قال: كذا وكذا، فقال الأعمش: من أين لك هذا؟ فقال الإمام أنت حدثتنا عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي اللّه عنه عن رسول اللّه ﷺ بكذا وحدثتنا عن فلان الصحابي عن رسول اللّه بكذا وسرد عليه عدة أحاديث على هذا النمط فقال الأعمش: حسبك ما حدثت به في ساعة واحدة ما علمت بأنك تعمل بهذه الأحاديث. يا معشر الفقهاء: أنتم الاطباء ونحن الصيادلة، وأنت أيها الرجل أخذت بكلا الطرفين. والخلاصة أن الإمام لم يكن قليل البضاعة في الحديث وبحسبنا هذه القصة الآنفة. دلالة على حفظه وفقهه. وأن رميه بقلة الحفظ فرية ما في ذلك مرية.

---

(١) «المقدمة»، مبحث علوم الحديث.

« ثناء الأئمة عليه » :

روى الخطيب عن الإمام الشافعي قال: قيل للإمام مالك بن أنس هل رأيت أبا حنيفة قال: نعم رأيت رجلًا لو كلمك في هذه السارية أن يجعلها ذهبًا لقام بحجته، وروي عن الإمام الشافعي قال: « الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة » وعن ابن المبارك قال: « كان أبو حنيفة أفقه الناس ما رأيت أفقه منه » إلى غير ذلك مما قدمناه من شهادة أئمة الحديث ومع كل هذه الشهادات التي هي كالشمس فقد شنأه الحاسدون وصدق الشاعر حيث يقول:

أن العرانينَ تلقاها محسدة ولن ترى للئامِ الناسِ حُسَّادا

« ذكاؤه الخارق وأجوبته المسكتة » :

كان الإمام أبو حنيفة ذكيًا حاد الذهن بعيد الغور، قوي المعاوضة سريع البديهة تسأله السؤال فلا تدري أتعجب من سرعة بديهته أم تعجب من دقة جوابه. وكان يصل إلى إفحام خصمه من أيسر الطرق وأقربها وله في ذلك غرائب وعجائب ذكر الكثير منها في كتب التاريخ والمناقب. وسأكتفي بذكر بعض الأمثلة التي تدل على مرونته العقلية الفائقة من ذلك أن جماعة من اللصوص دخلوا على رجل فأخذوا متاعه واستحلفوه بالطلاق ثلاثا أن لايعلم أحدًا فأصبح الرجل وهو يرى اللصوص يبيعون متاعه ولم يقدر أن يتكلم من أجل يمينه، فجاء الرجل ليشاور أبا حنيفة فقال له أبو حنيفة: أحضر لي إمام حيك والمؤذن والمستورين منهم فأحضرهم فقال لهم أبو حنيفة: هل تحبون أن يرد اللّٰه على هذا متاعه؟ قالوا: نعم، قال: فاجمعوا كل داعر وكل متهم، فأدخلوهم في دارٍ أو مسجد ثم أخرجوهم واحدًا واحدًا، ثم قولوا له: هذا لصك؟ فإن كان ليس بلصه، قال: لا، وإن كان لصه؛ فيسكت، فإذا سكت فاقبضوا عليه، ففعلوا ما أمرهم به أبو حنيفة، فرد اللّٰه عليه جميع ما سرق منه.

ومن ذلك أنه كان رجل بالكوفة يقول: كان عثمان بن عفان يهوديًا وقد عجز العلماء عن إرجاعه عن مقالته فأتاه أبو حنيفة فقال: أتيتك خاطبا، قال: لمن؟ قال: لابنتك، رجل شريف غني بالمال حافظ لكتاب اللّٰه سخي يقوم الليل في ركوع، كثير البكاء من خوف اللّٰه تعالى، فقال الرجل: في دون هذا مقنع يا أبا حنيفة، فقال الإمام: إلا أن فيه خصلة، قال: ما هي؟ قال: يهودي، قال الرجل: سبحان اللّٰه تأمرني أن أزوج ابنتي من

يهودي؟! قال: لا. فقال له الإمام: فالنبي ﷺ زوج ابنته من يهودي؟! يقصد الإمام أبو حنيفة أن يوبخه على مقالته أن عثمان يهودي، فقال الرجل: استغفر الله، إني تائب إلى اللّه عز وجل ورجع عن مقالته الخبيثة فانظروا كيف أرجعه الإمام عن مقالته وقد عجز عن ذلك الناس، ومن ذلك أن الإمام أبا حنيفة سُئِلَ عن رجل له امرأة فصعدت على سلم لتصعد إلى موضع فقال لها زوجها: أنت طالق ثلاثًا إن صعدت، وأنت طالق ثلاثًا إن نزلت، ما الحيلة في ذلك؟ فقال الإمام: لا تصعد المرأة ولا تنزل بل تقف عند مكانها في السلم ويحتال جماعة فيحملون السلم وعليه المرأة فيضعونها على الأرض فلا يحنث الرجل لأنها لم تصعد ولم تنزل.

ومن ذلك أن جارًا لأبي حنيفة كان له طاووس فَسُرِقَ فجاء صاحبه إلى الإمام فقال له: سُرِقَ طاووسي، ماذا أفعل؟ فلما غدا الإمام إلى المسجد قال أما يستحي من يسرق طاووس جاره ثم يجيء يصلي وأثر الريش على رأسه، فمسح الرجل الذي سرق الطاووس رأسه، فقال أبو حنيفة: يا هذا رد عليه طاووسه فرده عليه.

وهنا أقف بكم عند هذه القصة الأخيرة. التي تنم عن بعد نظر الإمام ومعرفته بالنفس البشرية وانفعالاتها وغرائزها وهى خصيصة لازمة لكل قاض يريد أن يصل إلى الحق. وقد سبق الإمام أبو حنيفة رجال العصر الحديث الذين يحاولون التوصل إلى الجاني عن طريق الانفعالات النفسية وقد أسسوا لذلك مدارس، وتعرف بمدارس علم النفس الجنائي والمجرم مهما حاول إخفاء الجريمة فلابد من أن تظهر عليه انفعالات عند ذكر الجريمة أو ما يتصل بها إما بتغير الوجه أو التلعثم في الكلام والتلكوء فيه أو بحدوث حركة من الشخص الجاني من غير وعي منه – كما في سارق الطاووس هذا فما أن سمع لفظ سرقة الطاووس وأن الريش على رأسه. حتى رفع يده بطريقة غير اختيارية ليزيل ما توهمه. وبذلك توصل الإمام إلى معرفة السارق. وبالفعل رد السارق الطاووس إلى صاحبه.

ألا يحق لنا – أيها المستمعون الكرام – أن نفخر بعلمائنا الأوائل وتوصلهم إلى كثير من النظريات التي يظن من لم يحظ بقسط وافر من الثقافة أنها من مبتكرات الغرب. والحق خلاف ذلك فالغرب مدين للشرق بالنهضة ولاسيما مدنية الإسلام والعرب.

امتناع الإمام من تولي القضاء وبيت المال وبيان سمو نظره في ذلك :

قد أريد الإمام على تولي القضاء مرتين، أولاهما أبان ملك الأُمَويين فقد أرسل إليه يزيد بن عمر بن هبيرة - عامل مروان بن محمد آخر بني أمية على العراق - أن يتولى القضاء فأبى وفي رواية أنه طلب منه أن يكون على بيت المال فلا ينفذ شيء من أمور المسلمين بدون أمره فأبى مرارًا فضربه بالسوط وحبسه ونكل به ولما اشتد به الأمر قال: دعوني أستشير. فخلوا عنه ففر هاربًا إلى مكة وكان ذلك عام ١٣٠هـ ومكث بها إلى أن صار الملك إلى بني العباس. فقدم أبو حنيفة الكوفة في زمن أبي جعفر فأكرمه وأجله وأمر له بعشرة الآف درهم وجارية فأبى الإمام أن يقبل ذلك.

والأخرى في العهد العباسي ذلك أن أبا جعفر المنصور طلب أبا حنيفة من الكوفة إلى بغداد وطلب منه أن يلي القضاء وأن يكون قضاة الإسلام كلهم من تحت يده فأبى وتعلل بعلل فعزم عليه أبو جعفر أن يفعل فأبى ولما أصر على الامتناع أمر بضربه كل يوم أسواطًا فمات بالسجن بعد أن أمضى به خمسة عشر يومًا شهيد الورع والتقوى والعفاف.

وقيل: إن أبا جعفر دس إليه السم فمات بسببه. وبعض المؤرخين يرى أن أبا جعفر صنع ذلك بالإمام أبي حنيفة لميله إلى العلويين وأنه تستر في أمره بتولي القضاء لعلمه أنه لايقبل ذلك فيتوصل إلى إهلاكه وذلك أن إبراهيم بن عبد اللّٰه بن الحسن بن علي بن أبي طالب لما خرج على أبي جعفر المنصور خاف منه خوفًا شديدًا ولم يقر له قرار فدس بعض أعداء الإمام إلى أبي جعفر أن الإمام مساعد لإبراهيم العلوي وأنه أمده بمال كثير فخشي أبو جعفر من ميله لإبراهيم فأحضره من الكوفه إلى بغداد ولم يجرأ على قتله بلا سبب فطلب منه أن يلي القضاء فأبى فحبسه وأمر بضربه حتى مات في سجنه وكان ذلك في عام ١٥٠هـ ولعل قائلًا يقول: ولما ذا لم يقبل الإمام تولي رئاسة القضاء - وهو غاية ما تصبوا إليه نفس كل عالم - ولا يزال هذا المنصب تتطاول إليه أعناق العلماء في كل عصر وحين؟! والجواب أن الإمام كان على حق فيما فعل ومثل الإمام ما كان لتنال منه زخارف الحياة ومناصبها وما كان ليعرض دينه للخطر فقد كان أغلب الملوك والأمراء منحرفين عن الجادة ويحبون أن يكون القضاة تبع أهوائهم وأغراضهم في الفتيا والقضاء ومثل الإمام أبي حنيفة لايخاف في الحق لومة لائم ولا يزحزحه عن الحق أن يكون

السيف مصلتًا على عنقه وموقف القاضي في مثل هذه الظروف من أحرج ما يكون فهو إن أرضى اللَّه فقد أغضب السلطان، وإن أرضى السلطان فقد أغضب الله، هذا إلى ما عُرف عن الإمام من الورع النادر والزهد في الدنيا، وقد روي أنه قال للمنصور: «لو هددتني أن تقذفني في الفرات وإلى اليم لاخترت أن أغرق فَلَكَ حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك فلا أصلح لذلك» وقد كان عند بعض علماء هذا العصر نزعة ترى أن في تولي الوظائف السلطانية تعريض الدين للخطر حتى أن كثيرًا من المحدثين ليردون حديث من تقرب إلى السلطان، وإن كثيرًا عابوا أبا يوسف من أجل توليهِ القضاء، قال محمد بن جرير الطبري: أنه قد تحاشا حديث أبي يوسف قوم من أهل الحديث من أجل غلبة الرأي عليه وتفريعه الفروع والأحكام مع صحبة السلطان وتقلده القضاء، ولعلك بعد هذا تذهب معي إلى أن أبا حنيفة رحمه اللَّه كان على حق فيما فعل. فلله دره ما أورعه وأتقاه.

« ما اختُلقَ على الإمام أبي حنيفة »:

كان الإمام أبو حنيفة شغوفا بقراءة القرآن وتدبره وتفهم معناه وقد أخذ القراءة عن عاصم بن أبي النجود – أحد القراء السبعة – وقد روي أنه كان يقرأ القرآن في ليلة بل قيل في ركعة، وقد نسب إلى الإمام أبي حنيفة قراءات عُدت من قبيل الشاذ وهى مُخْتَلَقَة عليه، قال جمع من حفاظ الحديث ونقاده: «القراءات التي جمعها أبو الفضل محمد بن جعفر الخزاعي. ونقلها عنه أبو القاسم الهذلي في كامله ونسبها إلى الإمام أبي حنيفة مختلقة موضوعة» ومن هذه القراءات الشاذة قراءة «إنما يخشى اللهُ من عباده العلماءَ» برفع لفظ الجلالة ونصب العلماء، وقد اغتر بها بعض المفسرين كالزمخشري والنسفي في تفسيرهما وقد تكلفوا في توجيهها والإمام منها برئ.

ومما رُمِي به الإمام زورًا أنه كان مرجئا – والمرجئة فرقة من الفرق المبتدعة تقول أن الإيمان تصديق فقط ولا يضر مع الإيمان معصية فهم يرجئون العمل على الإيمان – قال في شرح المواقف: «كان غسان المرجئ يحكي ماذهب إليه من الإرجاء عن الإمام أبي حنيفة ويعده من المرجئة وهو افتراء عليه فقد قصد غسان ترويج مذهبه بموافقة رجل كبير قال: الآمدي ومع هذا فأصحاب المقالات قد عدوا الإمام أبا حنيفة من مرجئة السُّنَّة، ولعل ذلك أن المعتزلة في الصدر الأول كانوا يلقبون من خالفهم في القدر مرجئًا

أو لأنه لما قال: الإيمان هو التصديق ولايزيد ولاينقص؛ ظُنَّ منه الإرجاء بتأخير العمل عن الإيمان. وليس كذلك إذ عرف منه المبالغة في العمل والاجتهاد فيه » فالإمام قد شغل نفسه طول حياته بتفريع الفروع وبيان الحلال والحرام والجائز وغير الجائز من العبادات والمعاملات فمن المستبعد جدًّا أن يقول: إن الأعمال لا يعبأ بها ولا دخل لها في الإيمان الكامل.

« ما أثر عنه في الحلم » :

من حكمه التي تنبئ عن إشراقٍ في القلب وسموٍ في الروح ورجاحةٍ في العقل.

١ - من طلب الرئاسة قبل وقتها عاش في ذل.

٢ - رأيت المعاصي مذلة فتركتها مروءة فصارت ديانة.

٣ - إن لم يكن العلماء أولياء في الدنيا والآخرة فليس للّه ولي.

٤ - من لم يمنعه العلم من محارم اللّه تعالى ولم يحجزه عن معاصي اللّه عز وجل فهو من الخاسرين

٥ - من تعلم العلم للدنيا حرم بركته ولم يرسخ في قلبه ولم ينتفع به كثيرًا، ومن تعلمه للدين بورك له فيه ورسخ في قلبه وانتفع المقتبسون منه بعلمه. إلى غير ذلك من حكمه العبقريات.

« طريقة الإمام في التربية والتعليم » :

وُهِبَ الإمام أبو حنيفة سعة في العقل وقوة في الحجاج ولباقة في المناظرة، وقد نمى هذه الملكات فيه اشتغاله في فجر حياته العلمية بمناظرة الخوارج وغيرهم من المبتدعة وبالبحث في الكلام، وقد جعلته هذه الملكات مستقلًا في فكره ورأيه لا يقبل الرأي إلا بعد تمحيص وتدقيق وقد جلس إلى شيخه حماد حقبة من الزمان يناقشه ويسأله ويناظره. روي عن الإمام أنه قال: « لَزِمْتُ حمادًا لزومًا ما أعلم أحدًا لزم أحدًا مثل ما لزمته ». وكنت أكثر السؤال فربما يتبرم مني ويقول: يا أبا حنيفة قد انتفخ جنبي وضاق صدري ومع حبه للبحث والاستقصاء والتعمق فقد كان متواضعا لا يفرض في رأيه أنه الحق لامحالة والصواب الذي لا خطأ فيه بل كان يقول: « هذا أحسن ما قدرنا عليه فمن جاءنا بأحسن منه فهو أولى بالصواب منا » فلا عجب ممن كان على هذا الخلق العلمي

الكريم أن لا يجد غضاضة في الرجوع إلى الحق إذا ظهر له، قال صاحبه زفر:

كنا نختلف إلى أبي حنيفة ومعنا أبو يوسف ومحمد بن الحسن فكنا نكتب عنه فقال يومًا لأبي يوسف: «ويحك يعقوب - اسم أبي يوسف - لا تكتب كل ما تسمعه مني فإني قد أرى الرأي اليوم وأتركه غدًا، أو أرى الرأي غدًا وأتركه بعد غد» - تاريخ بغداد - وكان لإخلاصه للحق يرجع عن رأيه إذا ذكر له مناظره حديثًا اقتنع به أو فتوى صحابي كذلك سئل مرة عن أمان العبد. فقال: إن كان لا يقاتل فأمانه باطل فذكر له السائل أن عمر بن الخطاب رضي اللّٰه عنه قال أجيزوا أمان العبد، فسكت أبو حنيفة ثم سئل عن أمان العبد بعد ذلك فأفتى بجوازه ورجع عن قوله الأول.

وكان يفسح لتلاميذه المجال للبحث والمناظرة وقد يتناقشون وتحتدم المناقشة بينهم والإمام وسطهم يدير دفة النقاش بما عهد عنه من الحزم وحسن الحيلة وبعد النظر وقد تكون النتيجة - بعد البحث والمناظرة - الاتفاق على الرأي. وقد يقف كل منهم عند رأيه. وهذا غاية الحرية في البحث. والإسلام قد قرر الحرية المتئدة في البحث قبل أن يعرفها الغرب بآلاف السنين وفي هذا الوقت الذي ضرب فيه العلماء المسلمون بسهم راجح في حرية البحث، كانت أوربا مكبلة العقول مكتوفة الأفواه تعيش في ظلام الأوهام والخرافات، ولم تكن سعة صدر الإمام مع تلاميذه في البحث والمناظرة بمذهبه تقلل شيئًا من هيبته وتكريمه وتبجيله، فمهما خالفوه أو وافقوه فهو هو إمامهم الأكبر وأستاذهم المبجل، وقائدهم المحنك، وقد وصف مجلس أبي حنيفة مع تلاميذه معاصره مِسْعَر بن كِدَام فقال: «كانوا يتفرقون في حوائجهم بعد صلاة الغداة ثم يجتمعون إليه فيجلس لهم فمن سائل ومن مناظر، ويرفعون أصواتهم لكثرة ما بحبح لهم.

إن رجلًا أسكن اللّٰه به هذه الأصوات لعظيم الشأن في الإسلام فطريقته تتلخص في تمحيص الرأي وقتله بحثًا قبل الأخذ به وترك الحرية لتلاميذه في البحث والمناظرة، وعدم التعصب لرأيه، والرجوع إلى الحق إذا ما ظهر له أنه لم يكن حليفه وما أجدر معاهدنا العلمية بالأخذ بهذه المبادئ القويمة حتى تثمر ثمرتها الموجودة، وتؤتي أُكلها كل حين بإذن ربها.

ما خلفه الإمام من الكتب :

ذكر ابن النديم في كتاب «الفهرست»، أن كتب الإمام هى كتاب الفقه الأكبر ورسالته إلى البستي، وكتاب العلم والمتعلم، وكتاب الرد على القدرية، ولكن لم يصل إلينا إلا كتاب الفقه الأكبر وهو رسالة صغيرة لا تجاوز الخمس عشر صحيفة، والكتاب يبحث في العقائد لا في الأحكام الفقهية فهو يبحث في معرفة اللَّه وصفاته، وأفعاله والإسلام والإيمان والأنبياء والرسل وهو على وجازته تأخذ منه العقيدة مصفاة سليمة. ومما يحسن أن يذكر أن الإمام ذهب في رسالته هذه مذهب السلف في صفات اللَّه استمع إليه وهو يقول: «هو - أي اللَّه - شيء لا كالأشياء، ومعنى الشيء: الثابت بلا جسم ولا جوهر ولا عرض ولاحد له ولاضد له ولا ند له ولا مثل له، وله يدان ووجه ونفس كما ذكر اللَّه تعالى في القرآن فما ذكره اللَّه تعالى في القرآن من ذكر الوجه واليد والنفس فهو له صفات بلا كيف، ولا يقال أن يده قدرته أو نعمته لأن فيه إبطال الصفة، وهو قول أهل القدر والاعتزال، ولكن يده صفته بلا كيف»[1].

ويقول بعض العلماء: إن الفقه الأكبر ليس هو ما بين أيدينا إنما هو كتاب في الفقه كبير حوى ستين ألف مسألة ولئن كان فقه الإمام لم يصل إلينا مدونًا في كتاب خاص، فقد وصل إلينا في كتب تلاميذه - أبي يوسف ومحمد بن الحسن وزفر- وأكبر هؤلاء التلامذة أثرًا في تدوين فقه الإمام هو الإمام محمد بن الحسن الشيباني فقد ألف في الفقه ستة كتب جمعت آراء الإمام وهذه الكتب الستة هى: «المبسوط، والزيادات والجامع الصغير، والسير الصغير، والجامع الكبير، والسير الكبير»، وَيُسمي الحنفية هذه الكتب كتب ظاهر الرواية، لأنها رويت عن الإمام محمد برواية الثقات الأثبات وقد جمع الحاكم الشهيد هذه الكتب الستة في كتاب سماه الكافي، وشرحه جماعة منهم السرخسي في كتابه المشهور «المبسوط» وقد وصل إلينا وطبع في ثلاثين جزءًا، كما وصل إلينا كتاب الجامع الصغير لمحمد بن الحسن يذكر في صدر كل باب، محمد عن يعقوب - أبي يوسف - عن أبي حنيفة، ولم يقم أصحاب إمام بمذهب إمامهم مثل ما قام هؤلاء الثلاثة فرحم اللَّه الإمام وتلاميذه رحمة واسعة.

---

(١) الفقه الأكبر ص٦ ط الهند.

وفاته :

توفي الإمام سنة مائة وخمسين من الهجرة النبوية عن سبعين سنة قضاها في البحث والتنقيب والتدريس والتهذيب وقد ذكرنا فيما سبق أنه توفي بالسجن لما امتنع من تولي القضاء أو لميله إلى العلويين، ولما توفي الإمام غسله الحسن بن عمارة قاضي بغداد وصب عليه أبو رجاء عبد اللّٰه بن واقد الهرولي، ولما غسله الحسن قال: « رحمك اللّٰه لم تفطر منذ ثلاثين سنة، ولم تتوسد يمينك بالليل من أربعين سنة، كنت أفقهنا، وأعبدنا، وأزهدنا، وأجمعنا لخصال الخير، وقبرت إذ قربت إلى خير وسعة » ولما بلغ ابن جريج فقيه مكة موته استرجع وقال أي علم ذهب؟! وقال شعبة - وقد أخبر بموت الإمام بعد أن استرجع -: « طُفِئ عن الكوفة نور العلم أما إنهم لا يرون مثله أبدًا » وقد أحصوا من صلى على الإمام فبلغوا خمسين ألفًا أو أكثر، وصُلي عليه ست مرات ولم يقدر على دفنه إلا بعد العصر من كثرة الزحام وقد دفن حسب وصيته بالخيزران بالجانب الشرقي من بغداد ولا يزال قبره بها حتى الآن؛ أنزل اللّٰه عليه سحائب رحمته.

وبعدُ: فلعلك - أيها القارئ الكريم - أن تذهب معي إلى عظمة الإسلام ورجالاته وأن الإسلام صهر جميع العقليات في بوتقته، فصير منها عقولًا إسلامية في تكوينها وفي اتجاهها وأن من رجالات الإسلام من يحق لنا أن نفاخر بهم الدنيا بأسرها وإن لفقهائنا ميزة تجعلهم في الذروة من متفقهي العالم، ذلك أنهم اهتدوا في اجتهادهم بنبراس الكتاب والسنة فجاءت أحكامهم أدق وأحسن ما تكون ومما يُذكر لفقهاء الإسلام بالإعجاب أنهم فكروا في كثير من المسائل الفرضية ووصفوا لها الأحكام قبل وقوعها ومن نظر في كتب الفقه وجدها زاخرة بشتى التفريعات التي تدل على النظر وعلى عموم الشريعة وصلاحها لكل زمان ومكان.

ولعلك بعد ما سمعت تخلص معي إلى هذه النتيجة الموفقة وهي أن الإمام أبا حنيفة فقيه متفنن بكل ما في الكلمة من معانٍ، وأصولي متبحر، وذكي إلى أقصى حدود الذكاء وحلال للمشكلات لا يشق له غبار ومثال حي من أمثلة العقلية غير العربية التي أخلصت للإسلام كل الإخلاص؛ فرفعه الإسلام إلى مكانة تتقاصر دونها الهمم، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

والحمد للّٰه أولًا وآخرًا والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين.

(٢)

الإمام الجليل أحمد بن حنبل(١)

(١٦٤ - ٢٤١هـ)

(1)

تقدمـة :

لا يكاد الإنسان يجد دينًا رفع من شأن العلم وأهله كما فعل الإسلام، ولا يجد دينًا رفع من شأن العقل وحض على استعماله كالإسلام، وقد استفاض القرآن الكريم بكثير من الآيات التي تدعو إلى النظر والتفكر في الكون والآيات التي نصبها اللَّه في الآفاق والأنفس وقد نعى اللَّه على المشركين تقليدهم لآبائهم وعدم استعمال عقولهم قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، فلا عجب إذا كان الإسلام لما نشر لواءه على العالم انتشر معه العلم والمعرفة والبحث والتأمل حتى غدا من ذلك نهضة مباركة في العلوم والمعارف ولا سيما العلوم الشرعية واللغوية، ويكاد يكون الاجتهاد والاستقلال في التفكير سمة العلماء في العصور الأولى الذهبية وبخاصة في استنباط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة، وقد اشتهر بالاجتهاد من هؤلاء العلماء أربعة من الأئمة وهم أصحاب المذاهب الفقهية التي تسود العالم الإسلامي اليوم، ومن هؤلاء الأئمة المتبوعين الإمام الجليل أحمد بن حنبل وإن في سيرة هذا الإمام دروسًا في التربية والتعليم والأخلاق الفاضلة نرجوا أن تكون نبراسًا للناشئة من أبناء المسلمين في حياتهم العلمية والعملية.

نسبه :

هو الإمام أبو عبد اللَّه أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني المروزي

---

(١) مجلة الحج، العدد التاسع، السنة الرابعة، غرة جمادى الأولى، ١٣٧٠هـ، فبراير ١٩٥١م.

(٢) للمزيد من ترجمة إمام أهل السُّنَّة - أحمد بن حنبل - انظر : «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١/ ١٧٧)، وهي ترجمة كبيرة جدًّا، وأيضًا في «تاريخ الإسلام» للذهبي له ترجمة وقد طبعناها في مكتبتنا العامرة - السُّنَّة - مع كتابين عن مسند أحمد، ولابن الجوزي مصنف في جزء باسم «مناقب الإمام أحمد». [الناشر]

ثم البغدادي ينتهي نسبه إلى نزار بن معد بن عدنان فهو عربي صريح النسب وزاده شرفًا اجتماعه مع النبي ﷺ في جده الأعلى - نزار - وأمه السيدة ميمونة بنت عبد الملك الشيباني فهى شيبانية أيضًا وكان عبد الملك هذا من وجوه بني عامر تنزل عليه قبائل العرب فيكرم وفادتهم.

نشأته :

كان أبوه محمد جنديًّا من أبناء الدعوة إلى الإسلام وأصله من البصرة وقد توفي وهو ابن ثلاثين سنة وقد خرجت به أمه من مرو إلى بغداد فولدته بها وقيل إنها ولدته بمرو ثم خرجت به إلى بغداد ومن حسن التوفيق أن ساقت الأقدار أمه إلى بغداد بلد الخلافة والعلم والحضارة في هذا العصر فنشأ بها وترعرع ولقي بها من لا يحصون من أجلة العلماء وكانت ولادته في ربيع الأول سنة ١٦٤هـ .

شيوخه :

وقد طوف الإمام أحمد في الآفاق والتقى بكثير من أئمة العلم والدين ورحل في سبيل الحديث المراحل البعيدة، فرحل إلى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام والجزيرة، وقد حج خمس حجات منها ثلاث راجلًا، وكانت الرحلة في سبيل العلم من سمات علماء هذه العصور الأولى وبذلك كان المسلمون أول من سن هذه السنة الحسنة على ما كان في الارتحال في هذه العصور من مشاق ومتاعب بسبب قلة المال ووعورة المسالك وعسر المواصلات وكان للإمام شيوخ لا يحصون منهم هشيم وسفيان ابن عيينة ويحيى القطان وإسماعيل ابن عُلَيَّة وزياد البكائي وبشر بن المفضل والقاضي أبو يوسف - صاحب الإمام أبي حنيفة - ووكيع وعبد الرزاق والشافعي الإمام، وآخرون لو استقصيناهم لملئت صحف وليس هذا بعجيب من رجل رحالة لا تفتر عزيمته في سبيل مآرب نفسه المتعطشة للمعرفة.

وقد روى عنه الكثيرون منهم البخاري ومسلم وأبو داود - بلا واسطة- والترمذي والنسائي وابن ماجه - بواسطة- وابناه صالح وعبد اللّه ومما يدل على جلالته رواية شيوخه عنه - كعبد الرزاق والشافعي - لكنه قال عنه: الثقة، ولم يسمه وقد روى عنه من أقرانه علي بن المديني ويحيى بن معين إمام أهل الجرح والتعديل ومن تلاميذه محمد بن

يحيى الذهلي، وأبو زرعة - الرازي والدمشقي - وحرب الكرماني وعلماء كثيرون آخرهم أبو القاسم البغوي.

صفته الخِلْقِية والخُلُقِيَّة:

كان الإمام أحمد حسن الوجه أسمر طويلًا، وقيل: كان ربعة يخضب بالحناء وفي لحيته شعرات سود ويلبس ثيابا غليظة إلا أنها بيض ويعتم ويأتزر تعلوه سكينة ووقار وحشمة وهكذا تكون سيما العلماء وسمتهم وقد وصفه أحد معاصريه فقال: ما أعلم أني رأيت أحدًا أنظف ثوبا ولا أشد تعاهدًا لنفسه في شاربه وشعر رأسه وشعر بدنه ولا أنقى ثوبا وشدة بياض من أحمد بن حنبل، ولا عجب فالإسلام نظيف يحب من معتنقيه النظافة وحسن الهيئة.

وأما صفاته الخُلُقِيَّة:

فهي غرر من الفضائل الإنسانية والآداب العالية وإن رجلًا جعل السنة بين عينيه - علمًا وعملًا - واقتفى آثار السلف الصالح لجدير أن يكون بمنزلة من الخلق الكريم والأدب الرفيع والخلال اليتيمة، وغرة هذه الخلال: الزهد، زَهِدَ في الدنيا؛ فأحبه الله، وزَهِدَ فيما عند الناس؛ فأحبه الناس، واتخذوه قدوة يقتدون به وكثيرًا ما كانت تضيق ذات يده بالمال فتأبى عليه نفسه الكبيرة إلا أن يعمل ويكتسب، وقد ذكر إسحاق بن راهويه أنه كان مع الإمام أحمد باليمن عند عبد الرزاق فنفدت نفقته فعرض عليه قرضًا أو صلة فأبى، ثم شرع ينسج التكك للسراويل ويبيعها وينفق، وهكذا ينبغي أن يكون المسلم، واليد العليا خير من اليد السفلى، بل قد بلغت به زهادته أنه إذا أصبح ليس عنده شيء فرح ورضي وتلك شيمة لن تكون إلا من النفوس المؤمنة التي ترى الفقر كالغنى والعسر كاليسر، وأن الصبر على الفقر كالشكر على الغنى فتقابل الفقر بالرضا والاطمئنان، ومن كلمات الإمام في هذا المعنى: الصبر على الفقر مرتبة لا ينالها إلا الأكابر، وقد جاءته الدنيا صاغرة فأباها إذ عرض عليه القضاء فأبى، لأنه كان لا تأخذه في اللَّه لومة لائم ويجهر بالحق ولا يبالي ومثل هذا لا يأمن على نفسه من جور السلطان وفتنة أصحاب الأهواء، فآثر دينه على دنياه ورضي بأن يكون في غمار الناس.

روى البيهقي من طريق المُزني عن الشافعي أنه قال للرشيد: إن اليمن يحتاج إلى

قاضي فقال له: اختر له قاضيا نوله إياها فقال الشافعي لأحمد بن حنبل- وهو يتردد إليه في جملة من يأخذ عنه-: ألا تقبل قضاء اليمن؟ فامتنع من ذلك امتناعًا شديدًا وقال للشافعي: إنما أختلف إليك لأجل العلم المزهد في الدنيا فتأمرني أن أليَ القضاء ولولا العلم لما أكلمك بعد اليوم. وكان من ورعه أنه لا يقبل جوائز السلطان وكيف يقبلها وهي حبائل لصيد القلوب واستمالة النفوس وهو ممن لا يحيد عن الحق قيد شعرة، وكان لا يوالي من يأخذ هذه الجوائز ولو كان أقرب الناس إليه حتى لقد أمر بسد بابه إلى دار ابنه صالح بل امتنع من أكل خُبْزٍ خُبِزَ في تنورٍ لابنه هذا، وإنما فعل ذلك لأنه كان يقبل جوائز السلطان، وفي أيام محنته كانت تقدم له الموائد عليها الأنواع المختلفة فيأبى أن يتناول منها شيئا تعففًا وتورعًا ويكتفي بسفة من سويق تحفظ عليه حياته، وهكذا النفوس الكبيرة تسمو ثم تسمو حتى تصل إلى منزلة من الزهد والورع يظنها بعض من لم يتسع قلبه ضربا من الخيال، وقد وصف أبو داود مجالسه، فقال: كانت مجالس أحمد مجالس الآخرة لا يذكر فيها شيء من أمر الدنيا، ومن خلاله الكريمة: التواضع الجم، يتودد إلى أهل الفقر ويدنيهم منه في مجلسه ويصدف عن أهل الدنيا، ولم يُرَ الفقير في مجلس أعز منه في مجلسه، وكان إذا خرج إلى مسجده لم يتصدر، ويقعد حيث انتهى به المجلس، وكان يبغض الشهرة ويحب أن يكون في غمار الناس لا يلتفت إليه ويتأفف مما ناله من الشهرة.

وقد روي عنه أنه قال: «أريد أن أكون في بعض تلك الشعاب بمكة حتى لا أعرف وقد بليت بالشهرة، إني لأتمنى الموت صباح مساء» وكان يقول: «طوبى لمن أخمل اللَّه عزوجل ذكره».

وتلك خلة لا يحظى بها إلا ذوو النفوس الطاهرة الذين يرون اللذة والشرف في القرب من اللَّه والفوز برضوانه، أما أصحاب النفوس المريضة فهم الذين ينشدون الشهرة في الدنيا الدنية ويستسمنون بما ليس فيهم ويبتغون العزة والجاه من ضعاف الخلق، ومن صفاته التي تدل على طهارة القلب وسمو النفس: حبه للعفو والتسامح؛ فقد جعل كل من آذاه بالضرب أو بالكلام في حل إلا المبتدعة، وكان في ذلك يصدر عن علم وإيمان ويتبع قول اللَّه سبحانه: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢].

وكان يروي عن الحسن في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، إذا جثت الأمم بين يدي رب العالمين نودوا ليقم من أجره على اللّٰه فلا يقوم إلا من عفا في الدنيا وكان يقول: «العفو أفضل، وما ينفعك أن يعذب أخوك المسلم في سبيلك». هذه صورة مصغرة لما كان عليه هذا الإمام الجليل من أخلاق عالية وآداب عالية ترينا مثلًا من أمثلة المسلم الكامل والعالم العامل، وقصارى القول: أن الإمام أحمد كان في الفضائل الإنسانية أمة وحده.



الإمام الجليل أحمد بن حنبل[1]

(2)

فقهه وعلمه وثناء الأئمة عليه :

قد علمت في المقالة السابقة كثرة ارتحال الإمام أحمد في سبيل المعرفة وكيف أفنى شبابه في جمع العلم ورواية الحديث ولقد روي عنه أنه قال: ما تزوجت إلا بعد الأربعين، فلا عجب أن كان غزير العلم قوي الحافظة، حتى قيل إنه كان يحفظ ألف ألف حديث وكان من حجج اللّٰه البالغة في الحفظ والرواية وصدق الحديث والتثبت، وقد جمع إلى الحفظ الفهم والفقه في الحديث شهد له بذلك الأئمة المبرزون في الحفظ الجامعون بين الرواية والفقه، وعلى رأس هؤلاء الإمام الحجة الثبت: محمد بن إدريس الشافعي؛ الذي لازمه مدة ببغداد وعرف جلالته في العلم والفقه وخبر ذلك عن كثب، ولقد قال في شأنه: «خرجت من بغداد وما تركت بها أفقه ولا أزهد ولا أورع ولا أعلم من أحمد بن حنبل». وتلك شهادة لها قيمتها العلمية من مثل الشافعي، وقال المزني قال لي الشافعي: «رأيت ببغداد رجلا إذا قال: حدثنا قال الناس كلهم صدق، قلت: من هو ؟ قال: أحمد بن حنبل». وابن معين إمام أهل الجرح والتعديل يقول: «إن أرادوا أن أكون مثل أحمد والله لا أكون مثله أبدا». وقد وصفه إبراهيم الحربي فقال: «رأيت أحمد كأن اللّٰه جمع له علم الأولين والآخرين». وقد جمع إلى العلم بالكتاب والسنة العلم بالعربية وعلومها وأسرارها وقد روي عنه أنه قال: «كتبت من العربية أكثر مما كتب أبو عمرو بن العلاء». وكان يسأل عن ألفاظ من اللغة تتعلق بالتفسير والأخبار فيجيب عن ذلك بأوضح جواب وأفصح خطاب وقد كان له من رحابة الصدر وحب الاطلاع والرغبة في المعرفة ما حمله على أن كَتَبَ كُتب أهل الرأي وحفظها قال الخلال: كان أحمد قد كتب كتب أهل الرأي وحفظها ثم لم يلتفت إليها، وقد روي عن إسحاق بن راهويه أنه قال: «كنت أجالس بالعراق أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وأصحابنا وكنا نتذاكر الحديث من طريقين وثلاثة فيقول يحيى من بينهم وطريق كذا فأقول: أليس قد صح هذا بإجماع منا فيقولون: نعم، فأقول: ما تفسيره؟ ما فقهه؟

(١) مجلة الحج، العدد العاشر، السنة الرابعة، غرة جمادى الثانية، سنة ١٣٧٠هـ، مارس سنة ١٩٥١م.

فيسكتون كلهم إلا أحمد، وقد فَضَّلَهُ أهل البصر بالعلم على كثير من شيوخه وأقرانه بالفقه والاستنباط- وإن كانوا في درجته في الحفظ والرواية- قال ابن أبي حاتم سألت أبي عن علي بن المديني وأحمد بن حنبل أيهما أحفظ ؟ فقال: كانا في الحفظ متقاربين وكان أحمد أفقه.

وعلى جلالته في العلم كان متثبتا في فتواه فلا يفتي إلا بما انقدح في ذهنه وقامت عليه الحجة الدامغة وكان كثيرًا ما يسأل، فيقول: لا أدري، وتلك حلية العلماء المتثبتين، والإمام مالك سئل عن مسائل فقال: لا أدري، وكذا الإمام أبو حنيفة، وكان يكره الجدل والخلاف والمناظرة مع أهل البدع والكلام، لأنهم ما كانوا ينشدون الحق ومن لاينشد الحق فمن العبث أن تسترسل معه في البحث والمناظرة، وكانوا إذا ألجئوه إلى المناظرة معهم قرع باطلهم بالحق والحجة وفلجهم بالصواب لأنه كان يلجأ في المناظرة إلى حصن حصين من كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ.

وبحسبنا ما ذكرت من الإشادة بعلمه وفقهه وفضله ولا التفات إلى من عد الإمام من المحدثين لا الفقهاء، وقد سمعت مقالة الإمام الشافعي فيه آنفا، وإذا لم يكن ما تركه الإمام أحمد من ثروة ضخمة في آرائه في الفروع فقها فماذا يكون الفقه ؟ وهل الفقيه إلا الرجل الذي يقول في المسائل والأقضية باجتهاده المستند إلى الكتاب والسنة ؟ والحق أن الإمام أحمد محدث وفقيه بكل ما للفقه من معنى.

آراؤه في أصول الدين :

كان الإمام أحمد سلفيا ينهج منهج الصحابة والتابعين في العقائد يقول بما قالوا به ويسكت عما سكتوا عنه، ومن ذا الذي لا يسعه ما وسع الصحابة والتابعين فكان يحمل ما ورد في كتاب اللَّه وسنة رسوله - مما يتعلق بصفات اللَّه - على ما حملوه عليه فيؤمن بها كما وردت من غير تعطيل ولاتشبيه ولا تكييف وهذه الطريقة هي أسلم الطرق وأقربها للصواب، وكان يرى أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص، البر كله من الإيمان والمعاصي تنقص الإيمان، والقرآن كلام اللَّه منه بدأ وإليه يعود وهو غير مخلوق وقد ابتلي بسبب هذا القول أشد البلاء فما حاد عن قوله قيد شعرة، ويمكننا إجمال أقواله في أصول الدين فيما رواه الخلال عن الإمام أنه كان يقول: « أصول السنة عندنا التمسك بما

كان عليه الصحابة، وترك البدع وترك الخصومات والجلوس مع أصحاب الأهواء وترك المراء والجدال وليس في السنة قياس[1] ولا تضرب لها الأمثال ولاتدرك بالعقول، والقرآن كلام اللَّه غير مخلوق وأنه من اللَّه وليس ببائن منه، وإياك ومناظرة من أحدث فيه ومن قال باللفظ وغيره، ومن وقف فيه فقال: لا أدري مخلوق أو ليس بمخلوق فهو صاحب بدعة والإيمان بالرؤية يوم القيامة . . . وأن اللَّه يكلم العباد يوم القيامة ليس بينه وبينهم ترجمان إلخ».

أصوله في الاجتهاد والاستنباط :

كان الإمام أحمد أحد الأئمة المشهورين الذين ضربوا في باب الاجتهاد واستنباط الأحكام بسهم راجح وقد هيأت له معرفته الواسعة بالأحاديث النبوية وما روي عن الصحابة والتابعين سبيل استنباط الأحكام من الأدلة كما كانت هذه المعرفة سببًا لقرب مذهبه من السُّنَّة فهو إذا ثبت عنده الحديث أخذ به ولا ينظر إلى من خالفه كائنًا من كان والأصول التي يعتمد عليها في الاستنباط الكتاب والسنة والإجماع والقياس، ومما يدل على شدة تمسكه بالسنة أنه يأخذ بالحديث المرسل والضعيف إذا لم يجد في الباب شيء يدفعه ويقدمه على القياس وينبغي أن يبين الضعيف الذي يقدمه على القياس، فليس المراد به الباطل أو المنكر أو الذي في رواته متهم بحيث لا يسوغ الذهاب إليه فالعمل به بل المراد به عنده قسم من أقسام الحسن؛ وهو الحسن لغيره ولم يكن يقسم الحديث إلى صحيح وحسن وضعيف كما فعل المتأخرون، بل يقسمه إلى صحيح وضعيف، والضعيف مراتب، ضعيف متروك وضعيف غير متروك، وهو الذي يأخذ به فإن لم يجد أثرًا يدفعه ولا قول صحابي ولا إجماع على خلافه قدمه على القياس[2] وليس هذا بدع من الإمام أحمد فقد عمل بالحديث الضعيف الإمام أبو حنيفة وأصحابه وكذا الإمام مالك يقدم الحديث المرسل والمنقطع والبلاغات وقول الصحابي على القياس.

ومما يدل على شدة ترسمه لآثار السلف الصالح أنه يحل أقوال الصحابة من نفسه

---

(١) لعل معنى ذلك أن السنة إذا ثبتت وجب الأخذ بها ولا يقال: لِمَ؟ ولا كيف؟ بدليل ما بعده، وأن بعض الأحاديث كان يظن البعض أنها من قبيل الغلط وطعنوا فيها، فإذا بالأيام وتقدم المعارف تكشف عما فيها من سر دقيق وإعجاز عجيب.

(٢) إعلام الموقعين لابن قيم الجوزية، جزء ثالث.

منزلة سامية كان إذا وجد لأحدهم فتوى ليس له فيها مخالف أخذ بها ولم يتجاوزها إلى غيرها. وإذا اختلف الصحابة تخير من أقوالهم ما كان أقرب إلى الكتاب والسنة، فإن لم يتبين له ذلك حكى الأقوال في المسألة ولم يجزم فيها بقول، فإن لم يكن عند الإمام أحمد في المسألة نص ولا قول الصحابة أو واحد منهم ولا أثر مرسل أو ضعيف عدل إلى القياس في معرفة الحكم، وكان لا يميل إلى البحث في المسائل قبل وقوعها قال الميموني: سمعت أبا عبد اللّه - يعني أحمد - يُسأل عن مسألة فقال: «وقعت هذه المسالة بليتم بها بعد؟!».

وقد توسع بعض الفقهاء في توليد المسائل قبل وقوعها ما يقع منها في العادة وما لا يقع، واشتغلوا بالبحث عن أجوبتها وتكلفوا في سبيل ذلك كل التكلف، وإن الناظر في بعض كتب الفقه لا يعدم مسائل لا تعدو أن تكون فرضية دعا إليها حُب الظهور بمظهر الذكاء الخارق والنظر العميق، ولم يدون الإمام أحمد مذهبه في كتاب، وإنما أصحابه هم الذين جمعوا مسائله وقاموا بها وساروا على نهج إمامهم وأصوله في البحث والاستنباط حتى غدا من ذلك كله ثروة فقهية ضخمة مبثوثة في عشرات الكتب القيمة من كتب الحنابلة التي طبع بعضها ولا يزال بعضها مطمورًا إلى الآن، ومذهب الإمام أحمد هو أحد المذاهب الأربعة المنتشرة في العالم الإسلامى اليوم وأكثر ما يكون انتشارًا في المملكة العربية السعودية وقد قام جلالة العاهل العربي عبد العزيز آل سعود بطبع كثير من أمهات كتب المذهب على نفقته الخاصة قاصدًا بها وجه اللّه تعالى وخدمة العلم والدين- أثابه اللّه عن العلم وأهله خيرًا- كما احتضن الأزهر الشريف - أقدم جامعة إسلامية - مذهب الإمام أحمد وتولاه بالرعاية، وبالأزهر قسم لدراسة هذا المذهب وأصوله ووقفت الأوقاف على طالبيه ليكون في ذلك تشجيع لهم على الجد وطلب العلم.

وبقية الكلام عن الإمام أحمد تأتي في مقال آخر إن شاء اللّه.



محنة الإمام الجليل أحمد بن حنبل[1]

(3)

إن الناظر في تاريخ البشر يجد حياة الهداة والعظماء لا تخلو من محن وبلاء، وكثيرًا ما تمخضت المحن عن منح وخيرٍ كثير، ولولا هذه المحن لعاش أولو العزم من الناس كما يعيش الأغمار لا يأبه بهم أحد ولا يطلع على سموهم النفس وعظمتهم الخلقية إنسان، فإن من الرجال رجالًا لهم من الفضائل والخصائص ما يعد كنزًا مخفيًّا يسمو بهم عن النظير، فصفاء الفطرة ونقاوة الجوهر والصلابة في الحق وقوة الإيمان والتضحية بكل شيء في سبيل العقيدة كلها من الكنوز الخفية، والمحك الذي يظهر الخصائص ويميز بين المحق والمبطل والمخلص وغير المخلص؛ هي المحن والبلاء وصدق اللّٰه سبحانه في قوله: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١ - ٣].

والبلاء والمحن تأتي على حسب المنزلة والدين ولا يزال الشخص يبتلى حتى يرجع كيوم ولدته أمه طُهرًا وخلوًّا من الذنوب والأوزار وفي الحديث الذي يرويه الإمام أحمد في مسنده أن رسول اللّٰه ﷺ سُئِلَ أي الناس أشد بلاءً؟ فقال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل حسب دينه، فإن كان رقيق الدين ابتلي على حسب ذلك وإن كان صلب الدين ابتلي على حسب ذلك، وما يزال البلاء بالرجل حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة». ومحنة الإمام أحمد وصبره عليها وتحمله كل أنواع الإيذاء والاضطهاد في سبيل عقيدته حلقة من حلقات المحن والبلاء في تاريخ الإسلام، وللمسلمين - في باب التحمل والصبر على الأذى في سبيل الدين - صحائف خطت من النور والخلود، ونحن إذ نذكر محنة الإمام وصبره وتحمله ترجع بنا الذاكرة إلى خير قرون هذه الأمة؛ وهم الصحابة وما لاقوه من اضطهاد وأذى في سبيل عقيدتهم ولاسيما ضعفاؤهم كعمار وبلال وصهيب وأمثالهم الذين تلقوا الإيمان والفضائل ودروس الصبر والكفاح من منقذ البشرية وهادي الأمة والمجاهد الأول سيدنا محمد صلوات اللّٰه وسلامه عليه وعلى درب هؤلاء السادة الإمام أحمد.

---

(١) مجلة الحج، العدد الثاني، سنة ٥ شعبان، ١٣٧٠هـ، مايو ١٩٥١م.

أما قضية المحنة ومتى بدأت؟ وكيف انتهت؟ وماذا جرى فيها؟ فهناك – أيها القارئ الكريم – البيان مع الإيجاز كان الإمام أحمد كغيره من السلف يعتقد أن القرآن كلام اللّٰه غير مخلوق وكانت قد نبتت نابتة تقول خلاف هذا القول وهم المعتزلة، وفي عهد المأمون قويت شوكتهم وأدناهم منه حتى استحوذوا عليه وزينوا له القول بخلق القرآن وكان منهم أن ألجئوه إلى أن يجمع العلماء ليرى رأيهم في ذلك فمن وافق على قولهم؛ نجى من الفتنة، ومن أبى؛ كيل له العذاب كيلًا واتفق أن خرج المأمون إلى طرسوس لغزو الروم فأرسل إلى عامله على بغداد – إسحاق بن إبراهيم – يأمره أن يدعو الناس إلى القول بخلق القرآن – وكان ذلك سنة ثمان عشرة ومائتين – فلما وصل الكتاب إلى عامله استدعى جماعة من أئمة الحديث فدعاهم إلى ذلك فامتنعوا فهددهم بالضرب وقطع الأرزاق فأجاب أكثرهم مُكْرَهِين وامتنع من هذا القول: أحمد بن حنبل، ومحمد بن نوح الجنديسابوري، فَحُمِلا مكبلين بالحديد إلى المأمون وبينما هما في طريقهما إليه ألقى اللّٰه الحكمة إلى الإمام على لسان رجل أعرابى متعبد فَسَلَّمَ على الإمام وقال له: «يا هذا إنك وافد الناس فلا تكن شؤمًا عليهم وإنك رأس الناس اليوم فإياك أن تجيبهم إلى ما يدعونك إليه فيجيبوا، فتحمل أوزارهم يوم القيامة، وإن كنت تحب اللّٰه فاصبر على ما أنت فيه فإن ما بينك وبين الجنة إلا أن تقتل، وإنك إن لم تقتل تمت وإن عشت عشت حميدًا»، وكانت هذه الكلمات التي صدرت عن قلب مؤمن مما قوى عزم الإمام على ما أصَرَّ عليه في نفسه من عدم إجابتهم إلى ما يدعونه إليه فلما اقتربا من جيش المأمون جاء خادم وهو يمسح دموعه بطرف ثوبه ويقول: «يا أبا عبد اللّٰه إن المأمون قد سل سيفًا لم يسله من قبل وإنه يقسم بقرابته[1] من رسول اللّٰه ﷺ لئن لم تجبه إلى القول بخلق القرآن ليقتلنك بذلك السيف».

فجثا الإمام أحمد على ركبتيه ورمق بطرفه إلى السماء وقال: «سيدي غَرَّ حِلْمُكَ هذا الفاجر حتى تجرأ على أوليائك بالضرب والقتل، اللهم إن يكن القرآن كلامك غير مخلوق فاكفنا مؤنته».

فما عتم أن جاء الصريخ من الليل بموت المأمون فسري عن الإمام وصاحبه، ثم

---

(١) نهى النبي ﷺ عن الحلف بغير اللّٰه عز وجل في أكثر من حديث. [الناشر].

تولى المعتصم الخلافة فردهما إلى بغداد فمات محمد بن نوح بالطريق وصلى عليه الإمام فلما رجع الإمام أحمد إلى بغداد أودع السجن ثمانية وعشرين شهرًا، وقيل نيفًا وثلاثين شهرًا فما أثَّر السجن في عقيدته، ولم يكن المعتصم بأحسن حالًا من سلفه فزيدت قيوده في السجن حتى كان يستعين عليها بيديه وتكة سراويله، وذهب بالإمام إليه فلما قام بين يديه ومعه ابن أبي دُوَاد حاجه الإمام فقال: يا أمير المؤمنين إلى ما دعا إليه ابن عمك رسول الله ﷺ؟ قال: بشهادة أن لا إله إلا الله، قال: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله.

وصار يذكر له الآثار في أنه لا يصح أن يخفر في ذمته وحرمته وكأنما رق المعتصم وأثر فيه قول الإمام فقال: لولا أنك كنت في يد من قبلي لم أتعرض إليك، ثم قال: يا أبا عبد الرحمن ألم آمرك أن ترفع الفتنة؟ ففرح الإمام وظن أن في ذلك إيذانًا بانفراج الأزمة على المسلمين ولكن ابن أبي دُوَاد كان يُلقي وساوسه على سمع المعتصم فأمر أتباعه بمناظرته فمكثوا يناظرونه أياما بالمجادلة حينًا والوعد والوعيد حينًا آخر، فكان للإمام عليهم الحجة والغلبة، وكان كلما جادلوه قال لهم: ائتوني بشيء من كتاب اللَّه وسنة رسوله حتى أقول به، وفي أثناء المناظرة كان الخليفة يتلطف به ويقول له: يا أحمد أجبني إلى هذا حتى أجعلك من خاصتي وممن يطأ بساطي، فما لانت له قناة، بل كان يقول: يا أمير المؤمنين يأتوني بآية من كتاب اللَّه أو سنة عن رسوله ﷺ حتى أجيبهم إليها ثم أغْرَتْ بطانة السوء المعتصم بالإمام وَاسْتَعْدَوهُ عليه، وقالوا له: ليس من تدبير الخلافة أن تخلي سبيله ويغلب خليفتين، فاشتد غضبه وأمر بأن يأخذوا الإمام ويضربوه فصاروا يتناوبون عليه بالسياط حتى لقد كان يغمى عليه من شدة الضرب[1] وكان كلما أفاق قال له المعتصم: أجبني حتى أخلي سبيلك فيأبى ولما اشتد به الألم وخيف عليه من الهلاك تركوه خوفا من أن يموت بيدهم فيعظم قدره ويشتد سخط الناس عليهم ولما عوفي الإمام من آلامه وجراحه فرح المسلمون بذلك فرحًا شديدًا لأن حياة الإمام لهم كانت كالشمس للدنيا والعافية للناس، وبعد ذلك لزم الإمام داره وبقي يحضر الجمعة والجماعة حتى مات المعتصم وآلت الخلافة إلى الواثق فَوُشِيَ بالإمام عنده فضيق عليه حتى اختفى مدة من الزمان وكان آخر الأمر من الواثق أن رفع المحنة.

(١) قال عبد اللَّه بن أحمد: قال أصحاب بشر الحافي له حين ضُرِبَ أبي: لو أنك خرجتَ فقلت: إني على قول أحمد، فقال: أتريدون أن أقوم مقام الأنبياء؟! سير أعلام النبلاء (١١/ ١٩٧). [الناشر].

فلما مات الواثق وآلت الخلافة إلى أخيه المتوكل استبشر الناس بخلافته فإنه كان مُحِبًّا للسنة وأهلها ورفع المحنة عن الناس وكتب إلى الآفاق لا يتكلم أحد في القول بخلق القرآن وبذلك أزال اللَّه الكربة وفرج عن الأمة وكان المتوكل معظمًا للإمام محبًّا له وقد وشوا بالإمام عنده فلما ظهرت براءته لم يسمع قول واشٍ فيه بعد وكان كثيرًا ما يرسل للإمام ليأنس بالنظر إليه، وتحصل له بركة دعائه، فيعتذر الإمام بضعفه وشيخوخته، وفي مرة عزم عليه إلا أن يزوره وفي الطريق قابله وصيف خادم الخليفة وقال له: قد أمكنك اللَّه من عدوك ابن أبي دُوَاد فلم يرد عليه الإمام جوابًا، يا لعظمة الأخلاق وسمو النفس شخص يمكنه اللَّه من عدو لم يأل جهدا في الإيقاع به ثم يعفو عنه !!! اللهم إن هذا لن يكون إلا من الصديقين من هذه الأمة. وكثيرا ما كان المتوكل يصل الإمام بالجوائز فكان يمتنع من أخذها وإن ألجئوه إلى قبولها لايهدأ له بال ولا يقر له قرار حتى يوزعها على المحتاجين من أهل الحديث وغيرهم وكان يكره أن ينال أولاده منها شيء فرضي اللَّه عنه وأرضاه.

هذه هي قصة المحنة، صراع بين رجل لا سلاح له إلا قوة الإيمان وبين الملك ومن ورائه الجند والأعوان، بين الحق أعزل وبين الباطل مسلحا، بين طالب آخرة وطلاب دنيا وكانت النتيجة أن انتصر الإيمان على العدد والعدة، والحق على الباطل، والهدى على الضلال، وقد سما الإمام، ثم سما حتى استحق الثناء الحسن في الآخرين والأجر المدخر عند اللَّه يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وقد كان الإمام أحمد على حق في هذا الموقف المشرف؛ فهو إمام ومقتدى به فلو قال هذه المقالة - تقية واتباعا للرخصة - لتبعه فيها الآلاف الذين لا يحصون، ولضل بسببه خلق كثير ممن لا يدري أن ذلك تقية، ولاتخذ المبتدعة من ذلك عونا لنشر بدعتهم، والإمام أحمد من الهداة الذين يأخذون بالعزيمة، ولا يبالون بما يصيبهم فهم على ربهم يتوكلون، وفي سبيل اللَّه ما يلاقون، وعلى الحق يثبتون ولا يتزحزحون، وقد أنقذ الأمة بموقفه هذا من شر مستطير.

ورحم اللَّه الإمام علي بن المديني حيث يقول: «إن اللَّه أعز الدين بأبي بكر يوم الردة وبأحمد بن حنبل يوم المحنة»، وفي الحق أن الإمام أحمد خرج من المحنة أصفى

ما يكون جوهرا وأطهر صحيفة وأنقى نفسا، وقد أدرك هذه الحقائق السامية السادة من سلف هذه الأمة، قال علي بن خشرم سمعت بشر بن الحارث. وقد سئل عن أحمد بن حنبل « فقال أنا أُسأل عن أحمد ؟!! إن أحمد أدخل الكير فخرج ذهبًا أحمر ». وأي شيء أغلى وأنقى من الذهب الإبريز؟ وعسى أن يكون في هذه المحنة عبرة وذكرى للهداة والمرشدين والغزاة المجاهدين والمدافعين عن الحق الذائدين عنه وأن يكون فيها نبراس لعلماء الأمة يسيرون عليه وينهجون نهجه فلا يقرون على باطل ولا يسكتون عن الدعوة إلى حق ويقفون عند آرائهم ما داموا يعتقدون أنها حق لا يغريهم وعد، ولا ينال منهم وعيد، وبذلك يعود للعلم جلاله وللعلماء مكانتهم في النفوس.



(٣)

الإمام الشافعي

(١٥٠ - ٢٠٤هـ)[١][٢]

(1)

علم من أعلام وإمام من أئمة الفقه والدين وهبه اللَّه عقلًا راجحًا، وعلمًا غزيرًا ولسانًا فصيحًا، واطَّلع على كثير من الثقافات المختلفة فاستساغها وهضمها هضمًا جيدًا، ثم استخلص منها عصارة شهية فيها غذاء وكفاء لحاجات المجتمع الإسلامي، وكون مدرسة فكرية لها سماتها ومميزاتها الخاصة ولها تلاميذها المخلصون لها ولا يزال تلاميذ هذه المدرسة منتشرين في كل قطر وصقع، ذلكم العلم هو: الإمام الشافعي أحد الأئمة المجتهدين المتبوعين الذين يفخر بهم الإسلام ويعتز المسلمون وأحد أذكياء الدنيا الذين تشرف بهم الإنسانية ويسمو بهم العقل البشري.

نسبه :

هو الإمام أبو عبد اللَّه محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف بن قصي، فهو مُطَّلِبِيٌّ قرشي، يجتمع مع رسول اللَّه ﷺ في جده عبد مناف وكان هاشم والمطلب أخوين متناصرين في الجاهلية والإسلام، لقي جده شافع رسول اللَّه ﷺ وهو مترعرع؛ فهو من صغار الصحابة، وأما جده السائب فكان صاحب راية بني هاشم يوم بدر وأسر فيها ففدى نفسه ثم رجع مسلمًا فقيل له: لِمَ لَمْ تُسْلِم قبل أن تفدي نفسك؟ فقال: ما كنت لأحرم المسلمين مطمعًا لهم فيّ وبذلك يكون له جدان تشرفا بشرف صحبته ﷺ.

وأما أمه فالمشهور أنها أَزْدِية من الأزد، وقيل: إنها من سلالة علي، فهى هاشمية، والأول هو الصحيح.

---

(١) مجلة الحج، العدد الحادي عشر، السنة السابعة.

(٢) للمزيد من سيرة الإمام الشافعي - رحمه اللَّه - انظر: سير أعلام النبلاء (١٠/ ٥)، التاريخ الكبير للبخاري (١/ ٤٢)، الجرح والتعديل (٧/ ٢٠١)، حلية الأولياء (٩/ ٦٣)، مناقب الشافعي للبيهقي، تاريخ بغداد (٢/ ٥٦)، البداية النهاية (١٠/ ٢٥١). [الناشر].

نشاته وحياته :

ولد الإمام الشافعي بغزة وقيل: بعسقلان، والأول أصح وكانت ولادته سنة خمسين ومائة من الهجرة، ولما مضى له سنتان حملته أمه إلى مكة مَوْئِل العلماء الفطاحل ومثابة المسلمين من كل صوب وفج فنشأ بها حتى حفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع، وحفظ الموطأ وهو ابن عشر، وقد أخذ العلم عن كثير من أجلة العلماء الذين كانوا يعقدون حلقاتهم بالمسجد الحرام وغيرهم ممن لقيهم في تطوافه بالأمصار، وتفقه على مسلم بن خالد الزنجي مفتي مكة وعلمها، وقد حبب إليه في صغره الرمي والعلم، وأوتي حظًا وافرًا من كل منهما، أما الرمي: فبرع فيه حتى كان يصيب من العشرة عشرة، وأما العلم: فقد بلغ فيه شأوًا بعيدًا، ورفع اللَّه له به ذكره، وما أن بلغت سنه الخامسة عشرة حتى صار أهلًا لأن يتصدر للتدريس والإفتاء.

قال الحميدي: سمعت مسلم بن خالد الزنجي وقد مر على الشافعي وهو يفتي - وهو ابن خمس عشرة سنة - فقال له: «أفتِ فقد آن لك أن تفتي». وكانت حلقته بالمسجد الحرام يؤمها[1] كثير من أفاضل العلماء حرصًا على هذا العلم الذي لا يجدونه عند غيره، قيل للإمام أحمد بن حنبل وهو في مجلس الشافعي بالمسجد الحرام: هذا سفيان بن عيينة في ناحية المسجد يحدث فقال: «هذا يفوت وذاك لا يفوت».

وقد أقام الشافعي في هذيل بالبادية نحوًا من عشر سنين فتعلم منهم لغات العرب وفصاحتها وكان لذلك أثره في علمه باللغة والأساليب وأخذه من الفصاحة بحظ كبير ولم ترض نفسه بحفظ الموطأ بل عزم على عرضه على مؤلفه الإمام مالك، فذهب إلى المدينة وهو شاب يافع وقابل مالكًا وقرأ عليه الموطأ، فأعجب به وأثنى عليه وتفرس فيه أنه سيكون له شأن، ومكث بالمدينة مدة استفاد منها بالأخذ عن مالك علم الحجازيين وطريقتهم في الفقه والاستنباط ثم ذهب إلى اليمن بصحبة أحد الأمراء ومكث بها حتى وشى به حُسَّادُهُ عند هارون الرشيد بأنه يعمل للعلويين وأنه يؤثر بلسانه مالا يؤثره المقاتل بسيفه فأمر به هارون فحمل على بغل وهو مقيد بقيود الحديد حتى قدم عليه بغداد - وكان ذلك في سنة أربع وثمانين ومائة - فدافع عن نفسه وأظهر موالاته للخليفة هارون وأنه

(١) يؤمها: يقصدها. [الناشر].

بريء مما نسب إليه، وقد كان لغزارة علمه أكبر شافع له في هذه المحنة التي كادت تودي بحياته.

فقد تناظر بين يدي الرشيد هو ومحمد بن الحسن صاحب الإمام أبي حنيفة فأدهشهم بحجته وفصاحته وفلجه بالصواب حتى حمل محمد بن الحسن على الثناء عليه عند الرشيد بما هو أهله، ولما سأله الرشيد عن علمه بكتاب الله، فقال الشافعي: عن أي كتاب من كتب اللّه تسألني يا أمير المؤمنين؟ فإن اللّه قد أنزل كتبًا كثيرة، قال هارون: قد أحسنت لكني إنما سألت عن كتاب اللّه المنزل على ابن عمي محمد ﷺ، فقال الشافعي: إن علوم القرآن كثيرة فهل تسألني عن محكمه ومتشابهه، أو عن مكيه ومدنيه أو ناسخه ومنسوخه، أو عن فنونه؛ حتى دهش الرشيد من هذا العلم الذي لايوجد عند غيره؛ وقد أقام الشافعي ببغداد وأنزله محمد بن الحسن عنده، وكانت إقامته ببغداد فرصة اهتبلها[1] الشافعي في معرفة مذهب العراقيين وأهل الرأي وطريقتهم في الاجتهاد واستنباط الأحكام حتى قيل: إن الشافعي كتب عن محمد بن الحسن وقر بعير. وقد سهل له ذلك حسن معاملة محمد بن الحسن له قال أبو حسان الزيادي: « ما رأيت محمد بن الحسن يعظم أحدًا من أهل العلم تعظيمه للشافعي ». وقد جاء يومًا فلقيه وقد ركب محمد بن الحسن فرجع محمد إلى منزله وخلا به إلى الليل ولم يأذن لأحد عليه.

وقد وصل الرشيد الإمام الشافعي بألفي دينار أو تزيد فرجع إلى مكة ففرق عامة ما ناله على أهله وذوي رحمه ولم يُبْقِ لنفسه شيئا مع أنه كان فقيرًا رقيق الحال، ومكث بمكة ينشر العلم ويفتي في المعضلات حتى حانت سنة خمس وتسعين ومائة وفيها رجع إلى بغداد واجتمع بكثير من أجلتها كالإمام أحمد وأبي ثور والكرابيسى والزعفراني وغيرهم، ولم يطل مقامه ببغداد فعاد إلى مكة وفي سنة ثمان وتسعين ومائة عاد إلى بغداد ومنها يمم وجهه شطر مصر فمكث بها إلى سنة أربع ومائتين، وقد كانت فترة مقامه بمصر أخصب حياته وأكثرها إنتاجًا، ففي مصر كوّن له مذهبًا جديدًا وفيها ألف كتابه المسمى بـ« الأم » وفيها أعاد تأليف كتابه «الرسالة» وكانت وفاته يوم الجمعة آخر يوم من رجب سنة ٢٠٤هـ ودفن من يومه بالقرافة الصغرى وقبره معروف مشهور بمصر.

(١) الاهْتِبَالُ: الاغْتِنَامُ. لسان العرب. [الناشر].

صفاته الخِلْقية والخُلقية :

كان الإمام الشافعي رجلًا طوالًا أبيض اللون حسن الخلق محببا إلى الناس نظيف الثياب فصيح اللسان شديد المهابة وكان يخضب بالحناء اقتداءً بالسنة تعلوه سكينة ووقار.

أما صفاته الخلقية فقد جمع اللّه له غرر الأخلاق والفضائل وقد بلغ في الزهد والتقوى درجةً عالية، قال تلميذه الربيع: كان الشافعي جعل الليل أثلاثًا، في الأول يكتب، وفي الثاني ينام، وفي الثالث يصلي، وكان ملازمًا لقراءة القرآن يختم في كل شهر ثلاثين ختمة وفي رمضان يختم ستين ختمة، ومن صفاته: السخاء والبذل. روي أنه رجع من صنعاء إلى مكة ومعه عشرة آلاف دينار فضرب خباءه خارج مكة فكان الناس يأتونه ويعطيهم حتى فني الذهب جميعه، ومن غرر صفاته التي تندر بين العلماء الإنصاف والاعتراف بالفضل لذويه، روي عن الإمام أحمد أنه قال: قال لي الشافعي: أنتم أعلم بالحديث منا، فإذا كان حديث صحيح فأخبرونا حتى نأخذ به، ولعل في هذا مُدَّكَرًا لهؤلاء الذين يحملهم الغرور بالباطل على أن يستسمنوا بما ليس فيهم ولا يقروا بحق وفضلية لغيرهم وإنما يسمو إلى هذه المنزلة أمثال الشافعي ممن وُهِبُوا قلبًا طاهرًا ونفسًا عالية تترفع عن الأهواء والشهوات، بل قد بلغ به الإنصاف وحبه للحق والصواب أنه ما كان يبالي أَظَهَرَ الحق على يديه أم على يدي مناظره. روي عنه أنه قال: « ما ناظرت أحدًا فأحببت أن يخطئ ». وقال: « ما كلمت أحدًا قط إلا ولم أبال أظهر الحق على لسانه أم لساني ». ومن إنصافه أنه كان يتوقف في المسائل التي لم تظهر له فيها حجة مرجحة، وإذا كان الشافعي بهذه المثابة من الإنصاف والاعتراف بالحق فلا عجب أنه روي عنه أنه كان يقول: « إذا صح الحديث عندكم عن رسول اللّه ﷺ فخذوا به واضربوا بقولي عرض الحائط فلا قول لي مع رسول اللّه ﷺ » . ومن أخلاقه العالية الصبر على جمع العلم والإخلاص في العمل والشرف في القصد روي عنه أنه كان يقول: « وددت أن جميع الناس يتعلمون هذا العلم ولاينسب إليّ شيء منه أبدًا فاؤجر عليه ولا يحمدوني ».

وقصارى القول: إن أخلاق الشافعي جديرة أن يترسم آثارها العلماء والناشئة من المتعلمين الذين ينشدون الكمال والفضيلة ويحرصون على أن يكونوا مجتمعًا فاضلًا ومدنيةً صحيحة سليمة.

الإمام الشافعي، رحمه الله

(2)

ارتحاله في سبيل العلم :

لقد سار الإمام الشافعي على سنن من قبله من الأئمة والمحدثين في الارتحال في طلب العلم والحديث، فقد ذهب إلى المدينة، وأخذ عن عالمها الأشهر الإمام مالك بن أنس وقرأ عليه الموطأ، وكان الشافعي يثني عليه صنعة التحديث ويقول: « إذا ذكر الحديث فمالك النجم ». وأثنى على موطئه فقال: « ما في الأرض كتاب بعد كتاب اللّٰه أصح من موطأ مالك ». وهذا إنما قاله قبل تأليف الصحيحين فقد ولد البخاري سنة ١٩٤هـ ومسلم سنة مات الشافعي أو بعد ذلك بقليل، وكذلك رحل إلى العراق وسمع من علمائها أمثال الإمام الجليل أحمد بن حنبل، ومحمد بن الحسن صاحب الإمام أبي حنيفة وذهب إلى اليمن وسمع من علمائها، وكان آخر رحلاته إلى مصر فاطلع فيها آراء وسمع أحاديث لم يكن سمعها هذا فضلا عن أشياخه الكثيرين الذين تلقى منهم العلم والحديث في مكة.

وقد كان له تلاميذ وأصحاب من خيار العلماء زهدًا وعلمًا مثل الإمام: أحمد[١]، والحميدي، وأبي عبيد، والبويطي، وأبي ثور، والربيع المرادي، والزعفراني، وكثيرين غيرهم ممن لا يحصيهم العد.

علمه بالقرآن :

كان الشافعي بحرًا في علمه بكتاب اللّٰه ومعرفة ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه وعامه وخاصه ومطلقه ومقيده وقد كان علمه بعلوم القرآن وفنونه شفيعًا له في الفتنة التي ابتلي بها أيام الرشيد وقد ألهمت مقالة الشافعي للرشيد عند لقائه العلماء فيما بعد فبدءوا يؤلفون في علوم القرآن حتى غدا من ذلك هذه الثروة من المباحث المتعلقة بالقرآن وقد شهد له العلماء بالإصابة في التفسير، قال يونس بن عبد الأعلى: « كان الشافعي

(١) لا تعجبن أن يكون الإمام أحمد شيخًا له وتلميذًا، فقد كانت سمة العلماء في العصور الأولى أن يأخذ كل منهم عن الآخر ما ليس عنده من غير نظر إلى التقدم في السن أو في المنزلة، وقد أخذ الشافعي عن أحمد الحديث وأخذ أحمد عن الشافعي الفقه، وهكذا ينبغي أن يكون العلماء.

رحمه الله إذا أخذ في التفسير كأنه شاهد التنزيل». ولما سئل عن الدليل على حجية الإجماع قرأ القرآن من أوله إلى آخره حتى اهتدى إلى الدليل في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]. وكان دائب القرآءة للقرآن، يقرؤه قراءة تمعن وتدبر، وقد يستعرض بعض الآيات وهو مستلق على ظهره فيستنتج منها حكمًا شرعيًا، فيقوم ويشعل المسرجة ثم يقيد ذلك وينام، وكفانًا دليلًا على قوة حافظته وسيلان ذهنه أنه حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين، وقد قرأ القرآن على إسماعيل بن قسطنطين عن شبل عن ابن كثير عن مجاهد عن ابن عباس عن أُبي بن كعب عن رسول اللّٰه ﷺ عن جبريل عن اللّٰه عز وجل، ومن اعتقاداته أنه كان يقول: «القرآن كلام اللّٰه غير مخلوق ومن قال مخلوق فهو كافر». وكان يمر بآيات الصفات وأحاديثها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تحريف فهو في هذا على طريقة السلف القويمة وكان رأيه في الخلفاء رأي جمهرة الأمة قال الربيع: سمعت الشافعي يقول: «أفضل الناس بعد رسول اللّٰه ﷺ أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي»[١].

علمه بالسنة:

وكان من أعلم الناس بالسُّنَّة وصحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها، روي عن محمد بن مسلم بن واره - أحد أئمة الحديث - أن أحمد بن حنبل قال له وقد قدم من مصر: كَتبت كُتب الشافعي؟ فقال: لا. قال: فرطت، ما علمنا المجمل من المفسر ولا ناسخ حديث رسول اللّٰه من منسوخه حتى جالسنا الشافعي». وكان لحبه للحديث يحب أهله ويثني عليهم ويدعو إلى مصاحبتهم روي عنه أنه كان يقول: «عليكم بأصحاب الحديث فإنهم أكثر الناس صوابًا». ويقول: «إذا رأيت رجلا من أصحاب الحديث فكأنما رأيت رجلًا من أصحاب رسول اللّٰه ﷺ جزاهم اللّٰه خيرًا حفظوا لنا الأصل فلهم علينا الفضل». وكان يرى أن العلم الحق: علم القرآن والسنة والفقه فيهما، وما سوى ذلك من علم الجدل والخلاف ونحوه كعلم فلسفة اليونان فمن وسواس الشياطين ومن شعره في هذا المعنى:

---

(١) البداية والنهاية، الجزء العاشر ص ٢٥٤.

كُلُّ العلوم سوى القرآن مُشْغِلَةٌ   إلا الحديث وإلا الفقهَ في الدينِ
العلمُ ما كان فيهِ قال: حدثنا   وما سوى ذاك وسواس الشياطينِ

وقد كان أهل الحديث لا يقدرون على مناظرة خصومهم حتى جاء الشافعي فنافح عنهم، وناظر وفلج بالحجة والصواب، حتى لقد كان يُلقب في بغداد بـ«ناصر الحديث» وإليك ما قاله الإمام الرازي في مناقب الشافعي: «كان الناس قبيل زمن الشافعي فريقين: أصحاب الحديث وأهل الرأي أما أصحاب الحديث فكانوا حافظين لأخبار رسول اللّٰه ﷺ إلا أنهم كانوا عاجزين عن النظر والجدل فكلما أورد عليهم أصحاب الرأي إشكالًا بقوا متحيرين عاجزين، وأما أصحاب الرأي فكانوا أرباب الجدل والكلام إلا أنهم كانوا عاجزين عن معرفة الأحاديث والسنن وأما الشافعي فكان عارفًا بأحاديث رسول اللّٰه ﷺ محيطًا بقوانينها وكان عارفًا بآداب البحث والمناظرة، فصيحًا قادرًا على قهر الخصوم بالحجة الظاهرة وآخذًا في نصرة أحاديث رسول اللّٰه ﷺ، وكل من أورد عليه من أصحاب الرأي سؤالًا أو إشكالًا أجاب عنه بأجوبةٍ شافيةٍ كافية، فانقطع بذلك استعلاء أصحاب الرأي على أصحاب الحديث وتخلص بسببه أصحاب الأحاديث من سبة أصحاب الرأي وفي كتب الشافعي من أنواع الحجاج ما لا يقضى منه العجب.

علمه باللغة:

وقد برز الإمام الشافعي - إلى علمه بالقرآن والسنة - في العلم باللغة وأساليبها وأسرارها، وسهل له ذلك إقامته في هذيل بالبادية عشر سنين فأخذ اللغة عن أبناء بجدتها - وهم الأعراب - فجاء كلامه وكلامهم من نبع واحد فلا عجب أن كان الشافعي فصيحًا منطقيًا قوى الأسلوب جزل العبارة وليس أدل على تضلعه في اللغة وعلمه بالشعر من أن الأصمعي - وهو من هو - كان يقول: «قرأت ديوان الهذليين على شاب من شباب قريش يقال له: محمد بن إدريس». وروي عنه أيضًا أنه قال: «قرأت شعر الشنفرى على محمد بن إدريس».

والجاحظ وهو إمام البيان العربي يقول: «نظرت في كتب الشافعي فإذا هو در منظوم، لم أر تأليفًا أحسن منه، وقد ذهب كثير من أئمة اللغة إلى أن الشافعي ممن يحتج بكلامه. حكى المبرد عن المازني أنه يقول: «قول محمد بن إدريس حجة في اللغة».

وقال غلام ثعلب: سمعت ثعلبا يقول: «العجب أن بعض الناس يأخذ اللغة عن الشافعي وهو من بيت اللغة، والشافعي يحب أن تؤخذ منه اللغة لا أن تؤخذ عليه». وقد اعترف الإمام الزمخشري في كشافه للإمام الشافعي بالتقدم في علم العربية وأثنى عليه فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ [النساء: ٣٠]. «وكلام مثل الشافعي من أعلام العلم وأئمة الشرع ورؤوس المجتهدين حقيق بالحمل على الصحة والسداد إلى أن قال: وكفى بكتابنا المترجم بكتاب - «شافي العي من كلام الشافعي» - شاهدًا بأنه كان أعلى كعبًا وأطول باعًا في كلام العرب من أن يخفى عليه مثل هذا». كما ألف أبو منصور الأزهري كتابًا في حل مشكلات ألفاظه، ولا يقلل من منزلة الإمام اللغوية بعض أخطاء أحصاها عليه العلماء وذلك مثل قوله: «لا فرق بين أن يكون عذبًا أو مالحًا». فقد خطئوه في مالح وقالوا: الصواب ملح كما جاء به القرآن الكريم. ومثل قوله: «وليست الأذنان من الوجه فيغسلان». وكان الأولى أن يقول: «فيغسلا». وقد ذكر هذه الهنَّات الإمام الرازي وأجاب عنها بما لا يدع مجالًا للشك أنها مما أجازها اللغويون والنحويون[1]. وقد كان علم الشافعي بلغة العرب وأساليبهم أكبر معوان له على الاجتهاد والاستنباط، وكثير ما يستدل بكلام العرب والشعر على الكثير من ألفاظ القرآن، وكان من أثر هذه الثقافة الواسعة في القرآن وعلومه والحديث وأصوله واللغة وآدابها أن برع في الفقه والاجتهاد وكون لنفسه مذهبًا فقهيًّا له خصائصه ومميزاته.

ثناء الأئمة عليه:

وقد استحق الشافعي بفقهه وغزارة علمه ونصرته للحديث وأهله ثناء الأئمة عليه، وقد مكث الإمام الورع أحمد بن حنبل يدعو له في صلاته أربعين سنة حتى قال له ابنه عبد الله ذات يوم أي رجل كان الشافعي؛ فإني سمعتك تكثر من الدعاء له؟ فقال الإمام هذه القوله الحكيمة: «يا بني كان الشافعي كالشمس للدنيا والعافية للناس، هل لهذين من خلف أو عنهما من عوض؟!». وهي كلمة لا نجد أدق منها في تصوير منزلة الشافعي واحتياج الناس. إليه وكان الإمام أحمد يقول في الحديث الذي رواه أبو داود بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إن اللَّه يبعث لهذه الأمة من يجدد لها أمر دينها». فعمر بن

(١) انظر مناقب الشافعي للرازي ص١٦٠، ١٦١.

عبد العزيز على رأس المائة الأولى والشافعي على رأس المائة الثانية وقال أبو نعيم عبد الملك بن محمد الإسفرايني في قوله ﷺ: « اللهم اهد قريشًا فإن عالمها يملأ طباق الأرض علمًا ». في هذا الحديث علامة بينة للمميز أن المراد بذلك رجل من علماء هذه الأمة من قريش قد ظهر علمه وانتشر في البلاد، وهذه صفة لا نعلمها قد أحاطت إلا بالشافعي، إذ كل واحد من قريش من الصحابة والتابعين ومن بعدهم وإن كان علمه قد ظهر وانتشر فإنه لم يبلغ مبلغًا يقع تأويل كل هذه الرواية عليه، إذ لكل واحد منهم نتف وقطع من العلم ومسائل، وليس في كل بلد من بلاد المسلمين مدرس ومفتٍ ومصنف يصنف على مذهب قرشي إلا على مذهب الشافعي فعلم أنه يعينه لا غيره[1].

وممن أثنى عليه من كبار الأئمة مالك بن أنس، والحميدي، وسفيان بن عيينة، ويحيى بن سعيد القطان، ومحمد بن إسحاق بن خزيمة، وكان الحميدي إذا جرى ذكر الشافعي قال: حدثنا سيد الفقهاء الإمام الشافعي.

تزييف رواية :

ولا يعكر هذا الثناء المستطاب ما نسب إلى يحيى بن معين من الغض من قيمة الشافعي، والطعن عليه في الرواية، وأغلب الظن أن ذلك شيء مدسوس على يحيى بن معين. قال العلامة ابن عبد البر في كتابه «جامع بيان العلم»: كان الأمير عبد اللَّه بن الناصر يقول: « رأيت أصل محمد بن وضاح الكندي الذي كتبه بالمشرق وفيه: سألت يحيى بن معين عن الشافعي، فقال: ثقة ». وقال أبو عبد اللَّه الحاكم: « تتبعنا التواريخ وسواد الحكايات عن يحيى بن معين فلم نجد في رواية واحد منهم طعنًا على الشافعي، ولعل من حكى ذلك عنه قليل المبالاة بالوضع على يحيى » وقال الأستاذ أبو منصور البغدادي: « بالغ مسلم في تعظيم الشافعي في كتاب الانتقاع بجلود السباع، وفي كتاب الرد على محمد بن نصر، وعَدَّه في هذا الكتاب من الأئمة الذين يرجع إليهم في الحديث وفي الجرح والتعديل[2].

وهذا هو الحق الذي تميل إليه نفس الباحث المحقق، ولا أدري كيف يتفق الطعن

---

(١) تهذيب التهذيب ص٢٦، جزء ٩، ط الهند.

(٢) انظر تهذيب التهذيب الموضع السابق.

هو وما نقله الزعفراني عن يحيى بن معين أنه قال: «لو كان الكذب له مباحًا مطلقًا لكانت مروءته تمنعه أن يكذب». وهي كلمة تسمو بالشافعي إلى أسمى درجات الصدق.

ومما يؤيد أن الطعن مدسوس على ابن معين من وضع شانيء حسود للشافعي أنَّا لم نر لأحد من جهابذة الحديث - ونقاده من ذكرنا منهم ومن لم نذكر إلا الثقة به والثناء عليه وعده من رجال الحديث حفظًا وعلمًا وبصرًا بمعرفة صحيحه من سقيمه وليس من البحث العلمى أن نأخذ برواية شاذة منكرة وندع الروايات المتكاثرة عن أئمة هذا الشأن الموثوق بهم وبكلام غاية الوثوق اللهم إن الطعن في الإمام الشافعي ساقط عن الاعتبار ولا ينبغى أن يلتفت إليه، أما الحديث عن فقه الشافعي وفتاواه ومنحاه في الاجتهاد وما تركه لنا من آثار باقية ففي مقال تالٍ إن شاء الله.



من أدب الشافعي رضي الله عنه[1]

(3)

من منذ بضع سنين ومن على صفحات هذه المجلة الزهراء كتبت عن مفخرة من مفاخر الإسلام وهو: الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه، وقد فاتني حينئذ أن أذكر شيئا من أدبه، وللأدب في حياة الشافعي جانب خصب مشرق وهأنذا أتدارك ما فاتني وأذكر شذرات من أدبه، والإمام الشافعي رحمه الله تعالى من أعلام الإسلام، وأحد الأئمة الأربعة الذين سارت بذكرهم الركبان، وخلّدوا لأنفسهم آثارًا باقية على توالي الأزمان وأحد أذكياء الدنيا المعدودين الذين ساهموا في بناء التراث الإنساني وقد جمع إلى الضلاعة في الفقه والاستنباط؛ التمكن في اللغة العربية، والعلم بأساليب العرب في نظمهم ونثرهم وكان فصيح الكلام جزل الأسلوب عذب الحديث فحل المعاني وبحسبه شهادة أئمة اللغة له بالفصاحة والتبريز في اللغة.

قال الأصمعي – وهو من هو –: قرأت ديوان الهذليين على شاب من شباب قريش يقال له: محمد بن إدريس الشافعي، والجاحظ الكاتب البليغ المفكر يقول: نظرت في كتب الشافعي فإذا هو در منظوم لم أر أحسن تأليفًا منه، وقد ذهب كثير من أئمة اللغة إلى أن كلام الشافعي يحتج به، حكى المبرد عن المازني أنه كان يقول: محمد بن إدريس حجة في اللغة.

وقال غلام ثعلب: سمعت ثعلبًا يقول: العجب أن بعض الناس يأخذ اللغة عن الشافعي وهو من بيت اللغة والشافعي يجب أن يؤخذ منه اللغة لا أن يؤخذ عليه. والشافعي رحمه الله جمع بين أدب النفس وأدب القول، فأدبه لا ينبع من لسانه وإنما ينبع من قلبه أولًا ثم يجري في عذوبة وفصاحة وإحكام على لسانه، فمن ثم جاء أدبه صورة صادقة لنفسه فهو مرآة انطبع فيها إيمان الشافعي وحكمته الأصيلة وخلقه العالي وتجاربه الصادقة في الحياة سواء في ذلك نثره وشعره، وقد وجد قبل الإمام الشافعي وبعده من العلماء من تعاطى الشعر والأدب إلا أنهم لم يبلغوا في شعرهم وأدبهم ما بلغ الشافعي.

---

(١) مجلة الحج، الجزء ١١، السنة الثانية عشرة، جمادى الأولى سنة ١٣٧٨هـ.

والغالب على شعر العلماء أنه لا يبلغ حد الإجادة إلا الشافعي؛ فقد أوفى أدبه وشعره على الغاية، ولولا قيم أخلاقية كانت تنأى بالعلماء عن الشعر لكان الشافعي مع الشعر موقف آخر ويؤثر عنه أنه قال:

ولولا الشعر بالعلماءِ يُزري ... لكنتُ اليومَ أشعر من لبيدِ

أولئك ما ذكره الشريشي شارح المقامات الحريرية في شرحه قال: قال أبو القاسم ابن الأزرق: دخلت على الشافعي، فقلت له: يا أبا عبد اللّه ما أنصفتنا، هذا الفقه تفوز بفوائده، ولنا هذا الشعر وقد جئت تداخلنا فيه، فإما أفردتنا أو أشركتنا في الفقه وقد أتيت بأبيات إن أجزتها بمثلها تبت من الشعر وإن عجزت فتب منه، فقال: إيه يا هذا فأنشدته هذا الكلام:

ما هِمَّتي إلا مُقارعة العِدَا ... خَلِقَ الزمانُ وهمتي لم تَخْلِقِ

والناسُ أعينهم إلى سلب الغنى ... لا ينظرون إلى الحِجَا والأولقِ[1]

لكن من رُزِقَ الحِجَا مُنِعَ الغنى ... ضدانِ مفترقانِ أي تفرقِ

لو كان بالحيلِ الغنىَ لوجدتني ... بنجوم أقطار السماء تَعَلُّقي

فقال الشافعي ألا قلت كما أقول ارتجالًا:

إن الذي رُزِقَ اليسارَ فلم يَنَلِ ... حمدًا ولا أجرًا لَغَيْرِ مُوَفَقِ

فالجدُّ يُدني كل أمر شاسعٍ ... والجدُّ يفتحُ كل بابٍ مُغْلَقِ

فاذا سمعتَ بأن مجدودًا حوىَ ... عودًا فأثمرَ في يديه فحقق

وإذا سمعتَ بأن محرومًا أتى ... ماءً ليشربهُ فغاضَ فصدقِ

وأحقُّ خلقِ اللّهِ بالهم امرؤٌ.. ... ذو همة يُبْلَى بعيشٍ ضيقِ

وَلَرُبَّما عَرَضَتْ لنفسي فكرةٌ.. ... فأود منها أنني لم أُخْلَقِ

ومن الدليلِ على القضاءِ وحكمهِ ... بؤس اللبيبِ وطيبُ عيشِ الأحمقِ

قال أبو القاسم فقلت له: لا قلت شعرًا بعدها.

وهذا البيت الأخير يلقى لنا ضوءًا قويًّا على إيمان الشافعي وحكمته وسعة عقله؛ فهو

---

(١) الأولق: الجنون كما في القاموس.

يجعل تفاوت الناس في الرزق والغنى والفقر من غير أن يكون ذلك مرتبطا بتفاوتهم في العقل والفضائل دليلًا على قضاء اللّٰه النافذ وحكمة الحكيم ولم يجعل ذلك وسيلة للحيرة والشك والتزندق كما فعل ابن الراوندي حيث قال:

كم عاقلٌ عاقلٌ أَعْيَت مذاهبه وجاهلٌ جاهلٌ تلقاهُ مَرْزُوقا
هذا الذي تَرَكَ الأوهامَ حائرةً وَصَيّرَ العَالِمَ النحرير زنديقا

فبينما نجد الإمام الشافعي حلق في سماوات الإيمان والحكمة نجد ابن الراوندي دس نفسه في ظلمات الشك والحيرة والإلحاد. وقال الشافعي رحمه اللّٰه في صديق جفاه:

لستُ ممن إذا جفاهُ أخوهُ أظهرَ الذم أو تناول عِرضا
بل إذا صاحبي بدا لي جَفَاهُ عُدتُ بالود والوصالِ ليرضى
كن كما شئتَ لي فإني حَمُولٌ أنا أولى من عَنْ مساويك أَغْضَى

وقد بيّن الشافعي في هذه الأبيات ما أخذ به نفسه من العفة والترفع عن السفاسف عند الهجر والقطع وأن خلقه العالي يأبى عليه إلا أن يقابل الجفاء بالود والقطيعة بالوصل والإساءة بالعفو والإغضاء، وهل هذا إلا خُلق النبيين والعلماء الربانيين ؟

ومن كلامه رضي اللّٰه عنه في الترفع عن طمع النفس وشره الطبع والرضا بالقناعة التي فيها غنى النفس وصيانة العرض.

أَمَتُّ مَطَامِعِي فأرحتُ نفسي فإن النفسَ مَا طَمِعَت تهونُ
وأَحْيَيتُ القُنوع وكان ميتًا وفي إحيائه عِرضي مَصُونُ

ومن كلمه النوابغ وحكمه البوالغ وتجاربه الحكيمة هذه الأبيات الحسان البالغة حد الإجادة والإحسان:

صُن النفسَ واحملها على ما يزينها تعش سالمًا والقولُ فيك جميلُ
ولا ترين الناس إلا تجملًا تبابك دهر أو جَفَاكَ خليلُ
وان ضاق رزق اليوم فاصبر إلى غدٍ عسى نكبات الدهرِ عنكَ تزولُ
ولا خيرَ في ود امرئٍ متلومٍ إذا الريحُ مالت مالَ حيثُ تميلُ
وما أكثرُ الإخوانِ حينَ تعدهم ولكنهم في النائباتِ قليلُ

ومن شعره الذي يرشد به العلماء إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه من حفظ العلم في

القلوب والصدور لا في الدفاتر والسطور قوله:

علمي معى حيثما يَمّمْتُ ينفعني قلبي وعاء له لا بطن صندوقِ
إن كنت في البيت كان العلمُ فيه معي أو كنت في السوق كان العلمُ في السوقِ

ومن لطائفه الشعرية أنه كان بينه وبين الإمام محمد بن الحسن مودة وصداقة فاستعاره شيئا من كتبه فلم يسعفه فكتب إليه.

قُل للذي لم تر عيشنا من رآه مثلهُ ومن كان من رآه قد رأى من قبلهِ
العلمُ ينهى أهله أن يمنعوه أهلهُ لعله يبذله لأهله لعلهُ

فبعث إليه محمد بن الحسن بما سأل، ومن كلامه في الفقيه ابن الحكم وقد اعتل فعاده

مَرِضَ الحبيبُ فعدتهُ فمرضتُ من حذري عليهِ
شُفي الحبيبُ فعادني فشفيت من نظري إليهِ

ومن شعره الذي يدل على التواضع الجم. والنظرة الحكيمة. وعدم ادعاء الدعاوى الكاذبة على ما كان يتسم به علم عزيز. وعقل كبير:

كُلما أدبني الدهرُ أراني نقص عقلي وإذا ما ازددتُ علمًا زادني علمًا بجهلي

وهل هذا إلا تأدب بقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، وقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، ولما توجه إلى مصر قال هذين البيتين:

وإنى أرى نفسي تَتُوقُ إلى مصر ومن دونها أرض المهامة والفقرِ
فوالله ما أدرى أَلِلْفوزِ والغنى أُساقُ إليها أم أُساقُ إلى القبرِ

فكأنما كان القدر يجري على لسانه فسيق إليهما، وقال المزني: دخلت على الشافعي غداة وفاته فقلت له: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟ قال: أصبحت من الدنيا راحلًا. ولإخواني مفارقًا. لكأس المنية شاربًا. ولا أدرى أإلى الجنة تصير نفسي فأهنيها، أم إلى النار فأعزيها ثم أنشأ يقول:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي جعلتُ الرجَا مِني لعفوكَ سُلما
تَعاظمني ذنبي فلما قَرَنتهُ.. بعفوكَ ربي كان عفوكَ أَعْظَمَا

فرضي اللّه عنه وأرضاه.

من أدب الإمام الشافعي[1]

في مقال سابق تحدثت عن طرف من أدب الشافعي رضي اللَّه عنه وذكرت شيئًا من أشعاره التي جمعت، إلى فحولة اللفظ وجزالة المعنى وحسن السبك وجمال الجرس - الاشتمال على الحكم الشاردة والآداب العالية والإيمان واليقين وفي هذا المقال سأعرض لجانب آخر من أدب الشافعي وهو نثره، ونثر الشافعي ليس من النوع المتكلف وليس هو أدب صنعة وتعمل وإنما هو أثر من آثار الفطرة العربية الخالصة التي لم تشبها عجمة وما ظنك برجل عربي أصيل نشأ وتربى بين قوم عرب خلص، لم تتطرق إلى لغتهم هجنة أو رطانة ولا إلى أساليبهم فسولة أو ركاكة ؟ فقد أقام بين هذيل نحوًا من عشر سنين يأخذ عنهم لغات العرب وأساليبهم ثم تضلع ما شاء اللَّه له التضلع من لغة القرآن والسنة وأساليبهما وأدبهما، لا شك أن تأتي لغته وأسلوبه صورة صادقة للغة العرب وأساليبهم واقرأ - إن شئت - له في كتابه « الرسالة » وموسوعته العلمية « الأم » وغيرهما من مؤلفاته تجد مصداق ما أقول.

وللشافعي رضي اللَّه تعالى عنه كلمات عذاب نوابغ ذهبت مذهب الحكم الشوارد والأمثال السائرة وهي غير قليلة وجديرة أن تضع الإمام الشافعي في منازل الحكماء والعباقرة، ولو أن بعض ناشئتنا وباحثينا الذي أولعوا بأفكار الغربيين وآرائهم وقعوا على كلمة منها لأحد مفكريهم وفلاسفتهم لهللوا لها وكبروا وطاروا بها فرحًا وأكثروا القول في الإشادة بها والتعليق عليها.

وأحب أن أقول لهؤلاء المولعين برجال الغرب ومفكريهم: إن لعلمائنا الأعلام من أمثال الشافعي ثروة فكرية هائلة وأدبًا عاليًا سخيًا كما أن للغربيين فكرًا وأدبًا ولكن فرق ما بين أمثال الشافعي وهؤلاء أن علماءنا - أعز اللَّه شأنهم - يصدرون في أفكارهم عن إيمانٍ عميقٍ وقلوبٍ مضيئةٍ وضمائر حية، وأنهم لا يقولون ما لا يفعلون؛ فأقوالهم صورة صادقة لسلوكهم وأخلاقهم وأفعالهم، أما حكماء الغرب وفلاسفته فكثيرًا ما يكون سلوكهم في جانب وأفكارهم في جانب آخر، وتجد الواحد منهم ينطق بالحكمة ويلهج

---

(١) مجلة الحج: الجزء ١٢، السنة الثانية عشرة، جمادى الثانية ١٣٧٨هـ، يناير ١٩٥٩م.

بالدعوة إلى رعاية الحق والحرية بينا هو وقومه والقائمون على الأمر في بلده يهدرون الحريات ويهدمون القيم الخلقية الفاضلة ويرتكبون في معاملة الأمم والشعوب المغلوبة من المآثم والمظالم ما يندى له جبين الإنسانية المهذبة الكاملة.

ولعل أقرب مثل لذلك ما تقوم به الداعرة فرنسا في الجزائر وغير الجزائر من تقتيل وتخريب وترويع للآمنين السالمين؛ فهل سمعت لأحد في فلاسفتهم وكتابهم من رفع عقيرته منددًا بما تقوم به بلده أو داعيًا إلى ترك هذه البربرية الغاشمة ومنح حق الحرية والحياة الكريمة لشعوب هذه البلاد التي امتصوا دماءها وسلبوا أقواتها وخيراتها وعملوا جاهدين على الوقوف في سبيل تقدمها حتى غدت متخلفة ضعيفة مغلوبة على أمرها؟ اللهم لا، بل هذه إنجلترا الباغية وما تفعله في عدن وغير عدن، وما تقوم به من عدوان في البوريمي وأطراف الجزيرة العربية؛ فهل سمعت أن مفكريها وفلاسفتها نددوا بسياستها أو دعوها إلى منح الشعوب حريتها وحقها في الحياة وهم يزعمون أنهم حماة الديمقراطية وحملة مشاعل الحرية والإخاء الإنساني؟

إن هذه الألفاظ الرنانة إنما يلهجون بها حينما لا تتعارض هي ومصالحهم، أما إذا تعارضت فعلى المثل الإنسانية والقيم الخلقية العفاء، أليس الحال كذلك يا بني العرب والإسلام؟

وإليك نتفا من أدب الشافعي ووجدانياته ومأثوراته، قال عمر بن عبد الله البلوي جلسنا يوما نتذاكر الزهاد والعباد والعلماء وما بلغ من زهدهم وفصاحتهم وعلمهم فبينا نحن كذلك إذ دخل علينا عمر بن نباتة، وقال: فيم تتحاورون؟ فأعلمناه فقال عمر: والله ما رأيت رجلا قط أورع ولا أخشع ولا أصبح ولا أسمح ولا أعلم ولا أكرم ولا أجمل ولا أنبل ولا أفضل من محمد بن إدريس الشافعي خرجت أنا وهو والحارث بن اللبيد إلى الصفا وكان الحارث صاحب صالح المري وكان من المتقين الخاشعين وكان حسن الصوت فقرأ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦]، فرأيت الشافعي قد تغير لونه واقشعر جلده واضطرب اضطرابًا شديدًا، ثم خر مغشيًّا على وجهه؛ فلما أفاق جعل يقول: «أعوذ بك من مقام الكاذبين، وإعراض الغافلين اللهم خضعت لك قلوب العارفين، وذلت لك قلوب المشتاقين، اللهم هب لي جودك وجللني

بسترك، واعف عن تقصيري بكرم وجهك» فهل سمعت في أدب التصوف أروع من هذا؟

وقال المبرد: كان الشافعي رضي اللّه تعالى عنه أشعر الناس، وآدب الناس وأعرفهم بالفقه والقراءات، ولقد أخبرني بعض أصحابي أنه مات ولد لعبد الرحمن بن مهدي، فكتب إليه الشافعي يقول: «يا أخي عز نفسك بما تعزي به غيرك، واستقبح من فعلك ما تستقبحه من غيرك، واعلم أن أَمَضَّ المصائب فقد سرور.. وحرمان أجر، فكيف إذا اجتمعا مع اكتساب وزر، فتناول حظك يا أخي إذا قرب منك قبل أن تطلبه وقد نأى عنك، ألهمك اللّه عند المصائب صبرًا، وأحرز لنا ولك بالصبر أجرًا».

وسمع الشافعي رجلًا يسفه على رجل من أهل العلم فقال لأصحابه: «نزهوا أسماعكم عن استماع الخنا كما تنزهون ألسنتكم عن النطق به فإن المستمع شريك القائل، فإن السفيه ينظر إلى أخبث شيء في وعائه فيحرص على أن يفرغه في أوعيتكم».

ومن حكم الشافعي النوابغ «سياسة الناس أشد من سياسة الدواب»، ولقد صدق، فإن الإنسان الجاهل المغرور يعتقد في نفسه أنه كامل، وإذا اجتمع الجهل والغرور في إنسان تأبى على نصح الناصح الشفيق وتوجيه العاقل الرشيد، واستعصى على سياسة السائس المحنك.

ومنها «إن للعقل حدًا ينتهي إليه كما أن للبصر حدًا ينتهي إليه»، وصدق الإمام فإن العقول مهما بلغت فهي قاصرة ومهما تقدمت الكشوف وسفرت المساتير فلا يزال ما نجهله من أسرار الكون والخليقة أكثر مما نعلمه، وللعقول مهما ارتقت حد لا تعدوه، ولو جاوزته ضلت أو زلت، والعاقل حقًا من أسلم قلبه ووجهه إلى اللّه فيما لا تصل العقول إلى إدراك كُنهه وليفوض الأمر إلى اللّه أو إلى من عصمه اللّه من رسله، ولو علم الملحدون والمجترئون على اللّه بغير علم هذه الحقيقة لألقوا عصا الجحود والإنكار، ورفعوا راية الإذعان والإيمان، ولأراحونا وأراحوا أنفسهم من سفاسف الأمور، ولكن الأمر كما قال اللّه تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

ومن حكمه التي تعطينا صورة صادقة لنفسه الكبيرة وأخلاقه الكريمة: «لو علمت أن

الماء البارد ينقص مروءتي ما شربته »، « للمروءة أربعة أركان: حسن الخلق والسخاوة، والتواضع، والنسل »، « لا تكمل الرجال في الدنيا إلا بخصال أربعة الديانة، والصيانة، والرزانة والأمانة »، ومن حكمه التي تنم عن معرفة أصيلة عميقة بنفوس الناس وأحوال المجتمع « عاشر كرام الناس تعش كريما ولا تعاشر لئام الناس فتنسب إلى اللؤم وأظلم الظالمين لنفسه من تواضع لمن لا يكرمه، ورغب في مودة من لا ينفعه، وقبل مدح من لايعرفه »، « ما أكرمت أحدًا فوق مقدراه إلا وضع من قدري بمقدار ما زدت من إكرامه ». ومن وصاياه وقد قال له رجل أوصني فقال: « إن اللَّه خلقك حرًا فكن كما خلقك ». فهل سمعت في هذا المعنى أدعى إلى الدفاع عن الحرية والاعتزاز بالكرامة الإنسانية أفضل من هذه الوصية الذهبية؟ ومن قبل ذلك قال الفاروق عمر - رضي اللَّه تعالى عنه - لمن يحاولون أن يغتصبوا الحريات ويهدروا الكرامات: « علام استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهم أحرارا ».

ومن حكمه: « من نَمَّ لك نَمَّ بك، ومن نقل إليك نقل عنك، وإذا أرضيته قال فيك ما ليس فيك، وإذا أغضبته قال فيك ما ليس فيك »، ومنها: « خير الدنيا والآخرة في خمس خصال: غنى النفس، وكف الأذى، وكسب الحلال، ولباس التقوى، والثقة بالله على كل حال ».

وبعـدُ: فهذا وذاك قل من كثر مما نضح به قلب الشافعي وجادت به قريحته وجرى على لسانه من منثور القول ومنظومه، وفي الحكم المأثورة: « إن النفوس تمل كما تمل الأبدان فأتحفوها بطرائف الحكمة »، وقد أحببت أن أتحفك بهذه الطرائف إذ فيها غذاء القلوب والعقول وثقاف النفوس، ولعلي لا أكون قد أكثرت عليك؛ وسلام اللَّه ورحمته عليك.



(٤)

الإمام ابن حزم[(١)(٢)]

٣٨٤ - ٤٥٦هـ

(1)

في تاريخ الإسلام رجال كثيرون، صنعهم الإسلام بثقافته، وساهموا في الثقافة الإسلامية الأصيلة أيما إسهام، وشاركوا في الحياة العقلية، والتراث الإنساني مشاركة تستحق الإكبار والإعظام، وتركوا ثروة من المؤلفات والموسوعات التي لا تزال ذات تأثير في الثقافة المعاصرة، بل منهم من سبق إلى أفكار ومذاهب تشريعية واجتماعية وأخلاقية لم يعرفها الغرب إلا في العصور الأخيرة، مما يشهد للعقلية الإسلامية والعربية بالخصوبة، والإنتاج، والابتكار.

وضربوا في باب الحرص على العلم والمعرفة، وتحمل المشاق في سبيلها مثلًا عليا تعتبر مفخرة من مفاخر المسلمين والعرب، بل منهم من آثر العلم والبحث عن الحقيقة على الوزارة والرياسة، من هؤلاء العلماء الأفذاذ الإمام: أبو محمد بن حزم، وسنترجم له ترجمة موجزة ولكنها مركزة لنتعرف شيئًا من ملامح هذه الشخصية الفذة، ثم نعرض بعد ذلك لمؤلفاته التي تعتبر من ذخائر الإسلام وكنوزه القيمة، والتي كونت لَبِنَاتٍ في بناء التراث الإنساني، ولآرائه في باب التكامل الاجتماعي التي اعتمد فيها على القرآن والسنة، والتي تسجل له السبق في هذا المضمار.

من هو ابن حزم ؟

هو الإمام الحافظ المجتهد الناقد أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم[(٣)] بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد مولى يزيد بن أبي سفيان بن حرب ابن أمية بن عبد شمس الأموي، وهو من أئمة الظاهرية، وصاحب التآليف الممتعة

---

(١) مجلة الأزهر - الجزء السابع - السنة الثامنة والثلاثون.

(٢) للمزيد من سيرة ابن حزم انظر: سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٨٤)، وفيات الأعيان (٣/ ٣٢٥)، البداية والنهاية (١٢/ ٩١)، ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي للدكتور/ عبد الحليم عويس، وله ترجمة في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق بتحقيق الأستاذ سعيد الأفغاني، وكذا: ابن حزم فقهه وآراؤه للشيخ أبو زهرة. [الناشر].

(٣) فحزم ليس بأبيه ولكنه جد أبيه ولكن اشتهر بالنسبة إليه.

المفيدة، وذو النفس الطويل في كل ما يعرض له من بحوث ومسائل، وأحد علماء الأندلس الإسلامية.

وأصل أجداده من بلاد فارس فهو فارسي الأصل، وجده يزيد أول من أسلم من أجداده، وجده خلف أول من دخل الأندلس منهم، ولعله كان من جنود الفتح الإسلامي لهذه البلاد، وكان أبوه وزيرًا جليلًا كبير الشأن ببلاد الأندلس وزر في عهد المنصور محمد بن أبي عامر[١] الذي استأثر بالسلطان في عهد الخليفة هشام الثاني (٣٦٦-٤١٣هـ).

نشاته وحياته :

لئن كانت بغداد بلد العلم والخلافة في الشرق الإسلامي العربي، فقد كانت قرطبة بلد العلم والخلافة في الغرب الإسلامي العربي، وقد بقي البلدان بهذه المثابة بضعة قرون، فكم تخرج فيهما من فقهاء ومفسرين ومحدثين ومتكلمين وأدباء، ونحويين، ولغويين، وحكماء، وفلاسفة... وفي قرطبة- وعلى التحديد- في الجانب الشرقي منها وُلد ابن حزم، وكانت ولادته في رمضان سنة أربع وثمانين وثلاثمائة من الهجرة، وقد نشأ في مطارف النعيم والجاه والأبهة حتى قيل فيه: «كان أولًا يلبس الحرير، ولا يرضى من المكانة إلا بالسرير»، ولا عجَب فقد كان بيته بيت علم ووزارة، وقد كان أبوه وزيرًا للمنصور محمد بن أبي عامر، ووزر هو المستظهر بالله عبد الرحمن بن هشام مدة، ثم نبذ الوزارة، وأقبل على علوم الإسلام؛ فنال ما لم ينله أحد[٢].

وهكذا نرى أن ابن حزم صرف عن حياة الدعة والخمول، وزهد في الدنيا ومناصبها وآثر البحث والكد والتعب على الراحة والكسل، والعلم على الوزارة، والمجد الباقي على العرض الزائل، وهو مثل من الأمثلة الفريدة، في تاريخ الدنيا.

أحداث أثرت في حياته :

ويذكر الإمام الذهبي في تذكرته أحداثًا وقعت له أثرت في حياته واستحثته على البحث والعلم؛ ذلك أنه قدم (بَلَنْسِيَة) فوجد فيها مجلس علم، فصار يسمع ويتعجب ثم

---

(١) تذكرة الحفاظ (جـ٣ ص٣٢٣).

(٢) المرجع السابق.

سأل الحاضرين عن شيء من الفقه، فأجيب عنه، فاعترض عليه، فقال له بعض الحاضرين: هذا العلم ليس من منتحلاتك، فعز عليه هذا وأقبل على العلم ولقاء الأشياخ، ولم تمض إلا مدة وجيزة حتى قصد إلى ذلك الموضع الذي نيل منه فيه، فناظر أحسن مناظرة قال فيها: أنا تبع الحق، واجتهد ولا أتقيد بمذهب[١].

ويذكر أبو محمد عبد اللَّه بن محمد بن العربي عن ابن حزم أن سبب تعلمه الفقه أنه شهد جنازة فدخل المسجد فجلس ولم يركع ركعتين، فقال له رجل: قم فصلّ تحية المسجد- وكان ابن ست وعشرين سنة - قال: فقمت وركعت فلما رجعنا من الجنازة جئت المسجد فبادرت بالتحية، فقال لي: اجلس، اجلس، ليس ذا وقت صلاة يعني بعد العصر فانصرفت حزينًا وقلت للأستاذ الذي رباني: دلني على دار الفقيه أبي عبد اللَّه بن دحون، فقصدته وأعلمته بما جرى عليّ، فدلني على «الموطأ» فبدأت عليه قراءة، ثم تتابعت قراءتي عليه وعلى غيره ثلاثة أعوام، وبدأت بالمناظرة[٢].

ولعل في هذه القصة عبرة لكثيرين من أهل العلوم الدنيوية وأرباب الجاه والسلطان الذين لا يعلمون من أمور دينهم، وعلوم الشريعة ما يصححون به عباداتهم، ويعرفون الحلال من الحرام فيتزودوا من علوم الإسلام بما ينأى بهم عن المآثم والأخطاء، إن لم يبلغوا ما بلغ ابن حزم من مرتبة الفقه والاجتهاد.

شيوخه وتلاميذه:

من خصائص علماء الإسلام، ولا سيما علماء الرواية والحديث أنهم لا يأخذون العلم إلا من الشيوخ، والتلقي من الأفواه، لأن ذلك أدعى إلى الضبط والتوثق، وأبعد من الخطأ والتصحيف، ومن المعروف عند المحدثين قولهم: «لا يؤخذ العلم من الصحفيين»، أي الذين يأخذون الحديث من الصحف، ولا يعتمدون في الرواية على التلقي الشفاهي، وقد أخذ بهذا الأصل الذي يعتبر من قواعد علم «أصول الرواية» غير المحدثين من علماء التاريخ، واللغة، والأدب في العصور الأولى كما تجد ذلك واضحًا في الكتب التي ألفت في هذه العلوم في القرون الأولى، وإن كان المحدثون أشد تطبيقًا

(١) التذكرة (جـ٣ ص٣٢٤).

(٢) المرجع السابق (ص٣٢٦).

لأصول الرواية في الإسلام من غيرهم، وأكثر تدقيقًا فيها من غيرهم؛ لأنهم يعلمون أنهم يروون السنة، وهي الأصل الثاني من أصول التشريع في الإسلام.

فلا تعجب إذا كان ابن حزم أخذ العلم عن كثير من الشيوخ والأساتذة منهم أبو عمر أحمد بن الحسين، ويحيى بن مسعود بن وجه الجنة، ويوسف بن عبد اللَّه القاضي، وحمام بن أحمد القاضي، وعبد اللَّه بن ربيع التميمي، وعبد اللَّه بن محمد بن عثمان، وأبي عمر الطلمنكي[1]، وأخذ المنطق عن الشيخ محمد بن الحسين المذحجي القرطبي المعروف بابن الكتاني، وكان أديبًا شاعرًا طبيبًا، له في الطب رسائل، وكتب في الأدب[2].

وأخذ عنه العلم تلاميذ كثيرون من مشاهيرهم: الحافظ أبو عبد اللَّه الحُميدي، وقد أكثر من الأخذ عنه، وابنه أبو رافع، وكان ابنه هذا سريا فاضلًا، وكان في صحبة المعتمد بن عباد صاحب «أشبيلية» وغيرها من بلاد الأندلس، وكان له مع المعتمد هذا موقف كريم مما زاده كرامةً وحبًّا عنده[3]، وآخر من روى عنه بالإجازة أبو الحسن شريح بن محمد.

حفظه للحديث وفقهه:

وكان أبو محمد بن حزم حافظًا للحديث، عالمًا بعلومه وفقهه، مستنبطًا للأحكام من الكتاب والسنة صاحب اجتهاد، واستقلال، ورأي، وقد كان في مبدأ أمره شافعي المذهب، ثم انتقل إلى مذهب أهل الظاهر، ونفى القول بالقياس، وتمسك بظواهر القرآن والسنة وعمومها، والبراءة الأصلية حتى صار من أشهر أئمة الظاهرية بعد داود الظاهري.

سعة علمه وتفننه:

وكان إليه المنتهى في الذكاء والحفظ، وسعة الدائرة في العلوم، ولم يقتصر علمه على الحديث وحفظه، والفقه واستنباط الأحكام كما هو الشأن في كثير من علوم الحديث والفقه، ولكنه تفنن في علوم أخرى كالمنطق، والفلسفة، وعلوم اللغة والبلاغة والأدب، والمعرفة بالسير والأخبار حتى قال تلميذه أبو عبد اللَّه الحميدي: ما رأينا مثله

(١) تذكرة الحفاظ (جـ٣ ص٣٢٢).
(٢) وفيات الأعيان (جـ٢ ص٢٢).
(٣) المرجع السابق (ص٢٤).

فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ، وكرم النفس والتدين، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه، ثم قال: أنشدني لنفسه:

لئن أصبحتُ مُرتحلًا بجسمي فروحي عندكم أبدًا مُقيمُ
ولكن للعِيانِ لطيف معنى لهُ سأَلَ المُعَاينةَ الكليمُ

وله أيضًا في المعنى:

يقول أخي: شجاك رحيلُ جسمٍ ورُوحُك ماله عنَّا رحيلُ
فقلت له: المعاينُ مطمئنٌ لذا طلب المعاينةَ الخليلُ

وقال ابن بشكوال في حقه: كان أبو محمد - يعني ابن حزم - أجمع أهل الأندلس قاطبةً لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان، ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار.

فلا تعجب إذا كان ولده أبو رافع الفضل بن أبي محمد قال: إنه اجتمع عنده بخط أبيه من تأليفه نحو أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة[1]، وهذا يدل على التفاني في سبيل العلم، وعدم إضاعته دقيقة من العمر في غير النافع، وهذه القصة تذكرني بما ذكر عن الإمام العلامة محمد بن جرير - أبي جعفر الطبري - من أنه مكث أربعين سنة يكتب كل يوم أربعين ورقة[2]، وكذلك نقل عن كثير من أئمة العلم في الإسلام نحو هذا، وهي مثل مشرفة، وقمم عليا ينبغي أن يحتذيها في حاضرنا رجال العلم، وشباب الطلاب في الجامعات والمعاهد، ليصلوا حاضرنا بماضينا الزاهر، ويحيوا ما درس من هذه المثل العلمية الرفيعة.

وقد أثنى عليه بالتوسع في العلوم والفنون صاعد بن أحمد، وبالحفظ وسيلان الذهن تلميذه الحميدي، والإمام أبو حامد الغزالي قال: وجدت في أسماء اللّٰه الحسنى كتابًا ألفه أبو محمد بن حزم يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه[3].

أخلاقه وزهده:

كان ابن حزم يجمع إلى العلم الخلق، والتدين الصادق، والزهد في الدنيا

(١) وفيات الأعيان (جـ٢ ص٢٢)، البداية والنهاية (جـ١٢ ص٩١).
(٢) أعلام المحدثين للكاتب (ص٢٩٣).
(٣) التذكرة (جـ٣ ص٣٢٣).

ومناصبها، والعمل بعلمه، قال ابن خلكان: «كان متفننًا في علوم جمة، عاملًا بعلمه، زاهدًا في الدنيا بعد الرياسة التي كانت له- ولأبيه من قبله - في الوزارة وتدبير الملك، متواضعًا ذا فضائل جمة، وقال الحافظ الناقد أبو عبد اللّه الذهبي: «كان صاحب فنون فيه دين وتورع، وتحر للصدق، وتزهد».

وقد تعرض ابن حزم في حياته لمحن وفتن كثيرة بسبب صلابته فيما يعلم أنه حق، واعتداده بنفسه، ونيله من بعض العلماء الكبار، واختلفت آراء العلماء فيه ما بين مثنٍ ومؤيد، وشانئ ومعارض، وهو ما سنعرض له في المقال الآتي إن شاء اللّه تعالى.



الإمام ابن حزم[(١)]

٣٨٤ - ٤٥٦هـ

(2)

منحاه في الاجتهاد والفقه :

كان ابن حزم من أئمة الظاهرية، ويرجع هذا المذهب إلى مؤسسه الإمام داود بن علي بن خلف البغدادي مقامًا، الأصبهاني أصلًا، لذلك نرى لزامًا أن نُعرف به تعريفًا موجزًا[(٢)].

ولد داود بن علي سنة مائتين، وقيل سنة اثنتين ومائتين، ولقد تخرج على تلاميذ الشافعي، والتقى بكثير من أصحابه، وكان معجبا بالشافعي أشد الإعجاب، وله في فضائله كتاب، وقد سمع الكثير من محدثي عصره في بغداد وغيرها، وارتحل إلى نيسابور لسماع الحديث من علمائها، وكان ورعًا تقيًا زاهدًا في الدنيا، راضيا بالقليل منها، وكان ممن لا يقبلون جوائز الخلفاء والأمراء، فهو مثل الإمام أحمد في هذا، وقد جمع إلى العلم بالحديث فصاحة اللسان، والقدرة على الجدل، وقوة الحجة، وحضور البديهة، وشجاعة الرأي، لايخشى في الجهر بما يعتقد لومة لائم، ذكر الخطيب البغدادي عن أبي عمرو والمستملي قال سمعت داود بن علي يرد على إسحاق - يعنى ابن راهويه - وما رأيت أحدًا قبله ولا بعده يرد عليه هيبة له، وكان واسع العقل كيسًا فطنًا، ولذلك وصفه واصف فقال: كان عقله أكبر من علمه، وقد حرص على لقاء إمام أهل السنة أحمد بن حنبل ولكنه أبي لقاءه لما بلغه عنه القول بخلق القرآن.

وكان في أول أمره شافعيًا يأخذ بمنهج الإمام الشافعي في الاستدلال، ثم تركه وأخذ بظواهر القرآن والسنة والإجماع، وأبطل القياس ولم يأخذ به، ولما قيل له: كيف تبطل القياس وقد أخذ به الشافعي؟ قال: «أخذت أدلة الشافعي في إبطال الاستحسان فوجدتها تبطل القياس» ولهذا عزف عن مذهبه، وكما خالف داود جمهور الفقهاء في

---

(١) مجلة الأزهر، الجزء الثالث، السنة التاسعة والثلاثون.

(٢) ترجمة داود الظاهري في سير أعلام النبلاء(١٣/٩٧)، وتاريخ بغداد(٨/ ٣٦٩)، والبداية والنهاية(١١/٤٧) . [الناشر].

أصول الأدلة خالفهم كذلك فيما أجمعوا عليه مثل، تجويزه للجنب والحائض مس المصحف، وقراءة القرآن[١]، وقد أجمعوا على أنه أول من قال بالمذهب الظاهري[٢].

ومع علمه الواسع بالسنة قد تحاشى الكثيرون الرواية عنه، والظاهر أن السبب في هذا انزلاقه إلى القول بخلق القرآن ومخالفته لجمهور الفقهاء في الأصول الاستدلالية، والفروع الفقهية.

وقد نشأ المذهب الظاهرى على يده بالمشرق، وانتشر على يد تلاميذه من بعده حتى قيل: إنه كان يعد رابع المذاهب في القرن الرابع الهجري، والثلاثة الذين كان رابعهم: المذهب الحنفي، والمالكي، والشافعي، ولكن لم يلبث أن حل محله المذهب الحنبلي على يد القاضي أبي يعلى المتوفى سنة ٤٥٨هـ فقد نصر المذهب وجعل له مكانة زحزحت المذهب الظاهري عن مكانته وحل محله.

انتقال المذهب الظاهري إلى الأندلس وازدهاره فيها:

ثم انتقل المذهب الظاهري إلى الأندلس بسبب رحلات العلماء المستمرة بين الشرق والغرب الإسلاميين، وأخذ ببعضهم عن بعض، وتلاقح الأفكار والمذاهب، ثم خبا ضوءه في الشرق، وبدأ نوره يسطع في الغرب، فقد وجد أرضًا صالحة في الأندلس، ولم يلبث أن بلغ الازدهار على يد ابن حزم الذي يعتبر بحق المؤسس الثاني لهذا المذهب، حتى كاد الناس يتناسون المؤسس الأول داود بن علي، وأصبح المذهب مقترنا باسم ابن حزم.

« نشأة ابن حزم الفقهية »:

قد قدمت في المقام الأول أن ابن حزم اشتغل بطلب الحديث والفقه حتى برع فيهما

---

(١) مس الحائض والجنب للمصحف قال بجوازه غير واحد من أهل العلم، ونقل ذلك الطبري عند تفسيره لآية الواقعة ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾، أما القراءة دون المس- للحائض والجنب - فقد حكى ابن حجر في الفتح (١/ ٤٨٦) القول به عن: البخاري، والطبري، وابن المنذر، وداود؛ لقول عائشة رضي الله عنها كما عند مسلم (٣٧٣): «كان النبي ﷺ يذكر الله على كل أحيانه». والذكر يشمل القرآن، وهناك أثر موقوف علقه البخاري في الصحيح بصيغة الجزم ووصله ابن أبي شيبة وابن المنذر كما قال الحافظ عن ابن عباس: قال البخاري رحمه الله: «ولم ير ابن عباس بالقراءة للجنب بأسًا». وفي المسألة خلاف مشهور. [الناشر].

(٢) ابن حزم للأستاذ الجليل محمد أبي زهرة ص٢٦٢ وما بعدها.

والذي يظهر أن دراسته الحديثية كانت أسبق من دراسته الفقهية لأن العادة التي كانت سائدة في العالم الإسلامي آنئذ الابتداء بحفظ القرآن ثم بحفظ السنة، وقد يسيران جنبا إلى جنب، لأنهما أصل العلم ومرجع الأدلة، ثم يكون بعد ذلك طلب الفقه والاجتهاد في الاستنباط، لأن الدراسة الفقهية تحتاج إلى إعمال فكر وروية، وبذل الجهد في استخراج الأدلة والموازنة بينها. ومثل هذا يحتاج إلى سن يكون الفقيه فيها قد بلغ الرشد العقلي، والنضج الفكري، وإن تفاوت الأئمة في هذا على حسب تفاوتهم في الاستعداد والتكوين، والتحصيل، والتفرغ فمن ثم لا نرى استبعادًا لما ذكره العلماء المترجمون له من سبب إقباله على تعلم الفقه، وهو جهله ببعض الأحكام الفقهية وهو في سن الشباب، وسنه ست وعشرون.

وقد ذكر الكاتبون في تاريخ حياته أنه ابتدأ بدراسة المذهب المالكي لأن الفقهاء الذين ذكر أنه درس عليهم كانوا مالكيين، فابن دحون كان فقيهًا مالكيًّا عليه مدار الفتيا في قرطبة، وابن الفرضي كان قاضي بلنسية. وقد أخذ عنه الفقه والحديث، فمن الطبيعي أن يكون تلقى عنهم فقه مالك كشأن أكثر أهل الأندلس عامة، وذوي الجاه والمناصب منهم خاصة، لأن الغالب أنهم لا يشذون عن المعروف عند عامة الشعب بحكم البيئة والأحوال التي يعيشون فيها

ثم انتقل إلى المذهب الشافعي، ولم يعرف في شيوخه من هو شافعي؛ وإن كانت الأندلس لا تخلو من فقهاء الشافعية، والظاهر أنه استقى فقه الشافعي وطريقته في الاجتهاد والاستدلال من كتبه المشهورة «كالأم»، «والرسالة»، وكتب الفقهاء الشافعية من أمثال أمية الحجازي الذي قال في أحد كتبه: إنه كان شافعي المذهب.

ثم انتهى به المطاف إلى مذهب الظاهرية، وهو الذي استقر عليه، ودافع عنه دفاعًا مجيدًا، وقد تلقى ذلك عن بعض شيوخه وأساتذته من أمثال أبي الخيار مسعود بن سليمان المتوفى سنة ٤٢٦هـ، وقد كان ظاهريا، وله اختيار حسن في الفقه، قال فيه الضبي: «مسعود فقيه عالم ظاهري، يميل إلى الاختيار والقول بالظاهر، ذكره أبو محمد ابن حزم، وكان أحد شيوخه»[1].

---

(١) ابن حزم ص ٨٥.

كما استفاد أيضًا من الكتب المؤلفة في هذا المذهب مثل ما كتبه منذر بن سعيد قاضي قرطبة، وخطيب الأندلس، وفصيحها، وبليغها، فقد كان ظاهري المذهب، وألف كتبًا دافع فيها عن مذهب داود دفاعًا قويًا، قال المقري في نفح الطيب: «وكان منذر بن سعيد متفننا في ضروب العلم، وغلب عليه التفقه بمذهب أبي سليمان داود بن علي الأصبهانى المعروف بالظاهرى، فكان منذر يؤثر مذهبه، ويجمع كتبه، ويحتج لمقالته ويأخذ به في نفسه وذويه، فإذا جلس للحكومة يقضي بمذهب مالك وأصحابه، وهو الذي عليه العمل بالأندلس، وحمل السلطان أهل مملكته عليه»[1].

وهذا النص يدلنا على أن القاضي منذر بن سعيد كان عالمًا بالفقهين: المالكي والظاهري، وإن كان يؤثر الثاني في خاصة نفسه وأهله، إرضاءً لميوله الفقهية، ويحكم بالأول إطاعة لولي أمر المسلمين، ولعله - أيضًا - درس أول ما درس الفقه المالكي، وهو المذهب السائد، ثم انتقل منه إلى المذهب الجديد، وهو المذهب الظاهري، الذي لقي هوىً وقبولًا من بعض علماء الأندلس، والعلم بأكثر من مذهب يتيح للقاضي دراسة فقهية مقارنة، تساعده على الوصول إلى الحق والصواب فيما يحكم به بين الناس، كما تضيء له السبيل إذا استشكلت الأمور، وتجعله يتصرف تصرف القاضي العالم الحاذق لا القاضي ضيق الأفق.

والذين كتبوا عن ابن حزم لم يذكروا أنه أخذ بمذهب أبي حنيفة أو أحمد؛ ولكن مما لا نشك فيه أنه درس المذهبين أصولًا وفروعًا في كتب المنتمين إلى المذهبين، ومن اطلع على مناقشاته للأئمة الأربعة فيما خالفهم فيه لا يشك في هذا؛ فهو كلام رجل عارف بأصول هذين المذهبين وفروعهما، وفي كتابه «المحلى» ما يشهد لذلك شهادة واضحة، فابن حزم إذن درس الفقه دراسة مقارنة على أوسع مدى، والظاهر أنه اكتسب القوة الجدلية، والقدرة على الاحتجاج للآراء أو عليها، مما قرأه في كتب الإمام الشافعي وما قرأه أيضًا في كتب أصحاب أبي حنيفة، وما أثاره فقهاء هذين المذهبين من مجادلات طويلة وتحاج بينهما، وكثيرًا ما يرد على أصحاب المذاهب بما اصطلحوا عليه من قواعد وأصول حتى القياس وإن كان لا يقول به، ولا يعول عليه.

---

(١) المرجع السابق ص ٢٨٢.

أصول مذهب ابن حزم:

وأصول مذهب ابن حزم هي أصول المذهب الظاهري الذي أسسه داود بن علي وهي الاعتماد في الاستدلال للأحكام على:

١- القرآن الكريم. ٢- السنة النبوية. ٣- الإجماع.

أما القياس، والقول بالرأي والاجتهاد فهما باطلان عنده، فهو لم يعتمد على نصوص القرآن والسنة معللة بحيث تعرف علتها ويقاس عليها غيرها، كما هو الشأن في منهاج الأئمة الأربعة، فهم يدرسون النصوص ويتعرفون الأحكام منها، ولا يكتفون بذلك بل يتعرفون على علة الحكم، ثم يعممون الحكم الذي ورد به النص في كل موضع تحققت فيه العلة، وهو ما يعرف بالقياس الفقهي، وهو إعطاء حكم أصل لفرع لعلة مشتركة بينهما، والقياس أو الأخذ بالرأي والاجتهاد المستوفي لشروطه التي نص عليها العلماء جعله الفقهاء الأربعة الأصل الرابع من أصول الاستدلال على الأحكام.

على أن من الأئمة من وقف في الاجتهاد والأخذ بالرأي عند القياس، كما فعل الإمام الشافعي، أما الإمام أبو حنيفة فلا يقف عند القياس؛ بل يفتح الباب للاستحسان والعرف إلى جانب القياس، ومن مأثور كلامه في هذا: «الحديث الضعيف أولى عندي من رأي الرجال» ومراده بالضعيف الحسن لغيره. والإمام مالك يفتح مع القول بالقياس بابًا للمصالح المرسلة وسد الذرائع، والإمام أحمد يأخذ بالقياس كالأئمة الثلاثة إلا أن الأخذ به يضيق عنده؛ لأن علمه الواسع بالسنة ومذاهب الصحابة والتابعين وفتاواهم هيأ له أن يجد لكل حالة تعرض حكمًا من غير أن يلجأ إلى القياس أو الرأي، وقد حمل ابن حزم على القائلين بالقياس والاجتهاد حملات شعواء، ولم تقتصر مخالفته للأئمة على الأصول بل خالفهم في كثير من الفروع. بل خالفهم في أمر مجمع عليه؛ فهو يجوز - كشيخ مذهبه داود - للجنب وللحائض مس المصحف وقراءة القرآن، ولم نعلم لابن حزم وشيخه سلفًا في هذا[1] ! !

---

(١) سبق الكلام عن هذه المسألة ولهما سلف فيها هو: ابن عباس كما في تفسير الطبري لآية الواقعة، وتبعه سعيد بن جبير ومجاهد وأبي العالية وقتادة. انظر تفسير الطبري (٢٧/ ٢٠٥). [الناشر]

الدليل والاستصحاب:

والظاهرية، وإن لم يقولوا بالقياس، يزيدون على الأصول الثلاثة: الدليل والاستصحاب وقد بين ابن حزم في كتابه «الإحكام في أصول الأحكام»[١] أن الدليل ليس هو القياس وخَطَّأ من يقول ذلك، وأن القول بالدليل ليس فيه خروج عن النص والإجماع لأن الدليل هو أمر مأخوذ من الإجماع أو النص، فهو مولد منهما مفهوم من دلالتهما، وليس حملا عليهما باستخراج علته، واضطراد الحكم في كل ما توجد فيه هذه العلة. وقد قسم الدليل إلى سبعة أقسام، وضرب الأمثلة لها، ونكتفي في هذا المقام بقسم ومثاله منها قال:

القسم الأول: أن يكون النص مشتملًا على مقدمتين، وتُرِكَت النتيجة ولم ينص عليها فيكون استخراج النتيجة من المقدمتين هو الدليل، ويضرب لذلك مثلا وهو قول النبي ﷺ: «كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٍ، وكل خمر حرام» فهاتان مقدمتان ينتج عنهما حقًّا: أن كل مسكر حرام، فهو لا يعتبر تحريم كل مسكر غير المنصوص عليه من أنواع الخمور أخذًا بالقياس؛ بل يعتبره من تطبيق ذلك النص وهذه النتيجة، وإن لم يصرح بها النبي؛ فهي مفهومة من النص، لأن النتائج دائمًا مطويات في المقدمات... إلى آخر ماذكر من الأمثلة[١].

وقد ألزم المخالفون لابن حزم والظاهرية بأنهم إذا كانوا نفوا القياس حجة شرعية فإنهم اضطروا إلى إثبات ما نفوا وتقرير ما أبعدوا وسموه الدليل، بدل أن يسموه القياس، كما ذكر ذلك الخطيب في الكلام عن داود الظاهري، وفي الحق أن النظر فيما ساقه من الأمثلة يؤيد ما قاله ابن حزم من أنه إعمال للنص، ولما فهم منه، وليس من القياس الفقهي المعروف، اللهم إلا إذا أرادوا أن إعمال الفكر في النص يسمى قياسًا ورأيًا، وهذا ليس مناط الاختلاف، وأيضًا قد قالوا بالاستصحاب، وقد عرفه ابن حزم: بأنه بقاء حكم الأصل الثابت بالنصوص حتى يقوم الدليل منها على التغيير، وقد انتهى به البحث إلى أن الأصل في الأشياء الإباحة، ويستدل على ذلك بالنص، وهو قوله تعالى

---

(١) جزء ٥، ص١٠٦، ١٠٧.

(٢) ابن حزم ص٣٦٤- ٣٦٦.

لآدم إذ أنزله إلى الأرض: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦]، فأباح الله الأشياء لقوله إنها متاع لنا، ثم حظر ما شاء، وكل ذلك بشرع، وبهذا يكون المذهب الظاهري قد فتح باب البقاء بحكم الاستصحاب على مصراعيه، ويتسع المذهب بذلك، ولا يكون مضيقًا من كل الوجوه كما يبدو بادئ الرأي؛ لأنه يفتح باب الإباحة في أمور كثيرة، قد يكون الفقهاء القياسيون مضيعين فيها، بينما هو يوسع بحكم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦].



الإمام ابن حزم[١]

٣٨٤ - ٤٥٦ هـ

(3)

« آراؤه في العقائد[٢] » :

كان الإمام ابن حزم سلفي الاعتقاد؛ فهو يؤمن بالنصوص المتشابهة من القرآن والسنة من غير تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل، وكان يقول: القرآن كلام اللّٰه غير مخلوق قولًا جازمًا قاطعًا، وبذلك سار على منهج شيخ السنة والجماعة الإمام أحمد بن حنبل، وقد خالف بقوله هذا شيخه داود بن علي، مؤسس المذهب الظاهري؛ فقد كان داود يقول: القرآن محدث مخلوق، وقد أنكر على داود مُعَاصِرهُ الإمام أحمد بن حنبل، ولم يقبل لقاءه من أجل هذا، ومخالفة ابن حزم لشيخه تدل دلالة أكيدة على أنه كان مستقل الرأي والتفكير لا يقول إلا بما انقدح في ذهنه مما تدل عليه الأدلة والنصوص، ولا يقلد أحدًا مهما بلغت رتبته، وحين تراه يخالف مؤسس المذهب في هذا تجده يوافقه في مسائل أخر شذ بها شيخه عن إجماع العلماء مثل قوله: إنه يجوز للجنب والحائض مس المصحف، وقراءة القرآن.

---

(١) مجلة الأزهر، ج٦، السنة ٣٩.

(٢) أُخِذَ على ابن حزم رحمه اللّٰه أنه ممن قال: ليس لله تعالى إلا تسعة وتسعون اسمًا، وهذا القول فيه نظر؛ بل هو مردود؛ لقوله ﷺ كما في الحديث الذي رواه أحمد والحاكم وابن حبان عن ابن مسعود رضي اللّٰه عنه؛ أن رسول اللّٰه ﷺ قال: « . . . أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحد من خلقك، أو اعتأثرت به في علم الغيب عندك. . . » الحديث. وما استأثر اللّٰه به من أسمائه في علم الغيب عنده ليس بمنحصر في التسعة والتسعين، وانظر شرح القواعد المثلى للشيخ ابن عثيمين رحمه اللّٰه، وكذلك أُخِذَ على ابن حزم رحمه اللّٰه قوله: إن أسماء اللّٰه لا تدل على المعاني؛ فلا يدل عليم على علم، ولا قدير على قدرة، بل هي أعلام محضة، وهذا مذهب الجهمية ومن نحا منحاهم، فصفات اللّٰه تعالى يجب أن تثبت له تعالى وتجرى على ظاهرها من غير تشبيهها بصفات المخلوقين ومن غير تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل، ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وكل اسم للّٰه دال على صفته، وينبغي علينا أن نراعي في ذلك أمور منها مثلًا: اسم الرحيم، ينبغي أن نؤمن به اسمًا للّٰه، كما نثبت له تعالى صفة الرحمة، والأثر المترتب على ذلك: أنه يرحم من يشاء من عباده. وانظر أقوال ابن حزم في الصفات ورد شيخ الإسلام ابن تيمية على ذلك فى الفتاوى (٦/ ٣٨٢)، ومنهاج السنة (٢/ ٥٨٣). [الناشر].

« آراؤه في السياسة » :

كان ابن حزم يرى أن الإمامة واجبة، وأنه لابد من إقامة إمام وخليفة ينفذ الأحكام ويقيم الحدود، ويحمل الناس على سلوك طريق السعادتين - الدنيوية والأخروية - كما كان يرى أن الإمام من قريش لا محالة لأن حديث « الأئمة من قريش » متواتر عند ابن حزم والمتواتر يفيد القطع واليقين، كما كان يرى أن الصحابة متفاضلون بحسب تفاضلهم في الفضل والسبق إلى الإسلام، وإن كان شذ حيث فضل نساء النبي صلوات الله وسلامه عليه على جميع الصحابة؛ لأنهن في درجته ﷺ في الجنة، قال الإمام السبكي: وهو قول ساقط مردود[١].

« بعض آرائه الأصولية والفقهية »:

يرى ابن حزم أن خبر الواحد العدل الضابط عن مثله يفيد العلم والعمل، وإليك ما قاله في هذا: «وقال أبو سليمان[٢]، والحسين بن علي الكرابيسي، والحارث - يعني ابن أسد - المحاسبي: إن خبر الواحد العدل عن مثله إلى رسول الله ﷺ يفيد العلم والعمل معًا، وبه نقول: وقد ذكر هذا القول عن مالك، وقال الحنفيون والشافعيون وجمهور المالكيين وجميع المعتزلة والخوارج إن خبر الواحد لا يوجب العلم »[٣]، ولهذا أخذ ابن حزم بأحاديث الآحاد في العقائد، وإن لم تكن متواترة[٤].

ومن آراء ابن حزم الفقهية جعل العبد كالحر في نكاح أربعة، وفي التسري، وفي الحقوق أما العقوبات فجعله فيها على النصف لثبوت النص، وقد خالف في الأول جمهور الفقهاء، ومن مخالفته لجماهير الفقهاء قوله بحل التزوج بابنة الزوجة وهي الربيبة إذا لم تكن في حجره، ولم يدخل بأمها، ويشترط للحرمة أن تكون البنت في

---

(١) فتح الباري ج٧ ص٨٣، ١٠٤.

(٢) هو أبو سليمان داود بن علي شيخ الظاهرية.

(٣) الإحكام، ج١ ص١١٩ وما بعدها، وهذا الفصل من النفاسة بمكان.

(٤) وهذا هو الراجح، فأخبار الآحاد حجة في العقائد كالمتواتر، فقد كان النبي ﷺ يرسل الرسول الفرد إلى بلاد شتى يدعوهم للإسلام والصلاة والزكاة، وكلها عقائد وأحكام على السواء، ولم يكونوا يطلبون عددًا متواترًا ليؤمنوا، بل كانوا يستجيبون ويأخذون بخبر الواحد، والسنة مليئة بالأدلة على ذلك، وللتوسع انظر: «حجية خبر الآحاد في العقائد» للشيخ المحدث الألباني رحمه الله. [الناشر].

الحجر، وأن يدخل بأمها، وقد سبقه إلى هذا شيخ الظاهرية داود بن علي وأصحابه، وهذا في الحقيقة جمود منهم على النص، والتمسك بالحرفية من غير نظر إلى حكمة التشريع ومغازيه السامية، وجمهور الفقهاء على حرمة الربيبة مطلقًا سواء أكانت في حجر الإنسان أم لا، وما ذكر في الآية من القيود الغالبية التي لا مفهوم لها[١]، إلى غير ذلك من الآراء الكثيرة التي خالف فيها جماهير الفقهاء، وبحسبنا هذا القدر في هذا المقام.

موقف العلماء من ابن حزم:

على حين نرى كثيرًا من العلماء أثنوا على ابن حزم كالحميدي، وابن بشكوال، وأبي القاسم بن صاعد والغزالي، والذهبي في تذكرته وابن العربي وغيرهم نرى البعض الآخر أزرى به، وحط من قدره كالقاضي أبي بكر بن العربي في كتابه «القواصم والعواصم»؛ فقد أنحى على الظاهرية وعلى حامل لواء مذهبهم ابن حزم باللائمة، وتناول بعض كتبه ورسائله بالنقد والرد[٢]، وكذلك كانت بين ابن حزم وبين أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي مناظرات ومجالس وأمور يطول شرحها[٣].

وفي الحق أن ابن حزم كان عالمًا بارعًا متفننًا في علوم كثيرة ولم تقتصر معارفه على العلوم الشرعية واللغوية بل تعدى ذلك إلى تاريخ الملل والنحل والمنطق والفلسفة ونحوها، ولكنه كان معتدًا بنفسه فيما يرى أنه حق، ويرى أن رأيه هو الصواب والحق، وما عداه فهو خطأ وباطل، فمن ثم كان لسانه حادًا صارمًا على كل من خالفه من الأئمة كبيرهم وصغيرهم، حتى لقد قال فيه أبو العباس بن العريف: «كان لسان ابن حزم، وسيف الحجاج بن يوسف الثقفي شقيقين»، بل لقد بلغ من أمره أن تجاهل إمامًا كبيرًا من أئمة الحديث والفقه، وهو أبو عيسى الترمذي. فقال: ومن أبو عيسى الترمذي هذا؟ وهذا التجاهل لمثل هذا الإمام لا يعود عليه بالنقص بقدر ما يعود على ابن حزم بالمذمة والملام.

وقد علل بعض الكاتبين في حياته حدته وعنفه في الجدل والنقد، وسلاطة لسانه بأمرين:

---

(١) تفسير ابن كثير والبغوي ج٢ ص٣٩٤، ٣٩٥.

(٢) تذكرة الحفاظ للذهبي ج٣ ص ٣٣٤.

(٣) وفيات الأعيان جـ٢ ص٢٣.

١- ما أحسه من إرادة السوء به، وإنزال الأذى بكتبه، وأي أذى من أن يرى العالم ثمرات فكره، ونتاج حياته يحرق.

٢- ما أصابه من علة سببت له مرض الربو مما سبب له ضيق الخلق، وحدة المزاج وقلة الصبر[١].

وأنا، وإن كنت أوافق على السبب الثاني، فلا أسلم السبب الأول، لأن حرق كتبه كان في أخريات حياته وسلاطة اللسان، وحدة الطبع لازمتاه من صغره، وقد يكون السبب الأول عندي ما أحس به من مرارة وألم حينما سخر منه بعض العلماء لجهله ببعض الأحكام الفقهية مما كان سببًا - كما ذكرنا - في إقباله على الحديث والفقه حتى أصبح إمامًا يشار إليه بالبنان، فاقتص لنفسه من كل مخالفيه.

ما جناه من حدته وجراته :

وقد نَفَّرَ منه مسلكه في النقد والجدل القلوب فاستهدف لحملة قوية من أتباع الفقهاء من علماء وقته، فتمالأوا على بغضه وردوا أقواله، وأجمعوا على تضليله، وكالوا له بدل الصاع صاعين وشنعوا عليه، ولم يكتفوا بتحذير العوام من آرائه وأفكاره والأخذ عنه، بل حذروا السلاطين والخلفاء من فتنته. وسعوا به عندهم، فأقصاه الملوك والأمراء وشردوه عن بلده، ولم تسلم كتبه من الطعن والتقليل من شأنها، حتى لقد أحرق بعضها بأشبيلية، ومزقت علانية، وبعضها لم يجاوز بلده[٢] وقد أثر في نفسه حرق كتبه وتمزيقها، وآلمه أنها لم تحظ بما كان يعتقد أنها أهل له من العناية بها وحسن القبول، ومما قاله في هذا الصدد يعزي نفسه:

دَعُـونـي مـن إحـراقِ رق وكـاغـد وقُولوا بعلم كي يَرَىَ الناسُ مَنْ يدري
وإلا فـعـودوا لـلـكـاتـب بـدأة فكم دون ما تبغون للَّهِ مِنْ سِتْرِ

وقال أيضًا:

فإن تَحْرِقوا القِرْطَاسَ لا تحرقوا الذي تَضَمَّنَهُ القرطاس بل هو في صدرِي
يَسِيرُ معي حيث استقلت ركائبي ويَنْزِلُ إذ أَنْزِلُ ويُدْفَنُ في قَبْرِي

---

(١) ابن حزم ص ٧٥.
(٢) تذكرة الحفاظ ج٣ ص ٣٢٦.

وأمر آخر كان سببًا في التشغيب عليه وتنفير الناس منه ومن كتبه، ذلك أنه كان متشيعًا لأمراء بني أمية ماضيهم وحاضرهم، واعتقاده بصحة إمامتهم حتى رُمِيَ بالنصب - بغض سيدنا علي وآل بيته[1] - فهذه السلاطة والحدة في الجدل والنقاش، والنيل من العلماء الكبار ولاسيما أصحاب المذاهب المتبوعة، والانحراف عن علي وآل بيته وممالأة الأمويين كانت من أهم الأسباب فيما نزل به وبكتبه من محق وحرق، وتشريد وتغريب.

ومن عجب أن كتب ابن حزم التي أحرقت ومزقت ولم تحظ بالقبول عند كثير من أهل عصره المنحرفين عنه حظيت بالقبول والرضا عند الكثيرين من العلماء الذين جاءوا بعد عصره إلى وقتنا هذا، وهكذا شاء اللّه سبحانه لعلم ابن حزم أن يرزق القبول، ولكتبه أن ينتفع بها غاية الانتفاع، حتى أصبحت في عصرنا من المراجع المهمة التي يرجع إليها القضاة والمفتون، والفقهاء والمجتهدون، والمدرسون والمصلحون، والوعاظ والمرشدون، والفلاسفة والحكماء، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على إخلاص الرجل في تآليفه وعلمه، وقصده وجه اللّه سبحانه، ويعجبني في تقدير هذا الإمام هذه المقالة المنصفة من الإمام أبي عبد اللّه الذهبي - وهو من أهل الاستقراء التام في نقد الرجال - قال في تذكرته: ابن حزم رجل من العلماء الكبار فيه أدوات الاجتهاد كاملة، تقع له المسائل المحررة، والمسائل الواهية كما يقع لغيره، وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول اللّه ﷺ، وقد امتحن هذا الرجل وشدد عليه وشرد عن وطنه وجرت عليه أمور لطول لسانه، واستخفافه بالكبار، ووقوعه في أئمة الاجتهاد بأقبح عبارة وأفظ محاورة وأمنع رد، وجرى بينه وبين أبي الوليد الباجي مناظرة ومنافرة[2] وقال في موضع آخر تعليقًا على كلام أحد العلماء المنصفين له: هذا القائل منصف؛ فأين كلامه من كلام أبي بكر بن العربي وهضمه لمعارف ابن حزم؟! هذا وقد تمخضت حياة ابن حزم - على الرغم مما ناله من محن وتشريد واضطهاد - عن كتب قيمة ومؤلفات كثيرة، كثير منها يعتبر من المعالم التي يعتز بها الفكر الإنساني، وتعتز بها الثقافة الإسلامية الأصيلة، وسنفرد لهذه المؤلفات المقال الآتي إن شاء اللّه تعالى.

---

(١) تذكرة الحفاظ ج٣ ص٣٢٦.

(٢) المرجع السابق ص٣٢٨.

الإمام ابن حزم[١]

(4)

مؤلفات ابن حزم:

لقد تمخضت حياة ابن حزم العلمية عن مؤلفات كثيرة في الحديث والفقه وأصوله والسيرة النبوية والملل والنحل، والأخلاق، والمنطق ونحوها، وبعضها يصل إلى حد المعلمات، وهي ترتفع به إلى درجة العلماء المنتجين الخالدين الذين أسهموا في الثقافة الإسلامية بخاصة، والتراث الإنساني بعامة وقد قدمنا عن ابنه أبي رافع أنه قال: إنه اجتمع عنده بخط أبيه من تأليفه نحو أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة وإليك أهمها.

(١) كتاب « المجلى » في الفقه على مذهبه واجتهاده، وطريقته في الاستنباط ذكر فيه ألفين وثلاثمائة وثماني مسألة، وقد شرح كتابه هذا شرح إمام فقيه مجتهد، حافظ مطلع تارة يوافق فيه الأئمة، وتارة يخالفهم في كتاب سماه « المحلى » ومن أراد أن يطلع على سعة أفق هذا الإمام وعلمه بالقرآن والأحاديث والسنن فليرجع إلى هذا الكتاب وشرحه، ولا تعجب إذا كان حظي بثناء بعض كبار أئمة العلم في الإسلام قال الإمام العز بن عبد السلام فيه: « ما رأيت في كتب الإسلام في العلم مثل « المحلى » لابن حزم[٢] والمغني لابن قدامة »[٣].

ولابن حزم في هذا السفر الضخم آراء في التكافل الاجتماعى في الإسلام يعتبر فيها حائزًا قصب السبق في هذا المضمار وكلها مما فهمه من نصوص القرآن والسنة، وما ترمي إليه من مقاصد وغايات شريفة، وإليك بعض هذه الآراء نقلها بنصها من كتابه هذا.

---

(١) مجلة الأزهر، ج٨، السنة ٣٩.

(٢) قد طُبع « المجلى » وشرحه طبعًا جيدًا في أحد عشر جزءًا كبيرًا في مصر سنة ١٣٤٩هـ.

(٣) « المغني » للإمام العلامة شيخ الإسلام موفق الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الحنبلي المتوفى سنة ٦٢٠هـ، ومؤلفه وإن كان حنبليًا إلا أنه يعتبر من كتب الفقه المعدودة التي تجمع أقوال الأئمة الأربعة وغيرهم من فقهاء الصحابة ومن بعدهم، وقد طُبع هو والشرح الكبير في اثنى عشر مجلدًا كبيرًا.

قال في كتابه هذا: « وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم، ويجبرهم السلطان على ذلك إن لم تقم الزكوات بهم، ولا في سائر أموال المسلمين بهم، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لابد منه، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك وبمسكن يكنهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة»، ثم دلل لذلك فقال: برهان ذلك قول اللّه تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

فأوجب اللّه تعالى حق المساكين، وابن السبيل، وما ملكت اليمين مع حق ذي القربى. وافترض الإحسان إلى الأبوين وذي القربى، والمساكين، والجار وما ملكت اليمين، والإحسان يقتضي كل ما ذكرنا ومنعه إساءة بلا شك، وقال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ [المدثر: ٤٢ - ٤٤]، فقرن اللّه إطعام المسكين، بوجوب الصلاة، وعن رسول اللّه ﷺ من طرق كثيرة في غاية الصحة أنه قال: « من لا يرحم الناس لا يرحمه الله ».

قال أبو محمد - يعنى ابن حزم -: « ومن كان على فضلة ورأى المسلم أخاه جائعا عريان ضائعا، فلم يغثه فما رحمه بلا شك، وروى في هذا أحاديث منها ما رواه عن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق قال: إن أصحاب الصفة كانوا ناسًا فقراء، وأن رسول الله ﷺ قال: « من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس أو سادس ». أو كما قال البخاري فهذا هو نفس قولنا».

واستدل أيضًا بما رواه بسنده عبد اللّه بن عمر أن رسول اللّه ﷺ قال: « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ». رواه مسلم قال ابن حزم: من تركه يجوع ويعرى وهو قادر على إطعامه وكسوته فقد أسلمه يعني لأعدائه.

وهكذا نرى أن ابن حزم جعل إسلامه لأعدائه كإسلامه للفقر، والعري، والجوع، وهي ولا شك من الأعداء، وهو فهم مستقيم منه. واستدل أيضًا بما رواه بسنده عن أبي سعيد الخدرى أن رسول اللّه ﷺ قال: « من كان معه فضل ظهر فليعد على من لا ظهر

له، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له، قال: فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل». رواه مسلم.

قال ابن حزم فهذا إجماع الصحابة رضي اللَّه عنهم يخبر بذلك أبو سعيد، وبكل ما في هذا الخبر نقول، واستدل أيضًا بما رواه بسنده عن عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه قال: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين»، وروى بسنده عن علي بن أبي طالب رضي اللَّه عنه أنه قال: «إن اللَّه فرض على الأغنياء في أموالهم بقدر ما يكفى فقراءهم، فإن جاعوا أو عروا وجهدوا فبمنع الأغنياء، وحق على اللَّه تعالى أن يحاسبهم يوم القيامة ويعذبهم عليه»، وعن ابن عمر أنه قال: «في مالك حق سوى الزكاة»، وصح عن الشعبى، ومجاهد، وطاووس وغيرهم كلهم يقول: «في المال حق سوى الزكاة»[1].

وبحسبنا هذا النقل في بيان سبق بعض علماء الإسلام ودعوته إلى العدالة الاجتماعية، قبل أن تعرف الحضارة الحديثة ذلك ببضعة قرون مع اهتدائه في كل ما يقول بهدي القرآن والسنة، وصدق رسول اللَّه ﷺ في قوله: «تركت فيكم شيئين لن تضلوا إن اعتصمتم بهما: كتاب اللَّه وسنتي».

(٢) كتاب «الإحكام في أصول الأحكام» وهو كتاب في أصول الفقه نهج فيه - كما هو دأبه - منهج التقصي والاستيعاب في إيراد الحجج وبسط القول في الاستدلال لما يراه كما فعل حينما عرض لإفادة خبر الواحد العدل الضابط القطع واليقين، وهو مطبوع.

(٣) «الإيصال إلى فهم الخصال الجامعة لجمل شرائع الإسلام في الواجب، والحلال والحرام، والسنة والإجماع» أورد فيه أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين رضي اللَّه عنهم أجمعين في مسائل الفقه والحجة لكل طائفة وعليها، وهو كتاب كبير يقع في بضع وعشرين مجلدًا. قال تلميذه ابن المغربى: صحبت ابن حزم سبعة أعوام، وسمعت منه جميع مصنفاته سوى المجلد الأخير من كتاب «الفصل» وقرأنا عليه من كتاب الإيصال سبع مجلدات في سنة ست وخمسين - يعني وأربعمائة -

---

(١) المجلى والمحلى ج٦ ص١٥٦- ١٥٨.

وهو أربعة وعشرون مجلدًا.

(٤) كتاب « الجامع » في صحيح الحديث باختصار الأسانيد.

(٥) السيرة النبوية، وهي في مجلد سلك فيها مسلك التحقيق والاعتماد على المأثور، وهو مطبوع.

(٦) « الفِصَل في الملل والنحل »، وهو يعتبر من المراجع القيمة في تاريخ النحل والأديان والفرق والمذاهب، وهو يدل على سعة علم الرجل ومعرفته بالمذاهب والفرق الإسلامية وغيرها، وهو كتاب حافل في بضع مجلدات، وهو مطبوع.

(٧) كتاب « إظهار تبديل اليهود والنصارى للكتابيين: التوراة والإنجيل » بين فيه تناقض ما بأيديهم من ذلك مما لا يحتمل التأويل، وهذا معنى لم يسبق إليه.

(٨) كتاب « الالتباس لما بين الظاهرية وأصحاب القياس ».

(٩) كتاب « الصادع » في الرد على من قال بالتقليد.

(١٠) كتاب « شرح أحاديث الموطأ ».

(١١) كتاب « أسماء اللَّه الحسنى » ذكره الغزالى وأثنى عليه.

(١٢) كتاب « التلخيص والتخليص » في المسائل النظرية.

(١٣) كتاب في « الإجماع ومسائله » على أبواب الفقه.

(١٤) كتاب « فيما خالف فيه أبو حنيفة ومالك والشافعي جمهور العلماء، وما انفرد به كل واحد ولم يسبق إلى ما قاله» وقد ذكر اسم هذا الكتاب في أثناء الفرائض من المحلى، وكأنه يريد بتأليفه هذا أنه حينما انفرد عن الأئمة ببعض الآراء ليس ببدع في هذا بين الفقهاء، فكبار الأئمة على هذا.

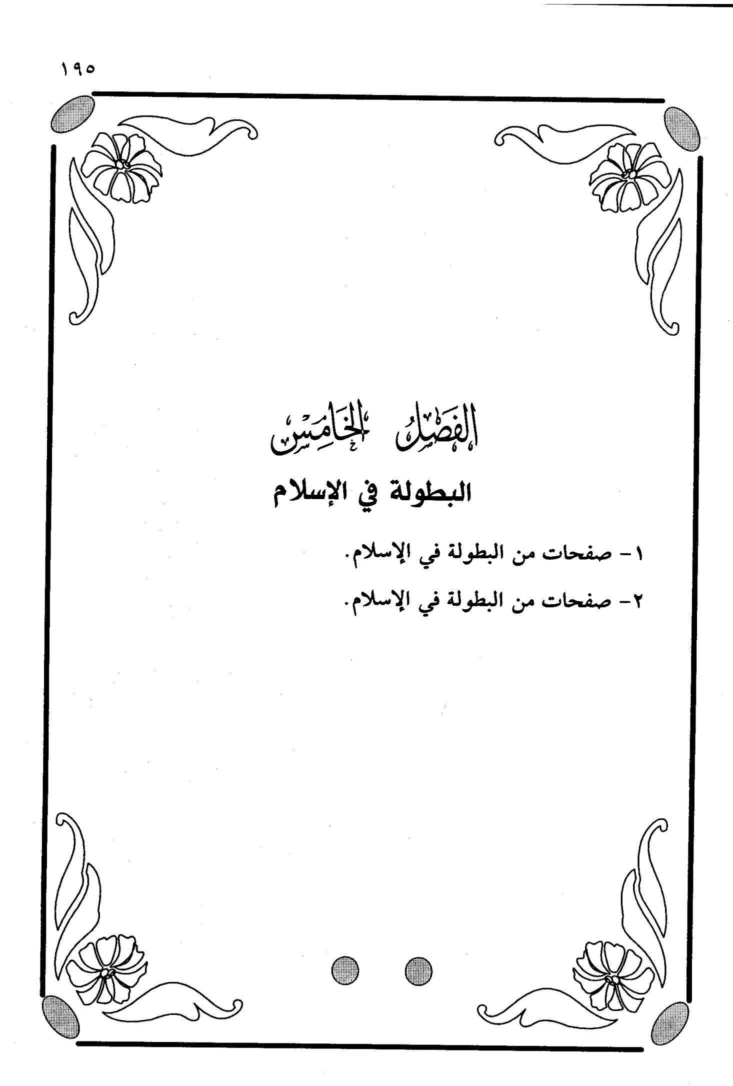
(١٥) كتاب « التقريب لحد المنطق والمدخل إليه » بألفاظ أهل العلم وطريقتهم لا بألفاظ أهل الفلسفة، ومثله بالأمثلة الفقهية، وهو إن كان إبداعًا يدل على قوة في التفكير وحسن التصرف إلا أنه لم يخل فيه من أغلاط « فإنهم زعموا أنه زلَّ هنالك، وضل في سلوك المسالك، وخالف أرسطو واضعه مخالفة من لم يفهم غرضه ولا ارتاض»[1] وبحسبنا هذا القدر من مؤلفاته.

(١) وفيات الأعيان: ج٢، ص٢١، ٢٢، تذكرة الحافظ ج٣ ص٣٢٥، ٣٢٧.

وفاته: وبعد هذه الحياة الحافلة بالعلم والتأليف والإنتاج، المليئة بالاضطهاد والتشريد.

توفي آخر نهار يوم الأحد لليلتين بقيتا من شعبان سنة ست وخمسين وأربعمائة من الهجرة وكانت وفاته ببلدة « لبلة » وقيل بقرية « منت ليشم » وهي قرية ابن حزم من أعمال لبلة فرحمه اللّه رحمه واسعة، وجازاه كفاء ما قدم للعلم، والثقافة الإسلامية، والمعارف الإنسانية من إنتاج مذكور مشكور.





الفصل الخامس

البطولة في الإسلام

(١)

صفحات من البطولة في الإسلام[1]

(1)

العرب قوم جبلوا على الشجاعة والمروءة والإقدام، وقد حفظ لنا التاريخ من قصصهم وأخبارهم في هذا الباب العجب العجاب. ولأمرٍ ما اختار اللَّه خاتم رسله من العرب، لما كانوا عليه من الفضائل والخلال التي تؤهلهم للدفاع عن الإسلام وتبليغ رسالته إلى الناس عامة عربهم وعجمهم. ولما جاء الإسلام نمى فيهم فضيلة الشجاعة والإقدام، ونحى بهم فيها منحى الدفاع عن الحق والخير والعدل، ونشر لواء الأمان والمثل الإنسانية الرفيعة، فبعد أن كان العربي يقاتل حمية وعصبية أو طمعًا في مغنم أو جاه أو سلطان أو ليرى الناس أنه شجاع مغوار، أصبح يقاتل دفاعًا عن عقيدة صحيحة ودين قويم امتزجا بلحمه ودمه، وطمعًا في مرضاة اللَّه ورسوله، ومسارعة إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

وقد استفاضت آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة بهذه المعاني الكريمة قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠]. وقال عز شأنه: ﴿فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

ولم يرد الأمر بالقتال في القرآن الكريم إلا مقرونا بكونه في سبيل الله، وما

---

(١) مجلة الأزهر، الجزء الثالث، المجلد الثامن والعشرون.

سبيل الله إلا طريق الإسلام، وهي طريق الحق والعدل والخير.

وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري أن رجلًا سأل رسول اللّٰه صلوات اللّٰه وسلامه عليه عن الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل حمية، والرجل يقاتل ليرى مكانه، أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال المشرع الحكيم: « من قاتل لتكون كلمة اللّٰه هي العليا فهو في سبيل الله ». فلا عجب - وقد رفع الإسلام من شأن الجهاد في سبيل اللّٰه - أن كان للبطولة في تاريخ المسلمين قصة واقعية مشرفة، تنم عن عظمة النفس وسموها وما كان عليه هؤلاء القوم من التضحية بالنفس والمال في سبيل الدفاع عن العقيدة ودفع الظلم والعمل على تثبيت دعائم الحق والعدل ونشر السلام، فلا يفتن أحد في دينه، ولا يطغى قوي، ولا يتجبر غشوم، ولا يذل ضعيف، ولا يسأم الخسف والهوان رقيق.

وليست البطولة قاصرة على مواطن الحرب والطعان، ولا على أصحاب الأجسام الفارعة والقوة الخارقة، ولكنها تكون في الرأي والاعتزاز به، والمجاهرة بالحق والانتصار له والثبات عليه مهما تآزرت قوى الشر والباطل، وقد تكون من ضعيف في بدنه قوي في نفسه، ولا تكون من قوي في جسمه خائر في عزيمته، وإذا اجتمعت القوة البدنية والقوة الروحية والنفسية لشخص فقد استحوذ على البطولة من جميع جوانبها.

أما أول سطر كتب في سجل البطولة الإسلامية فهو ما سجله التاريخ على صفحاته الغر بمداد من الفخار والإعظام لصاحب الرسالة العظمى سيدنا محمد صلوات اللّٰه وسلامه عليه يوم تألبت قريش عليه وعلى صحبه القلائل، وجاءوا إلى عمه وناصره أبي طالب يحملون الضغن وقطيعة الرحم والمناجزة بالحرب؛ فقالوا: يا أبا طالب، إن لك فينا منزلةً وشرفًا، وقد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا لا نصبر على هذا. فإما أن تكفه أو ننازله وإياك، وعز على أبي طالب فراق قومه وهو على دينهم كما عز عليه أن يسلم إليهم ابن أخيه، فأرسل إلى رسول اللّٰه ﷺ وأخبره بمقالتهم وقال له: فابق عليَّ وعلى نفسك ولا تكلفني من الأمر مالا أطيق. وفي هذه البرهة التي توقف عليها مصير الإنسانية، ووجد الرسول فيها عمه كأنه خاذله وحوله أتباع لا يكادون يدفعون الأذى عن أنفسهم سواء في ذلك أشرافهم وغير أشرافهم، قال بطل الأبطال قولته الخالدة: « والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته

حتى يظهره اللَّه أو أهلك دونه »[1]، وقام رسول اللَّه ﷺ وقد خنقته العبرة مصممًا على تبليغ رسالة ربه، فما كان من شيخ قريش أبي طالب ألا أن وقف مشدوها أمام هذه العظمة النفسية والبطولة الحقة والإرادة القوية التي لا تقهر، فنادى على ابن أخيه وقد بهره ما رأى وما سمع، وقال له: « قل يابن أخي ما أحببت فلن أسلمك إليهم أبدا ». فهل علمت – أيها القارىء الكريم – في باب البطولة أروع من هذا المثل وأسمى ؟!

ولم تقف بطولة الرسول ﷺ عند هذا الحد من عظمة النفس وقوة الروح والشجاعة في الرأي، بل كانت له مواقف ومواقف في مواطن الحرب والنزال أشاد بها الشجعان الكواسر والأبطال المغاوير، فهذا فتى الفتيان وسيد الشجعان علي كرم اللَّه وجهه[2] يقول: « إنا كنا إذا اشتد البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول اللَّه ﷺ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه، ولقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ﷺ وهو أقربنا إلى العدو »، ويقول ابن عمر رضي اللَّه عنهما: « ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود ولا أرضى من رسول اللَّه ﷺ »، ويقول أنس رضي اللَّه عنه: « كان رسول اللَّه ﷺ أشجع الناس وأحسن الناس وأجود الناس، ولقد فزع أهل المدينة ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم عليه الصلاة والسلام راجعًا قد سبقهم إلى الصوت وقد استبرأ الخبر على فرس لأبي طلحة عري والسيف في عنقه وهو يقول: « لن تراعوا ». وهل ينسى التاريخ موقفه ﷺ في أحد وقد فر بعض الكماة والشجعان وثبت هو مع ثلة قليلة من صحبه يقاوم جحافل الشرك ويصد أنصار الباطل ويحمي حمى العقيدة ؟

بل هل ينسى التاريخ موقفه المشرف يوم حنين، إذ أعجبت المسلمين كثرتهم فلم تغن عنهم شيئًا وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ثم ولوا مدبرين. لقد وقف في هذا اليوم على بغلته البيضاء وجموع المنهزمين قد ضاقت بهم السبل وهو ينادي: « إليَّ عباد الله، إليّ عباد الله » فما لبثت فلول المنهزمين أن ثابت إلى رشدها، وتجمعوا حول النبي ﷺ، وشرعوا يقاتلون الأعداء، حتى حصلوا على النصر بعد الهزيمة، ومن

---

(١) أخرجه ابن إسحاق في «المغازي» (١/ ٢٨٤، ٢٨٥ سيرة ابن هشام)، وضعفه الألباني في « الضعيفة » (٩٠٩) .

(٢) لا ينبغي إطلاق قول: «كرم اللَّه وجهه» على: علي رضي اللَّه عنه دون غيره من الصحابة، فهذا مما اشتهر به الشيعة والروافض، وانظر: معجم المناهي اللفظية للعلامة بكر أبي زيد- حفظه اللَّه- حرف الصاد والكاف. [الناشر].

يدري؟ فلولا ثباته ﷺ في أحد وحنين لكانت الهزيمة منكرة، ولربما تغير مجرى الحوادث وأتت الرياح بما لا تشتهي السفن.

لقد كانت هذه الصفحات المشرقة في سيرة الرسول ﷺ مدرسة تأدب بتعاليمها المسلمون؛ وتخرج في رحابها أصحابه الأجلاء، وقد عرف التاريخ الصادق للكثيرين منهم البطولة الفذة والذكر الخالد والأثر العظيم في كسر أغلال الشرك، وإزالة رق العقول، ونشر رسالة الإسلام، وإشاعة الحرية، والأمان بين الناس، ولا يتسع مقالي اليوم للتحدث عن تلاميذ هذه المدرسة المحمدية الفاضلة، فإلى مقال آتٍ، إن شاء الله.



صفحات من البطولة في الإسلام[1]

(2)

في مقال سبق تكلمت عن البطولة في الإسلام، وقلت: إن البطولة المحمدية الفذة كانت مدرسة تخرج فيها الكثيرون من أبطال الحرب والرأي والسياسة. واليوم أتكلم عن هؤلاء الأبطال وهم صحابة الرسول ﷺ الذين سطروا لأنفسهم صحائف المجد والخلود، وضربوا في باب البطولة الإسلامية مثلًا عليا خالدة.

وأجلّ ما يصادفنا من البطولة الإسلامية موقف الصديق أبي بكر رضي اللّه عنه، ذلك أنه لما توفي رسول اللّه – صلوات اللّه وسلامه عليه – ارتد ناس من العرب ومنع بعضهم الزكاة، فعزم على قتالهم جميعًا، فقال له عمر رضي اللّه عنه: كيف تقاتل من منع الزكاة، وقد قال رسول اللّه ﷺ: « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا اللّه وأن محمدًا رسول الله، فإن قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ». فقال أبو بكر: « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالًا كانوا يعطونه لرسول اللّه ﷺ لقاتلتهم عليه، ولو خذلني الناس كلهم لجاهدتهم بنفسي. قال عمر: « فوالله ما هو إلا أن رأيت اللّه عز وجل قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق ». ثم كان من الصديق أن تقلد سيفه وخرج مجاهدًا فلم يجدوا بدًّا من الخروج على إثره. وهذا غاية الشجاعة والإقدام.

وكان مما قاله الفاروق عمر رضي اللّه عنه: « تألف الناس وارفق بهم فإنهم بمنزلة الوحش »، فقال له أبو بكر رضي اللّه عنه: « رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك، أجبَّار في الجاهلية خوار في الإسلام ؟! قد انقطع الوحي وتم الدين، أينقص وأَنَا حَيٌّ ؟ والله لأجاهدنهم ما استمسك السيف في يدي ».

ولقد عرف الصحابة رضوان اللّه عليهم للصديق هذا الموقف الخالد، فكان يقول عمر رضي اللّه عنه: « والله لقد رجح إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة في قتال أهل الردة ». وكان ابن مسعود رضي اللّه عنه يقول: « لقد قمنا بعد رسول اللّه ﷺ مقامًا كدنا

(١) مجلة الأزهر، ج٤ المجلد ٢٩.

نهلك فيه، لولا أن من اللّه علينا بأبي بكر، أجمعنا على أن لانقاتل على ابنة مخاض وابنة لبون ونعبد اللّه حتى يأتينا اليقين، فعزم اللّه لأبي بكر علي قتالهم ثم اتفق الصحابه كلهم على قتالهم واستصوبوا ما رآه أبو بكر رضي اللّه عنهم جميعًا». وهكذا نجد أن الصديق أبا بكر - وهو الضعيف في جسمه القوي في دينه العظيم في نفسه - وقف موقفًا لم يقفه أحد من أصحاب الأجسام القوية والشجاعة المشهورة.

ولقد كانت غزوة بدر الكبرى من المشاهد المشهورة التي ضرب فيها الصحابة أروع مثل التضحية والشجاعة، لقد كان لقول رسول اللّه ﷺ - «والذي نفسي بيده لا يقاتل اليوم رجل فيقتل صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر إلا أدخله اللّه الجنة» - من إذكاء الروح المعنوية وإلهاب الحماسة ما يفوق كل دعاية، فلا عجب أن قال عمير بن الحمام رضي الله عنه وبيده تمرات يأكلها: «بخ بخ، ما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء» ثم قال: «لئن بقيت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة»، وقذف بالتمرات من يده، وما زال يقاتل حتى استشهد وأرضى اللّه ورسوله وأرضى نفسه وعقيدته. وإن قومًا يستطيل أحدهم مدة يأكل فيها تمرات تبعده عن شرف الشهادة لقوم جديرون بالنصر والظفر، وإن قومًا يحرصون على الموت في سبيل اللّه أشد من حرصهم على الحياة لابد أن تكتب لهم العزة والسلطان مهما قل عددهم وكثر عدد عدوهم.

وهذا ما كان في هذه الغزوة فقد التقى فيها ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا - مع عوز في السلاح والظهر - بثلاثة أضعافهم من المشركين المزودين بالعتاد والدروع المسردة والخيول المطهمة، فإذا الغزوة تنجلي عن انتصار الفئة القليلة المؤمنة على الفئة الكثيرة الكافرة، وغلبة الحق على الباطل، إن الباطل كان زهوقًا.

وهل ينسى التاريخ بطولة السادة الأمجاد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي فتى الفتيان وحمزة أسد اللّه وسيد الشهداء والزبير بن العوام والمقداد بن الأسود وطلحة بن عبيد اللّه رضي اللّه عنهم وغيرهم ممن لا يحصيهم العد والذين حضروا المشاهد مع رسول اللّه ﷺ وجعلوا أنفسهم فداءً له.

إن التاريخ ليذكر لهؤلاء مواقفهم الخالدة، ويذكر أبا دجانة صاحب عصابة الموت الذي صال وجال في أحد، ولما انكشف المسلمون تترس على رسول اللّه فصار النبل

يقع في ظهره وهو منحنٍ حتى كثر فيه، ولم تشغله نفسه وجراحه عن حماية رسول اللّه والذود عنه.

ويذكر أبا طلحة الأنصاري الذي دافع عن رسول اللّه في هذه الموقعة دفاع الأبطال، وكان رسول اللّه صلوات اللّه وسلامه عليه كلما نظر إلى القوم ماذا يفعلون يقول له: «يا نبي اللّه بأبي أنت وأمي لاتنظر يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك».

ويذكر أنس بن النضر رضي اللّه عنه الذي اندفع يقاتل بشجاعة فائقة حتى استشهد، وقد وجدوا بجسده بضعًا وسبعين مابين ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، حتى تغيرت معالم شخصه ولم تعرفه إلا أخته ببنانه.

ويذكر جعفر بن أبي طالب وما صنع في غزوة مؤتة، لقد كان يحمل اللواء بيمينه فقطعت يمينه فتناوله بيساره فقطعت أيضًا، فاحتضنه بعضديه، ولم يزل هكذا حتى عاجلته ضربة قاتلة فاستشهد بعد أن أرضى ربه ودينه، وكان جزاؤه من اللّه الرضوان الأكبر، وأن عوضه بيديه جناحين يطير بهما في الجنة أنى شاء.

ويذكر حبيب بن زيد الأنصاري وابن السيدة نسيبة بنت كعب الأنصارية، وكان مسيلمة قد ظفر به وهو مقبل من عمان إلى المدينة وأخذه أسيرًا فقال له مسيلمة: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع. فيقول له: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟ فيقول: نعم، فيقطع منه عضوًا. وكان كلما كرر عليه السؤال وأجاب بما أجاب قطع منه عضوًا آخر حتي قطعه إربًا إربًا ومات شهيد عقيدته، وأبت عليه بطولته أن يداهنه في موقف تجيز له التقية أن يداهن فيه ما دام قلبه مطمئنًا بالإيمان.

إن التاريخ ليذكر هؤلاء ويذكر أضرابهم الذين أبلوا بلاء حسنًا في حروب الردة والفتوحات الإسلامية في بلاد فارس والروم والشام والعراق وإفريقية من أمثال بطل الأبطال سيف اللّه المسلول خالد بن الوليد وأمين هذه الأمة أبي عبيدة بن الجراح والمثنى بن حارثة وعكرمة بن أبي جهل ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وسعد بن أبي وقاص وشرحبيل ابن حسنة والقعقاع بن عمرو الذين جمعوا - إلى البطولة والشجاعة - الحنكة والدهاء والعبقرية الحربية في تسيير الجيوش وتنظيمها والوصول إلى النصر من أقرب سبله مع الحرص على الرحمة والوفاء بالعهود وعدم الإسراف في

إراقة الدماء ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا. ويرحم اللّه الصديق حين قال في بطل الأبطال خالد: «عقمت النساء أن يلدن مثل خالد».

إن الحديث عن مواطن البطولة الإسلامية في العصور الإسلامية المتتالية أمر يطول، ولن يفي بذلك إلا أسفار ضخمة. وبحسبي أن أستعرض بعض هذه المواطن تمجيدا للذكرى وتلمسًا للعبرة واستحثاثا للهمم والعزائم على الائتساء، ففي موقعة اليمامة كان جيش المسلمين أربعة آلاف وكان جيش مسيلمة أربعين.ألفًا من ذوي الشكيمة والبأس الشديد، وقد أبلى فيها المسلمون بلاء حسنًا ولا سيما القائد المظفر خالد، فقد انكسرت في يده في هذا اليوم بضعة سيوف، وكان الحرب سجالًا، حتى أنزل اللّه نصره على المسلمين فألجئوا بني حنيفة إلى حديقة لمُسَيْلِمَة تجمعوا فيها وتحصنوا خلف أسوارها وأغلقوا أبوابها، ومعهم رئيسهم الكذاب، فماذا صنع المسلمون؟ لقد رغب أحدهم وهو البراء بن مالك - أحد شجعان الأنصار والذي لم يعرف الفرار والإحجام - إلى إخوانه أن يرفعوه فوق السور، فرفعوه في درقة فوق أسنة الرماح، وما أن علا حصن الحديقة حتى رمى بنفسه على الجموع الغفيرة، وما زال يقاتل على الباب حتى فتحه، فدخل المسلمون وأعملوا السيوف فيهم وقتل مسيلمة الكذاب، وبذلك تم النصر والظفر للمسلمين، وإن الإنسان ليعجب مما صنع البراء، ولئن كان البراء بطلًا فقد كان في بني حنيفة أبطال، وكفى شاهدًا على ما كانوا يمتازون به قولة خالد رضي اللّه عنه: «لقد شهدت عشرين زحفًا فلم أر قومًا أصبر لوقع السيوف ولا أضرب بها ولا أثبت أقدامًا من بني حنيفة يوم اليمامة». ولكن الإيمان يتغلغل في القلب فيجعل من صاحبه قوة جبارة تسخر بما في الحروب من أهوال وشدائد في سبيل المثل العليا.

وفي موقعة اليرموك كان تعداد المسلمين أربعين ألفًا، وكان تعداد الروم مائتين وأربعين ألفًا، وقد تجلت عبقرية سيف اللّه المسلول خالد في هذا اليوم المشهود وتجلت بطولة المسلمين ودارت رحى الحرب الضروس بين جيشين غير متكافئين عددا وعدة، ولكن البطولة وقوة الإيمان صنعا صنيعهما، فقد حملت الروم على المسلمين حملة شديدة زحزحتهم عن أماكنهم، فقال عكرمة بن أبي جهل: قاتلت النبي ثم أفر اليوم[١]

---

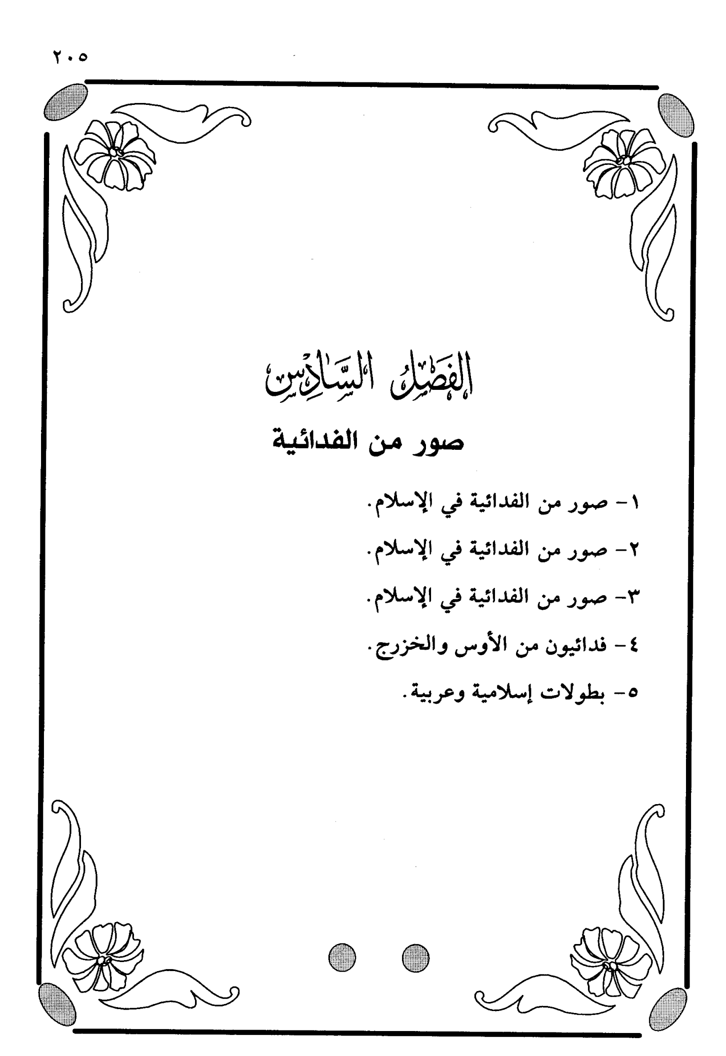
(١) يريد ما حدث قبل إسلامه رضي الله عنه فقد أسلم بعد الفتح.

ثم نادى: من يبايع على الموت؟ فبايعه أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم على الموت، وقاتلوا حتى أثخنتهم الجراح، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من برأ من جراحه. وكذلك صنع غير هؤلاء صنيعهم، فلا عجب أن انجلت هذه الملحمة الكبرى عن نصر مؤزر للمسلمين وهزيمة ماحقة للروم.

وفي العصور الوسطى تألبت أوربة كلها على المسلمين لتشفي حقدًا دفينًا في النفوس، وأذكى نار الحقد والضغينة القساوسة ورئيسهم بطرس الحاقد، ولكن قيض اللّٰه للإسلام البطل الخالد صلاح الدين الأيوبي وأمثاله من القادة المخلصين، فقادوا المسلمين وما زالوا يجاهدون حتى رد اللّٰه كيد الصليبيين في نحورهم وهزمهم شر هزيمة، وحفظ أرض الإسلام من شرورهم وأرجاسهم.

وبعد – فيأيها المسلمون والعرب، ويا سلالة أولئكم الأبطال، أحيوا ما درس من البطولة الإسلامية، ولقنوا العالم اليوم دروسًا في العزة والكرامة وإباء الضيم والدفاع عن الأوطان وحماية الذمار، ولا تلقوا بالًا لإرجاف المرجفين وتخذيل المخذلين، وضعوا نصب أعينكم قول الصديق: «احرص على الموت توهب لك الحياة». أما الجبناء الرعاديد فلا ينبغي أن يكون لهم مكان في صفوف المسلمين والعرب المجاهدين، وبحسب هؤلاء قولة البطل الهمام الذي لم يهزم في جاهلية ولا إسلام: «لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها، وما في جسدي موضع إلا وفيه ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، وها أنا أموت على فراشي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء. وما من عمل أرجى من لا إله إلا الله، وأنا متترس بها». فاعتبروا يا أولي الأبصار.





الفصل السادس

صور من الفدائية

(١)

صور من الفدائية في الإسلام[1]

تاريخ الإسلام - ولا سيما السيرة النبوية وسير الصحابة الأجلاء - حافل بالتضحية والفدائية في سبيل الإسلام، والفوز برضاء اللّٰه ورسوله لا طمعًا في مال أو جاه أو سلطان - وأنما مبعثها الإيمان العميق الصادق النابع من القلب، والحب العميق للّٰه ولرسوله.

ولم تكن هذه التضحية والتفدية خاصة بالشباب الأقوياء بل كانت من الشباب والشيوخ الكبار ولم تكن خاصة بالرجال بل شملت الرجال والنساء ولم تكن خاصة بالبالغين المكلفين فقد شارك فيها الصبيان وحدثاء الأسنان، وسترى من ذلك صورًا مشرقة، وألوانًا متنوعة نرجوا أن يتخذ منها المسلمون والعرب نبراسًا يسيرون على ضوئه اليوم، ومهيعًا يسلكونه حتى يستردوا سلطانهم المسلوب، وكرامتهم الجريحة.

وإذا تتبعنا الأحداث التاريخية في الإسلام، والمواقف الحاسمة فيه، والملاحم العظيمة في السيرة، والفتوحات الإسلامية نجد من صور الفدائية كثرة كاثرة تزري بتاريخ أي أمة أخرى، ونحن لا ننكر أن معظم أمم الأرض في القديم والحديث في تاريخها ألوان من التضحية والفداء، وكيف وفي معظم جيوش العالم فرق الكوماندوز وفرق الصاعقة، والفرق الانتحارية - كما يقولون - وفرق القفز من الطائرات - جنود المظلات - . . بل من المؤسف أنه قد انعكس الأمر اليوم، فضرب غير المسلمين بسهم راجح في تكوين هذه الفرق التي تقوم على التضحية والتفدية. على حين تأخر المسلمون والعرب في هذا المضمار، ولم يحافظوا على هذا الفضيلة التي كانت لآبائهم وأسلافهم الأولين، ولكن مع هذا فالتضحية والفدائية عند غير المسلمين لم تقم على أساس من الإيمان، وشرف الغاية كما هو الشأن عند المسلمين الأولين.

ولقد سن هذه السنة الحسنة في الإسلام رسول اللّٰه صلوات اللّٰه وسلامه عليه حينما استهان بكل شيء في سبيل إنجاح دعوته، وتأدية رسالته، استهان بالجراح والآلام، واستهان بالإيذاء والسفاهة عليها، وضحى ببلده، وأهله وماله.

---

(١) مجلة الأزهر العدد الثامن، السنة السابعة، شوال ١٣٨٩هـ، ديسمبر ١٩٦٩م.

لقد خنقه المشركون وهو يصلي، ووضعوا على ظهره القذر والنجس، ووضع بعضهم وهو عقبة بن أبي معيط قدمه على عنقه في الصلاة حتى كادت عيناه تندران[١] من وجهه، وأدموا عقبيه بالطائف حتى سال الدم الزكي على ثراها، ومُنِع من الدخول إلى بلده عقب الذهاب إلى الطائف حتى دخل في جوار المطعم بن عدي، وعرَّض نفسه لمخاطر ليلة الهجرة لولا أن اللّٰه حفظه ومنعه من أعدائه.

وفي غزوة بدر وغيرها كان أقرب المجاهدين إلى الأعداء وصدق فتى الفتيان - علي - حينما قال: كنا إذا حمي الوطيس[٢] واحمرت الحدق اتقينا برسول اللّٰه ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه، ولقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول اللّٰه ﷺ وهو أقربنا إلى العدو.. رواه أحمد.

وفي غزوة أحد ثبت ووقف كالجبل الأشم الشامخ في قلة من أصحابه، وقد أحاطت به جموع المشركين من كل جانب. وفي غزوة الخندق نام معظم الجيش تحت وطأة البرد والتعب والجهد، وهو ﷺ مستيقظ لا يفتر عن الصلاة والدعاء لا يعبأ ببرد ولا سهر ولا مشقة.

وفي غزوة حنين وقف وقد فر معظم الجيش وهو يقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»..

وفي ذات ليلة سمع أهل المدينة صوتًا مزعجًا، ففزعوا وقاموا، وذهبوا ومعهم سلاحهم جهة الصوت يستطلعون الأمر، فإذا رسول اللّٰه صلوات اللّٰه وسلامة عليه قد سبقهم إلى موضع الصوت، وعاد وهو راكب فرسًا لأبي طلحة رضي اللّٰه عنه، وفي عنقه السيف فقال لهم: لم تراعوا، لم تراعوا[٣] تحمل كل ذلك في سبيل الله، وفي سبيل دعوته عن رضا وطيب نفس، فالحياة ولأواؤها وآلامها وأحزانها وبلاؤها كل ذلك هين بجانب رضا اللّٰه، وإنا لنستشف هذا المعنى من قوله ﷺ وقد دميت عقباه في الطائف، ولجأ إلى ظل شجرة ببستان لعتبة وشيبة ابني ربيعة كي يستريح مما عاناه من السفهاء

---

(١) أي: تخرجان.
(٢) كناية عن اشتداد الحرب.
(٣) رواه الشيخان.

والصبيان، ويسترد أنفاسه من هذا البلاء «إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي، اللهم إني أسالك بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي سخطك، أو تحل بي غضبك. لك العتبى[١] حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

إن رسولًا هذا شأنه، وهذا بعض خلقه لابد أن يخرج رجالًا، ويربي أمة ليس لها مثيل في التاريخ: إيمانًا، وتحملًا، وبطولةً وتضحيةً، وتفدية؛ وهذا ما كان.

وقد كانت ليلة الهجرة وأحداثها مسرحًا لأنواع من التضحيات والتفدية بالنفس والمال، وإليك تفصيل هذا الإجمال.

فهذا هو الفتى الشاب - عليّ رضي اللَّه عنه - يعرض عليه النبي صلوات الله وسلامه عليه أن يبيت على فراشه في الليلة التي اتعد عليها المشركون أن يقفوا على باب الرسول حتى إذا خرج ضربوه ضربة رجل واحد؛ فيتفرق دمه في القبائل، فلا يقدر بنوا هاشم على قتال العرب جميعًا فيرضوا منهم بالدية، فيقبل ذلك بطيب نفس، وانشراح صدر، وهو يعلم أنه على قيد أذرع من سيوف المشركين ورماحهم ولا سيما أنهم مغيظون محنقون، وسيف المغيظ المحنق فيه رهق وطول، ورعونة، ولكن كل هذا لم يحل بينه وبين أن ينام على سرير رسول اللَّه تضليلًا للمشركين وتلبيسًا عليهم، وبهذا استحق الفتى الشاب - الذي يرجو الحياة، ويأمل المستقبل العريض - أن يكون أول فدائي شاب، آثر رسول اللَّه ﷺ على نفسه، وهذا هو الصديق - رضي اللَّه عنه وأرضاه - يحبس نفسه عن الهجرة كي يكون في صحبة رسول اللَّه ﷺ. فلما أخبره رسول الله بالإذن له في الهجرة بكى فرحًا وقال: الصحبة يا رسول الله، فقال له: «الصحبة يا أبا بكر»، ويخرج رسول اللَّه وصاحبه ليلًا من خوخة في ظهر بيت أبي بكر ومعهما الزاد والماء متوجهين إلى غار ثور، وفي الطريق رأى رسول اللَّه من أبي بكر الصديق عجبًا.. رآه مرة يسير أمامه، ومرة يسير خلفه ومرة عن يمينه، ومرة عن شماله لا يثبت على حال، فقال له الرسول ﷺ: «لِمَ هذا يا أبا بكر»؟ قال: يا رسول اللَّه أخاف الرصد[٢] فأكون أمامك وأخاف

---

(١) العتبى: الاسترضاء، حفة وطيش.

(٢) الذين ينتظرون الإنسان.

الطلب[1] فأكون خلفك، ومرة عن يمينك ومرة عن شمالك لا آمن عليك.

ويسير الرسول والصديق حتى وصلا إلى غار ثور، ويهم رسول اللَّه بالنزول إلى الغار فيقول له الصديق: مكانك يا رسول اللَّه حتى أستبرئ لك[2] الغار فإن كان به سوء نزل بي قبلك، وانتظر رسول اللَّه حتى نزل الصديق واستبرأ الغار فلم يجد به شيئًا.

وكان رسول اللَّه ﷺ قد نال منه التعب والإعياء فما أن دخل الغار حتى نام على فخذ الصديق، وكان الصديق وجد بالغار أحجارًا فصار يأخذ من ثيابه ويحشو الأحجار خشية أن يكون بها شيء من الهوام فيؤذي رسول الله، وبقي جحر منها فألقمه عقبه، واتفق أن كان بالجحر حية فلدغت الصديق رضي اللَّه تعالى عنه، ولكن مكان رسول اللَّه منه منعه من أن يتململ، فلما اشتد به الإلم تحدرت دموعه فسقط منها شيء على وجه رسول اللَّه صلوات اللَّه وسلامه عليه، فاستيقظ فقال له: (مَا لَكَ يا أبا بكر) فأخبر الرسول بما حدث. فأخذ رسول اللَّه ﷺ بقدمه فتفل عليها من ريقه المبارك الذي هو بلسم شاف فبرأت بإذن اللَّه تعالى. فلا تعجب إذا كان الصديق بهذا الصنيع وبغيره - وما أكثره - استحق أن يكون شيخ الفدائيين في الإسلام.

وها هي السيدة الفاضلة أسماء - رضي اللَّه تعالى عنها - قد اشتركت هي وأختها السيدة عائشة وكانت أصغر منها في إعداد السفرة[3] للمُهَاجِرَيْنِ الكريمين. وكان معهما جراب من تمر، ومزادة من ماء. وكان لابد من أن يربط فم الجراب، وفم المزادة، فوجدوا أحد الوكائن، ولم يجدوا الآخر فما العمل، والوقت يسير بسرعة، والإعداد لا يحتمل التأخير، وحلت السيدة الفاضلة أسماء المشكلة، وكانت تنتطق بنطاق كما هي عادة النساء العربيات، فحلت نطاقها فشقته نصفين: ربطت بنصفه الجراب، وانتطقت بالآخر، ويقال: ربطت فم الجراب بأحدهما، وربطت فم المزادة بالآخر، فمن ثم سميت ذات النطاقين، وبذلك ضحت بنطاقها في سبيل اللَّه ورسوله، وبقي لها الفخار مسطورًا بحروف من نور إلى يوم القيامة، وكتبت في عداد أهل التضحية والفداء، فلله

(١) الذين يطلبونه من خلفه.

(٢) أتأكد من عدم وجود شيء يؤذيك.

(٣) طعام المسافر.

أنت يا أسماء وفي سبيل اللّٰه نطاقك الذي كنت به تعتزين، وسيبدلك خيرًا منه في الجنة !

وهذا عبد اللّٰه بن أبي بكر وكان صبيًّا صغيرًا لم يبلغ سن العاشرة ولكنه كان ذكيًا فطنًا. وقد قام بمهمة جليلة، فكان يكون مع أهل مكة نهارًا فيسمع منهم ما يكيدون به رسول اللّٰه وصاحبه حتى إذا جن الليل ذهب إليهما فيبيت معهما، فيخبرهما بما سمع، فإذا آذن الليل بالإدبار ذهب بغلس إلى مكة فيصبح كأنه بائت بها، وهكذا يفعل كل ليلة، وهو يعتبر أول صبي خاطر بنفسه في هذا الليل البهيم، وقام بهذه التضحية والفدائية للمهاجرين الكريمين، وعسى أن يكون فيه قدوة حسنة لصبياننا.

وهذا عامر بن فهيرة مولى الصديق كان يقوم بمهمة جليلة كان يرعى غنمًا للصديق فإذا جن الليل أراح عليهما بالغنم فيحلبان ويشربان ويذبحان ثم يقوم بغلس ومعه غنمه فيسير في الطريق الذي سار فيه عبد الله بن أبي بكر، فيعفي على آثاره مضحيًا براحته بل وبنفسه في سبيل النبي ﷺ وصاحبه، ولو أن المشركين وقفوا على ما كان يقوم به لما كان جزاؤه غير القتل، وبذلك يعتبر سابق الفدائيين من الموالي والخدم.

هذا ولا يزال في تاريخ التضحية والفداء في السيرة مواقف، ومواقف فإلى المقال الآتي إن شاء اللّٰه تعالى.



(٢)

صور من الفدائية في الإسلام[1]

وهذه صور أخرى للفدائية والتضحية في الإسلام. وهي لون من ألوان المخاطرة بالنفس التي هي أعز شيء على الإنسان في سبيل العقيدة والغاية الشريفة، والدفاع عن العرين والأوطان فمن ذلك:

(قتل كعب بن الأشرف).

وكان عربيًّا من بني نبهان وهم بطن من طيء، وكان أبوه أصاب دمًا في الجاهلية فأتى المدينة فحالف بني النضير فشرف فيهم، وتزوج عقيلة بنت أبي الحقيق، فولدت له كعبًا، وكان طويلًا جسيمًا ذا بطن وهامة، فهو - وإن لم يكن يهودي الأصل - قد تهود، وصار في عداد اليهود بالمربى والنشأة. وكان شديد العداوة لرسول اللّٰه ﷺ وللإسلام ولما هزم المشركون ببدر هزيمتهم الساحقة؛ قال: لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم وهم أشراف العرب. وملوك الناس لبطن الأرض خير من ظهرها، خرج إلى مكة يندب من مات. ويحرض على رسول اللّٰه ﷺ وعلى المسلمين فكان مما قال عدو اللّٰه ورسوله يندب أهل القليب من قريش في بدر.

طَحنت رحا بدر لمهلك أهله ... ولِمِثْلِ بدر تستهل وتدمعُ
قُتِّلَتْ سراة القوم حول حِيَاضِهِم ... لا تبعدوا أن الملوك تصرعُ
كم قد أُصِيبَ به من أبيضٍ ماجدٍ ... ذي بهجة تأوي إليه الضيعُ
طلقُ اليدين إذا الكواكبُ أخلفت ... حَمَّال أثقال يَسُودُ ويربعُ
ويقولُ أقوامٌ أسر بسخطهم ... أن ابن أشرفَ ظل كعبًا يجزعُ
صدقوا فليت الأرض ساعة قتلوا ... ظلت تَسُوخُ بأهلها وتصدعُ

ثم رجع كعب بن الأشرف إلى المدينة فشبب[2] بنساء المسلمين حتى آذاهم، وممن شبب بها السيدة أم الفضل زوج العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ. فقال في أبيات ذكرها يونس عن ابن إسحاق:

---

(١) مجلة الأزهر العدد التاسع، السنة السابعة، ذو القعدة ١٣٨٩هـ - يناير ١٩٧٠م.

(٢) ذكر محاسن النساء والتعرض لهن في شعره.

أراحلٌ أنتَ لم ترحل لمتعبة وتاركٌ أنتَ أمّ الفَضْلِ بالحرمِ

والتشبيب بالنساء المسلمات - ولا سيما في البيئة العربية - جريمة منكرة وبخاصة إذا كانت من يهودي سفيه حاقد على الإسلام والمسلمين فلم يكن بدًا إذن من زجره وردعه وتخليص المجتمع من شروره، فقال رسول اللّه ﷺ: من لكعب بن الأشرف، فإنه آذى اللّه ورسوله؟

فقال محمد بن مسلمة الأنصاري الأوسي: أنا لك به يا رسول الله، أنا أقتله، قال: فافعل إن قدرت على ذلك، فرجع محمد بن مسلمة فمكث ثلاثًا لا يأكل، ولا يشرب إلا ما يعلق به نفسه، فذكر ذلك لرسول اللّه ﷺ، فدعاه فقال له: لم تركت الطعام والشراب؟ فقال: يا رسول اللّه قلت لك قولًا لا أدري هل أفي لك به أم لا؟ فقال: إنما عليك الجهد، فقال: يا رسول اللّه لابد لنا من أن نقول- يعني فيك - قولًا لا ترتضيه قلوبنا وإنما نريد به الوصول إلى غايتنا، فقال ﷺ: «قولوا ما بدا لكم فأنتم في حل من ذلك».

فاجتمع على قتله محمد بن مسلمة، وسِلكان بن سلامة بن وقش - وكنيته أبو نائلة أحد بني عبد الأشهل، وكان أخا كعب من الرضاع كما كان نديمه في الجاهلية، ويركن إليه - وعباد بن بشر بن وقش أحد بني عبد الأشهل، وأبو عبس بن جبر واسمه عبد الرحمن.

«تنفيذ الخطة»:

واجتمعوا كي يدبروا الخطة لاغتيال عدو اللّه فرأوا أن يقدموا إليه أبا نائلة سلكان بن سلامة لأنه يطمئن إليه ما لا يطمئن إلى غيره، فجاء فتحدث معه ساعة وتناشدوا الأشعار وكان أبو نائلة يقول الشعر، ثم قال له: ويحك يا ابن الأشراف إني قد جئتك لحاجة أريد ذكرها لك فاكتم عني، قال: أفعل، قال: لقد كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء من البلاء عادتنا به العرب، ورمتنا عن قوس واحد، وقطعت عنا السبل حتى ضاع العيال وجهدت الأنفس وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا، فقال كعب: أنا ابن الأشرف أما والله لقد كنت أخبرك يا ابن سلامة أن الأمر سيصير إلى ما تقول، فقال له سلكان: إني قد أردت أن تبيعنا طعامك ونعطيك رهانًا ونوثق لك وتحسن في ذلك، فقال له كعب: أترهنوني

نساءكم؟ فقال له أبو نائلة: كيف نرهنك نساءنا وأنت أشب أهل يثرب وأعطرهم، وأجمل العرب!!.

فقال كعب: أترهنوني أبناءكم؟ فقال أبو نائلة: كيف نرهنك أبناءنا فتكون سبة وعارًا علينا وإن معي أصحابًا لي على مثل رأيي، وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم، وتحسن في ذلك، ونرهنك من الحلقة[1] ما فيه وفاء، وواعده أن يأتوه ليلًا، وقد أراد سلكان - أبو نائلة - بهذا أن لا ينكر السلاح إذا جاءوا بها، فقال كعب: إن في الحلقة لوفاء.

فرجع أبو نائلة إلى أصحابه فأخبرهم بما جرى بينهما، وأمرهم أن يأخذوا السلاح ثم ينطلقوا فيجتمعوا إليه، فاجتمعوا عند رسول الله ﷺ، ثم مشى معهم رسول الله ﷺ إلى بقيع الغرقد مودعًا، ثم وجههم ودعا لهم فقال: «انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم». ثم رجع رسول الله ﷺ إلى بيته وهو في ليلة مقمرة غراء، ثم ساروا على بركة الله تعالى حتى انتهوا إلى حصنه، فناداه أبو نائلة ومحمد بن مسلمة وكان حديث عهد بعرس، فوثب وعليه ملحفته، فأخذت امرأته بناحيتها وقالت: أنت امرؤ محارب، وإن أصحاب الحرب لا ينزلون في هذه الساعة، وإني لأسمع صوتًا يقطر منه الدم، فقال كعب: إنما هو محمد بن مسلمة، ورضيعي أبو نائلة، لو وجدني نائمًا ما أيقظني، إن الكريم إن دعي إلى طعنة بليل لأجاب.

ثم قال محمد بن مسلمة إذا جاء فسأخذ بشعره فأشمه، فإذا رأيتموني استمكنت منه فاضربوه، فنزل كعب وهو متوشح سيفه، وهو ينفح منه ريح المسك، فتحدث معهم ساعة وتحدثوا معه، ثم قالوا له: هل لك يا ابن الأشرف أن نتماشى إلى شعب العجوز فنتحدث به بقية ليلتنا هذه، قال كعب: إن شئتم، فخرجوا يتماشون فمشوا ساعة، ثم قال له محمد بن مسلمة: ما رأيت كاليوم ريحًا أطيب! أتأذن لي أن أشم رأسك؟ قال كعب: نعم، فشمه، ثم أشمه أصحابه، وكذلك فعل أبو نائلة حتى اطمأن إليهم، ثم عاد محمد ابن مسلمة لمثلها فلما استمكن منه قال: دونكم عدو الله فاقتلوه، فاختلفت عليه أسيافهم فلم تغن شيئًا. قال محمد بن مسلمة: فذكرت مغولًا[2] في سيفي حين رأيت

---

(١) السلاح وما يلبسه المحارب.

(٢) نصل حاد كالسكين أو الخنجر.

أسيافنا لا تغني شيئًا فأخذته وقد صاح صيحة لم يبق حولنا حصن إلا أوقدت عليه نار، قال: فوضعته في ثنته ثم تحاملت عليه حتى بلغت عانته، فوقع عدو اللَّه.

إصابة أحد الفدائيين:

وقد أصيب أحد الفدائيين لما اختلفت السيوف؛ وهو الحارث بن أوس بن معاذ، فجرح في رأسه أو في رجله، أصابته بعض أسياف القوم، قال محمد بن مسلمة: فخرجنا حتى سلكنا على بني أمية بن زيد ثم على بني قريظة ثم على بعاث حتى أسندنا في حرة العريض، وقد أبطأ علينا صاحبنا الحارث بن أوس ونزفه الدم، فوقفنا له ساعة ثم أتانا يتبع آثارنا، قال: فاحتملناه فجئنا به رسول اللَّه ﷺ آخر الليل وهو قائم يصلي فسلمنا عليه، فخرج إلينا، فأخبرناه بقتل عدو اللَّه فَسُرَّ بذلك وحمد اللَّه وكبر، وقال: أفلحت الوجوه، فقالوا: ووجهك يا رسول الله، وتفل على جرح الحارث فما أصابه ضر والتأم الجرح، ورجعوا إلى أهليهم وقد أراحوا المسلمين من هذا الشرير - الخبيث الماكر المستهين بالأعراض - وقد كان لهذا العمل الذي قام به هؤلاء السادة الفدائيون أثر وأي أثر في ملء قلوب اليهود خوفًا، فقد أصبحوا وليس بالمدينة يهودي إلا وهو يخاف على نفسه، وفي هذا قال كعب بن مالك:

فَغُودِرَ منهم كعب صريعًا ... فَذَلَّت بعد مَصْرَعِهِ النضيرُ

على الكفين ثم وقد علتهُ ... بأيدينا مشهرة ذكورُ

بأمر مُحَمَّدٍ إذ دَسَّ ليلًا ... إلى كَعْبٍ أخا كَعْب يسيرُ

فماكره فأنزلهُ بِمَكْرٍ ... ومحمودٌ أخو ثِقَةٍ جَسُورُ

وكان قتل كعب في ربيع الأول من السنة الثالثة للهجرة كما قال ابن سعد في طبقاته.

هذه صورة من صور الفدائية في الإسلام، وهي تدل على مبلغ حرص الصحابة على أن لايمس الرسول ﷺ ولا أن تنال أعراضهم بسوء، وأنهم كانوا يستهينون بالأخطار في سبيل الله ورسوله، وأن رضاهما فوق القرابة والصداقة، كما تدل على مبلغ ما كان يتمتع به العرب من الذكاء والفطنة وحسن التصرف وإحكام التدبير، وأن الفدائيين قد انتظروه حتى جاء فاحتملوه ورجعوا به، وأنهم أوقعوا الرعب في قلوب يهود وهكذا ينبغي أن يكون الفدائيون.

ما كان أجدر أن يلقن جنودنا هذه المواقف التي حفظها لنا الرواة عن الرعيل الأول من المسلمين لتكون حافزًا لهم على التضحية، والفداء والاستبسال في سبيل الدين وفي سبيل الوطن حتى يتخلص العرب من هذا الكابوس الجاثم على صدورهم- اسرائيل الباغية الظالمة - فمن لزعماء الصهيونية يقطع رقابهم ويريحنا من شرورهم، ويزيل الأرض من تحتهم؟ حتى تمتلىء بيوتهم نارًا، وقلوبهم رعبًا ويتركوا الأرض المغتصبة إلى أهلها؟

إنا لَنُحَيِّي هذا العمل الفدائي الذي يقوم به أهل فلسطين والذي يقوم به الجنود في القنال وفي غير القنال راجين أن يستمر، وليس هذا بعجيب من العرب اليوم الذين قام أباؤهم وأجدادهم بهذه التضحيات، والصور الفدائية الخالدة التي قصصنا عليك بعضها، وسنقص عليك المزيد منها إن شاء اللّه تعالى.



(٣)

صور من الفدائية في الإسلام[1]

قتل سلام بن أبي الحقيق[2] :

وكان يكنى أبا رافع، وكان ممن حَزَّبَ الأحزاب على رسول اللَّه ﷺ، وكان شديد الإيذاء له وللمسلمين وكان تاجرًا مشهورًا بأرض الحجاز، وقد اتخذ من ثرائه وسيلة لمحاربة الدعوة الإسلامية.

وكان مما صنع اللَّه تبارك وتعالى لرسوله ﷺ أن هذين الحيين من الأوس والخزرج كانا يتسابقان في سبيل إرضاء الرسول وخدمة الإسلام: لا تصنع الأوس شيئًا إلا وقالت الخزرج: والله لايذهبون بهذا الفضل فلا ينتهون حتى يفعلوا مثله، وأكثر منه، وإذا فعلت الخزرج شيئًا قالت الأوس مثل ذلك.

وهكذا نرى أن العصبية التي كانت بين القبيلتين - حتى كادت تودي بهما وأوصلتهما إلى حافة الهاوية - اتخذت مظهرًا آخر، وأصبحت تنافسًا في ميدان الخير بعد أن كانت تسابقا في سبيل الشر، وهذا من صنع دين اللَّه - الإسلام - في النفوس، فإنه يهذبها ويصقلها ويبدلها حتى تصير كأنها شيء آخر، وصدق الله: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وكان الأوس قد قتلوا الطاغية كعب بن الأشرف كما قرأت في المقال السابق، فقال الخزرج: والله لا يذهبون بهذا الفضل علينا، فتذاكروا: من رجل في عداوة رسول اللَّه ﷺ كابن الأشرف؟ فتذاكروا ابن أبي الحقيق وكان بقصره بخيبر، فاستأذنوا رسول اللَّه

---

(١) مجلة الأزهر العدد العاشر، السنة السابعة، ذو الحجة ١٣٨٩هـ، فبراير ١٩٧٠م.

(٢) سلام بفتح السين وتشديد اللام وقيل: اسمه عبد الله، وقد اقتصر ابن إسحاق على الأول، وذكر البخاري الاسمين، والحقيق: بضم الحاء وفتح القاف وسكون الياء على صورة المصغر، وكان له أخوان مشهودان من أهل خيبر: أحدهما كنانة وكان زوج صفية بنت حيي قبل النبي ﷺ، وأخوه الربيع بن أبي الحقيق، وقد قتلا في فتح خيبر. فتح الباري ج٧ ص ٢٦٢.

في قتله، فأذن لهم وخرج من الخزرج خمسة نفر، وهم عبد اللَّه بن عتيك[1] ومسعود بن سنانة الأسلمي، وعبد اللَّه بن أنيس الجهني حليف الأنصار[2] وأبوه قتادة الأنصاري وخزاعى بن أسود وأمَّرَ عليهم عبد اللَّه بن عتيك، وأوصاهم أن لايقتلوا وليدًا، ولا امرأة، فلما وصلوا إلى خيبر قال لهم عبد الله: مكانكم - أي الزموه - وانطلقوا إلى باب الحصن وتحايل على البواب حتى دخل ثم توجه إلى بيت أبي رافع، وصار يفتح الأبواب الموصدة التي توصل إليه وكلما فتح باب أغلقه من داخل حتى انتهى إليه، فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله فلم يمكنه تمييزه فنادى: يا أبا رافع، فقال: من، فأهوى بالسيف نحو الصوت فلم يغن شيئًا، فعاد عبد اللَّه يناديه وفي كل مرة يغير صوته حتى استمكن منه وقتله، دون أن يؤذي أحدًا من ولده وزوجه، لأنهم لا جريرة لهم، وهذا الحرص من عبد الله بن عتيك يعطينا صورة لأخلاق المسلم؛ فهو لا يقتل إلا من بغى وتجبر وآذى اللَّه ورسوله ولا يأخذ البريء بذنب المذنب ولا الولد بجريمة أبيه، أو الزوجة بوزر زوجها.

ثم خرج من البيت وكان نظره ضعيفًا فوقع من فوق السلم فانخلعت رجله فعصبها بعمامته، وصار يتحامل على نفسه حتى وصل إلى أصحابه فأخبرهم فقالوا: النجاة وأخذوا السير حتى انتهوا إلى رسول اللَّه ﷺ فلما رآهم قال: «أفلحت الوجوه»، وحدثوه بما كان، ثم قال لعبد اللَّه بن عتيك: (ابسط رجلك) فمسحها عليه الصلاة والسلام فكأنه لم يشتكها قط وعادت أحسن مما كانت.

وإليك هذه القصة المثيرة والخطة المحكمة التي قام بها هؤلاء الرهط المسلمون الفدائيون - كما رواها الإمام البخاري في صحيحه لتكون أنموذجًا يحتذى في العمل الفدائي - روى الإمام البخاري في صحيحه بسنده من طريق إسرائيل عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب قال: «بعث رسول اللَّه ﷺ إلى أبي رافع اليهودي رجالًا من الأنصار فأمر عليهم عبد اللَّه بن عتيك، وكان أبو رافع يؤذي رسول اللَّه ﷺ ويعين عليه، وكان في حصن له بأرض الحجاز - يعني خيبر - فلما دنوا منه وقد غربت الشمس وراح الناس

(١) بفتح العين والمهملة وكسر التاء المثناة، ابن عقيل بن الأسود من بني سليمة.
(٢) البعض فرق بين عبد الله بن أنيس الجهني، وعبد الله بن أنيس الأنصاري، والصحيح أنهما واحد.

بسرحهم، فقال عبد اللّه لأصحابه: اجلسوا أي مكانكم فإني منطلق ومتلطف للبواب لعلي أن أدخل؛ فأقبل حتى دنا من الباب، ثم تقنع بثوبه وكأنه يقضي حاجته، وقد دخل الناس، فهتف به البواب: يا عبد اللّه إن كنت تريد أن تدخل؛ فادخل، فإني أريد أن أغلق الباب، فدخلت، فكمنت، فلما دخل الناس؛ أغلق الباب ثم علق الأغاليق[1] «على ود[2] قال: فقمت إلى الأقاليد[3] فأخذتها ففتحت الباب، وكان أبو رافع يسمر عنده، وكان في علالي له فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت إليه، فجعلت كلما فتحت بابًا أغلقت عليَّ من داخل، قلت: إن القوم نذروا بي[4]، لم يخلصوا إليَّ حتى أقتله فانتهيت إليه فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله لا أدري أين هو من البيت، فقلت: أبا رافع، فقال: من هذا؟! فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف وأنا دهش فما أغنيت شيئًا، وصاح، فخرجت من البيت فأمكث غير بعيد، ثم دخلت فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟

فقال: لأمك الويل إن رجلًا في البيت ضربني قال بالسيف قال: فاضربه ضربة أثخنته ولم أقتله، ثم وضعت ضبيب[5] السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره فعرفت أني قتلته، فجعلت أفتح الأبواب بابًا بابًا، حتى انتهيت إلى درجة له، فوضعت رجلي وأنا أرى أني قد انتهيت إلى الأرض فوقعت في ليلة مقمرة فأنكسرت ساقي فعصبتها بعمامة.

ثم انطلقت حتى جلست على الباب، فقلت: لا أخرج الليلة حتى أعلم: أقتلته؟ فلما صاح الديك قام الناعى[6] على السور، فقال: أنعي أبا رافع تاجر أهل الحجاز. فانطلقت إلى أصحابي فقلت: النجاء[7] فقد قتل اللّه أبا رافع، فانتهيت إلى النبي ﷺ فحدثته، فقال لي: (ابسط رجلك) فبسطت رجلي فمسحها فكأنها لم أشتكها قط، وفي

---

(١) أي المفاتيح.

(٢) بفتح الواو وتشديد الدال: الوتد.

(٣) جمع إقليد وهو المفتاح.

(٤) نذِروا بكسر الذال: أي علموا.

(٥) طرفه وحده.

(٦) من يخبر بوفاة الميت.

(٧) بالنصب أي: أسرعوا بالهرب.

حديث عبد اللّٰه بن أنيس أحد الفدائيين في هذه القصة قال: (وتوجهنا من خيبر، فكنا نكمن النهار ونسير الليل، وإذا كمنا بالنهار أقعدنا منا واحدًا يحرسنا، فإذا رأى شيئًا نخافه أشار إلينا فلما قربنا من المدينة كانت نوبتي فأشرت إليهم، فخرجوا سراعًا ثم لحقتهم فدخلنا المدينة، فقالوا ماذا رأيت؟ قلت: ما رأيت شيئًا، ولكن خشيت أن تكونوا أعييتم فأحببت أن يحملكم الفزع، وورد أيضًا في رواية ابن إسحاق: امرأته صاحت فنوهت بهم، فجعل عبد الله بن عتيك يرفع السيف عليها، ثم يذكر نهي رسول اللّٰه ﷺ عن قتل النساء فيكف عنها!!.

وهذا إن دل على شيء. فإنما يدل على عظمة أخلاق الصحابة الكرام، وعلى قوة ضبطهم لأنفسهم حتى في المواقف التي من شأنها أن يفلت الزمام، ويتطاول السيف فلله در هذه النفوس المؤمنة المضحية بالنفس في سبيل الدين والعقيدة ورضاء اللّٰه ورسوله، ولله هؤلاء النفر الأبطال الذين قتلوا هذا الجبار المتكبر، الساعي في الأرض بالإفساد فرضي اللّٰه عنهم وأرضاهم، فمن لزعماء صهيون اليوم يا قومي العرب؟!!

هذا وهناك صورة أخرى من الفدائية لا تقل عما ذكرنا تضحية وتفدية، فإلى مقال آت إن شاء اللّٰه تعالى.



(٤)

فدائيون من الأوس والخزرج[1]

الفدائية في الإسلام مخاطرة بالنفس التي هي أعز شيء على الإنسان في سبيل العقيدة والغاية الشريفة والدفاع عن العرض والأوطان.

وقد تبارى (الأوس) و (الخزرج) في هذا الميدان فسجلت كل قبيلة منهما حدثًا هامًا في تاريخ الإسلام.

أما (الأوس) فقد سجل بطلهم الفدائي محمد بن مسلمة وإخوانه صورة فدائية رائعة لاغتيال رأس الكفر كعب بن الأشرف، وأنهى بذلك صحيفة جرائمه ضد رسول اللَّه ﷺ وضد المسلمين.

وكان ابن الأشراف عربيًّا من بني نبهان وهم بطن من طيء، وكان أبوه أصاب دمًا في الجاهلية فأتى المدينة فحالف بني النضير، فشرف فيهم وتزوج عقيلة بنت أبي الحقيق فولدت له كعبًا، وكان طويلًا جسيمًا ذا بطن وهامة، فهو - وإن لم يكن يهودي الأصل - قد تهود وصار في عداد اليهود بالمربى والنشأة، وكان شديد العداوة لرسول اللَّه ﷺ وللإسلام، ولما هزم المشركون ببدر هزيمتهم الساحقة قال: لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم - وهم أشراف العرب وملوك الناس- لبطن الأرض خير من ظهرها، ثم خرج إلى مكة يندب من مات ويحرض على رسول اللَّه ﷺ وعلى المسلمين.

ثم رجع كعب بن الأشرف إلى المدينة، فشبب بنساء المسلمين حتى أكادهم، وممن شبب بها السيدة أم الفضل زوج العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ، فقال في أبيات ذكرها يونس بن إسحاق:

أراحلٌ أنتَ لَمْ تَرْحَل لِمَنْهَبَةٍ   وَتَارِكٌ أنتَ أُمَ الفَضْلِ بالحرمِ

والتشبيب بالنساء المسلمات ولا سيما في البيئة العربية جريمة منكرة وبخاصة إذا كانت من يهودي سفيه حاقد على الإسلام والمسلمين، فلم يكن بد إذًا من زجره وردعه وتخليص المجتمع من شروره، فقال رسول اللَّه ﷺ: من لكعب بن الأشرف، فإنه آذى الله ورسوله ؟ - فقال محمد بن مسلمة (الأنصاري الأوسي): أنا لك به يا

(١) مجلة منبر الإسلام، العدد ١١، السنة ٢٩، ذو القعدة ١٣٩١هـ، ديسمبر ١٩٧١م.

رسول الله، أنا أقتله، قال: فافعل إن قدرت على ذلك، فرجع محمد بن مسلمة فمكث ثلاثًا لا يأكل ولا يشرب إلا ما يعلق به نفسه فذكر ذلك لرسول اللّه ﷺ فدعاه، فقال له: لم تركت الطعام والشراب؟ فقال: يا رسول اللّه قلت لك قولًا لا أدري هل أوفين لك به أم لا، فقال: إنما عليك الجهد، فقال: يا رسول اللّه لابد لنا من أن نقول- يعني فيك - قولًا لا ترتضيه قلوبنا وإنما نريد به الوصول إلى غايتنا، فقال ﷺ: قولوا ما بدا لكم فأنتم في حل من ذلك، فاجتمع على قتله محمد بن مسلمة وسلكان بن سلامة بن وقش - وكنيته أبو نائلة أحد بني عبد الأشهل وكان أخا كعب من الرضاع كما كان نديمه في الجاهلية ويركن إليه، وعباد بن بشر بن وقش أحد بني عبد الأشهل، وأبو عبس بن جبر واسمه عبد الرحمن.

تنفيذ الخطة :

واجتمعوا كي يدبروا الخطة لاغتيال عدو اللّه فرأوا أن يقدموا إليه أبا نائلة سلكان بن سلامة لأنه يطمئن إليه ولا يطمئن إلى غيره - فجاءه فتحدث معه ساعة وتناشدوا الأشعار وكان أبو نائلة ممن يقول الشعر، ثم قال له: ويحك يا ابن الأشرف إني قد جئت لحاجة أريد ذكرها لك فاكتم عليَّ. قال: أفعل، قال: لقد كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء من البلاء عادتنا به العرب ورمتنا عن قوس واحد، وقطعت عنا السبل حتى ضاع العيال وجهدت الأنفس وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا، فقال كعب: أنا ابن الأشرف أما والله لقد كنت أخبرك يا ابن سلامة أن الأمر سيصير إلى ما تقول، فقال له سلكان: إني قد أردت أن تبيعنا طعامًا، ونعطيك رهانًا ونوثق لك وتحسن في ذلك، فقال له كعب: ارهنوني نساءكم؟ فقال له أبو نائلة: كيف نرهنك نساءنا وأنت أشب أهل يثرب وأعطرهم، وأجمل العرب؟ فقال كعب: أترهنوني أبناءكم، فقال أبو نائلة: كيف نرهنك أبناءنا فتكون سبة وعارًا علينا، وإن معي أصحابا لي على مثل رأيي وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن في ذلك ونرهنك من الحلقة سلاح الحرب ما فيه وفاء، وواعدوه أن يأتوه ليلًا وقد أراد سلكان - أبو نائلة - بهذا أن لا ينكر السلاح إذا جاءوا بها، فقال كعب: إن في الحلقة لوفاء.

فرجع أبو نائلة إلى أصحابه فأخبرهم بما جرى بينهما وأمرهم أن يأخذوا السلاح

وينطلقوا فيجتمعوا إليه فاجتمعوا عند رسول اللَّه ﷺ، ثم مشى معهم رسول اللَّه ﷺ إلى بقيع الغرقد مودعًا، ثم وجههم ودعا لهم فقال: انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم، ثم رجع رسول اللَّه حتى انتهوا إلى حصنه فناداه أبو نائلة ومحمد بن مسلمة، وكان حديث عهد بعرس فوثب وعليه ملحفته، فأخفت امرأته بناحيتها وقالت: إنك لمرؤ محارب، وإن أصحاب الحرب لا ينزلون في هذه الساعة، وإني لأسمع صوتًا يقطر منه الدم، فقال كعب: إنما هو محمد بن مسلمة ورضيعي أبو نائلة لو وجدني نائمًا ما أيقظني، إن الكريم لو دعي إلى طعنة بليل لأجاب.

ثم قال محمد بن مسلمة: إذا جاء فآخذ بشعره فأشمه، فإذا رأيتموني استمكنت منه فأصيبوه، فقام كعب وهو متوشح سيفه، وهو ينفح منه ريح المسك، فتحدث معهم ساعة، وتحدثوا معه، ثم قالوا له: هل لك يا ابن الأشرف أن نتماشى إلى شعب العجوز فنتحدث به بقية ليلتنا هذه؟ قال كعب: إن شئتم، فخرجوا يتماشون، فمشوا ساعة، ثم قال له محمد بن مسلمة: ما رأيت كاليوم ريحا أطيب؛ أتاذن لي أن أشم رأسك؟ قال كعب: نعم، فشمه، ثم أشم أصحابه، وكذلك فعل أبو نائلة، حتى أطمأن إليهم، ثم عاد ابن مسلمة لمثلها فلما استمكن منه قال: دونكم عدو اللَّه فاقتلوه.

إصابة أحد الفدائيين :

وقد أصيب أحد الفدائيين لما اختلفت السيوف وهو الحارث بن أوس بن معاذ؛ فجرح في رأسه أو في رجله، وأصابته بعض أسياف القوم، قال محمد بن مسلمة: فخرجنا حتى سلكنا على بني أمية بن زيد ثم على بني قريظة، ثم على بعاث حتى أسندنا في حرة العريض، وقد أبطأ علينا صاحبنا الحارث بن أوس ونزفه الدم، فوقفنا له ساعة ثم أتانا يتبع آثارنا قال: فاحتملناه فجئنا به رسول اللَّه ﷺ آخر الليل وهو قائم يصلي، فسلمنا عليه فخرج إلينا، فأخبرناه بقتل عدو اللَّه فسر بذلك وحمد اللَّه وكبر، وقال: (أفلحت الوجوه)، فقالوا: ووجهك يا رسول الله. وتفل على جرح الحارث فما أصابه ضر والتأم الجرح، ورجعوا إلى أهليهم وقد أراحوا المسلمين من هذا الشرير- الخبيث الماكر المستهين بالأعراض، وكان لهذا العمل الذي قام به هؤلاء السادة الفدائيون أثرًا - وأي أثر - في ملء قلوب اليهود خوفًا، فقد أصبحوا وليس بالمدينة يهودي إلا وهو

يخاف على نفسه، وفي هذا قال كعب:

فغودر منهم كعب صريعًا فذلت بعد مصرعهِ النضيرُ
على الكفينِ ثم وقد علتهُ بأيدينا مُشهرة ذكورُ
بأمر مُحَمَّدٍ إذْ دَسَّ ليلًا إلى كعبٍ أخا كعب يسيرُ
فماكره فأنزلهُ بمكرٍ ومحمود أخو ثقة جسورُ

وكان قتل كعب في ربيع الأول من السنة الثالثة للهجرة كما قال ابن سعد في طبقاته.

هذه صورة من صور الفدائية في الإسلام، وهي تدل على مبلغ حرص الصحابة على أن لا يمس الرسول ولا أن تنال أعراضهم بسوء، وأنهم كانوا يستهينون بالأخطار في سبيل اللّٰه ورسوله، وأن رضاهما فوق القرابة والصداقة، كما تدل على مبلغ ما كان يتمتع به العرب من الذكاء والفطنة وحسن التصرف وإحكام التدبير.

تحول (الصراع الدامي) بين قبيلتي (الأوس) و (الخزرج) قبل الإسلام إلى (تنافس) في الخير وبطولات في الدفاع عن العقيدة الإسلامية.

وكما سجل الفدائيون من (الأوس) مصرع كعب بن الأشرف على يدي محمد بن مسلمة وإخوانه فقد سجل الفدائيون من (الخزرج) مصرع سلام بن أبي الحقيق.. وقال الخزرج: والله لا يذهب الأوس بالفضل علينا.

وكان سلام بن أبي الحقيق تاجرًا مشهورًا وزوجًا لصفية بنت حُيي قبل زواجها من النبي ﷺ، وكان ممن حزب الأحزاب ضد رسول اللّٰه ﷺ، وقدم أمواله الطائلة سلاح حرب على الدعوة الإسلامية ووسيلة لإيذاء المسلمين.

وكان سلام بن أبي الحقيق يقيم في قصره بخيبر، فاستأذن الخزرج رسول اللّٰه في قتله، فأذن لهم وخرج منهم خمسة نفر، وهم: عبد اللّٰه بن عتيك، ومسعود بن سنان الأسلمي، وعبد اللّٰه ابن أنيس الجهني حليف الأنصار، وأبو قتادة الأنصاري، وخزاعى ابن أسود، وأمَّر عليهم عبد الله بن عتيك، وأوصاهم أن لا يقتلوا وليدًا ولا امرأة، فلما وصلوا إلى خيبر قال لهم عبد الله: مكانكم - أي الزموه - وانطلق إلى باب الحصن وتحايل على الباب حتى دخل ثم توجه إلى بيت أبي رافع، وصار يفتح الأبواب الموصدة التي توصل إليه، وكلما فتح بابًا أغلق من داخل حتى انتهى إليه، فإذا هو في بيت مظلم

وسط عياله فلم يمكنه تمييزه، فنادى: يا أبا رافع فقال: من؟ فأهوى بالسيف نحو الصوت فلم يغن شيئًا، فعاد عبد اللَّه يناديه وفي كل مرة يغير صوته حتى استمكن منه وقتله دون أن يؤذي أحدًا من ولده وزوجه لأنهم لا جريرة لهم، وهذا الحرص من عبد الله بن عتيك يعطينا صورة لأخلاق المسلم؛ فهو لا يقتل إلا من بغى وتجبر وآذى اللَّه ورسوله، ولا يأخذ البريء بذنب المذنب، ولا الولد بجريمة أبيه، أو الزوجة بوزر زوجها.

ثم خرج عبد اللَّه بن عتيك من البيت - وكان نظره ضعيفًا - فوقع من فوق السلم فانخلعت رجله فعصبها بعمامته، وصار يتحامل علي نفسه حتي وصل إلى أصحابه فأخبرهم فقالوا: النجاة؛ النجاة، وأخذوا السير حتى انتهوا إلى رسول اللَّه ﷺ فلما رآهم قال: «أفلحت الوجوه»، وحدثوه بما كان ثم قال لعبد اللَّه بن عتيك: «ابسط رجلك» فمسحها عليه الصلاة والسلام فكأنه لم يشتكها قط، وعادت أحسن مما كانت، وقد روى الإمام البخاري هذه القصة المثيرة كلها بسنده الصحيح عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب قال: (بعث رسول اللَّه ﷺ إلى أبي رافع اليهودي رجالًا من الأنصار فأمَّر عليهم عبد اللَّه بن عتيك، وكان أبو رافع يؤذي رسول اللَّه ﷺ ويعين عليه، وكان في حصن له بأرض الحجاز - يعني خيبر - فلما دنوا منه وقد غربت الشمس وراح الناس بسرحهم، فقال عبد الله لأصحابه: اجلسوا مكانكم فإني منطلق ومتلطف للبواب لعلي أن أدخل، فأقبل حتى دنا من الباب ثم تقنع بثوبه كأنه يقضي حاجته وقد دخل الناس، فهتف به البواب: يا عبد اللَّه إن كنت تريد الدخول فادخل، فإني أريد أن أغلق الباب، فدخلت، فلما دخل الناس أغلق الباب ثم علق الأغاليق علي ود - أي المفاتيح على وتد - قال: فقمت إلى الأقاليد - المفاتيح - فأخذتها ففتحت الباب، وكان أبو رافع يُسْمَرُ عنده وكان في علالي له فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت إليه، فجعلت كلما فتحت بابًا أغلقت عليّ من داخل، قلت: إن القوم نذروا بي - أي: علموا - لم يخلصوا إليَّ حتى أقتله فانتهيت إليه، فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله لا أدري أين هو من البيت. فقلت: أبا رافع فقال من هذا؟ فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف، فما أغنيت شيئًا، وصاح فخرجت من البيت، فأمكث غير بعيد، ثم دخلت إليه، فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟! فقال: لأمك الويل إن رجلًا في البيت ضربني بالسيف.

قال: فضربته ضربة أثخنته ولم أقتله ثم وضعت ضبيب - حد - السيف في بطنه حتى

أخذ في ظهره فعرفت أني قتلته فجعلت أفتح الأبواب بابًا بابًا حتى انتهيت إلى درجة له فوضعت رجلي وأنا أرى أني قد انتهيت إلى الأرض فوقعت في ليلة مقمرة فانكسرت ساقي فعصبتها بعمامة ثم انطلقت حتى جلست على الباب، فقلت: لا أخرج الليلة حتى أعلم: أقتلته؟ فلما صاح الديك قام الناعي على السور فقال: أنعي أبا رافع تاجر أهل الحجاز، فانطلقت إلى أصحابي فقلت: النجاء لقد قتل اللَّه أبا رافع. فانتهيت إلى النبي ﷺ فحدثته فقال لي: «ابسط رجلك» فبسطت رجلي، فمسحها فكأنها لم أشتكها قط.

وفي حديث عبد اللَّه بن أنيس أحد الفدائيين في هذه القصة قال: (توجهنا من خيبر فكنا نكمن النهار ونسير الليل، وإذا كمنا بالنهار أقعدنا منا واحدًا يحرسنا، فإذا رأى شيئًا نخافه أشار إلينا فلما قربنا من المدينة كانت نوبتي، فأشرت إليهم فخرجوا سراعًا، ثم لحقتهم فدخلنا المدينة، فقالوا: ماذا رأيت؟ قلت: ما رأيت شيئًا ولكن خشيت أن تكونوا أعييتم فأحببت أن يحملكم الفزع، وورد أيضًا في رواية ابن إسحاق أن امرأته صاحت فنوهت بهم فجعل عبد اللَّه بن عتيك يرفع السيف عليها ثم يذكر نهي رسول اللَّه ﷺ في قتل النساء فيكف عنها.

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على عظمة أخلاق الصحابة الكرام، وعلى قوة ضبطهم لأنفسهم حتى في المواقف التي من شأنها أن يفلت الزمام ويتطاول السيف، فلله در هذه النفوس والعقيدة المؤمنة المضحية بالنفس في سبيل الدين والعقيدة ورضا اللَّه ورسوله، ولله هؤلاء النفر الأبطال الذين قتلوا هذا الجبار المتكبر الساعى في الأرض بالإفساد، فرضي اللَّه عنهم وأرضاهم.



(٥)

بطولات إسلامية عربية[1]

العرب قوم مشهورون من قديم الزمان بالشجاعة والبطولة الفائقة، وقد جاء الإسلام فنمى فيهم الشجاعة والبطولة، وغير في نفوسهم القيم، والمعاني التي لأجلها يقاتلون ويظهرون الشجاعة، فبعد أن كانوا يقاتلون عصبية للقبيلة أو للأهل، أو للسلب والمغنم أو لإظهار الشجاعة والفتوة، أصبحوا يجاهدون ويقاتلون في سبيل العقيدة وحمايتها والدفاع عنها، ونشر رسالة الإسلام، والقيم الإنسانية العالية للفوز أولًا وبالذات برضوان الله، ورضاء رسوله ﷺ، وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمؤمنين المجاهدين المكافحين، والمستشهدين في سبيل دينهم وعقيدتهم، وصدق اللّه حيث يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

وأصبح المسلم العربي يرى أن كلا حاليه غنم وخير: إن انتصر غنم أم لم يغنم؛ فهو خير، وإن استشهد ومات في سبيل الله؛ فهو خير وحسن به، وصدق اللّه حيث يقول معلمًا لهم ومهذبًا وملقنا: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ﴾ [التوبة: ٥٢].

والإسلام وإن أحل الغنائم لأنه الدين العام الخالد الصالح لكل زمان ومكان؛ إلا أن الغنيمة لم تكن هي الحامل للمسلمين الأوائل على التضحية والجهاد، وإنما كانت أمرًا عرضيًا، فإن كانت فبها ونعمت، وإن لم تكن فلا أسف ولا ضير بل ورد عن النبي - صلوات اللّه وسلامه عليه - أن ثواب المجاهد الذي لم يغنم أعظم من ثواب المجاهد الذي غنم، ففي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في صحيحه بسنده عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ قال: «ما من غازية تغزو في سبيل اللّه فيصيبون الغنيمة إلا

(١) مجلة منبر الإسلام، العدد السادس، السنة ٢٤، جمادى الآخرة، ١٣٨٦هـ، سبتمبر ١٩٦٦م.

تعجلوا ثلثي أجرهم من الآخرة ويبقي لهم الثلث، فإن لم يصيبوا غنيمة تم لهم أجرهم».

وفي الحق أن العقيدة الإسلامية من الإيمان بالله واليوم الآخر، وما أعده اللَّه في هذا اليوم للمجاهدين والمستشهدين في سبيله والإيمان بالرسالة وبالرسول ﷺ؛ صيرت من الجبناء شجعانا، ومن الشجعان أبطالًا، ومن الأبطال قوى خارقة في باب الكفاح والنزال. وليس أدل على هذا من أن الفئة القليلة المؤمنة كانت تلتقي بالفئة الكثيرة المشركة- والكل عرب، وفيهم شجعان، وفيهم أبطال- فإذا الفئة القليلة تهزم الفئة الكثيرة التي قد تزيد عنها أضعافًا، وطبعي أنه لا يمكن تعليل هذا إلا بما تصنعه العقيدة في أصحابها من قوى معنوية تتضاءل أمامها الجبال الراسيات، فضلًا عن النفوس الخاويات والقلوب الفارغات، هذه مقدمة لا بد منها بين يدي هذه الصور الإسلامية المشرفة التي سنعرضها أمام أعين القراء الكرام، وهذه البطولات النادرة في تاريخ الدنيا قديمها وحديثها.

بطولات أصحاب سرية الرجيع :

في صفر من السنة الرابعة للهجرة قدم على رسول اللَّه ﷺ رهط من عَضَل - بفتح العين والضاد - والقارة - بالقاف وتخفيف الراء - وهما بطنان من بني الهورة، فقالوا: يا رسول اللَّه إن فينا إسلامًا فابعث معنا نفرًا من أصحابك يفقهوننا في الدين، ويقرئوننا القرآن، ويعلموننا الشرائع، فبعث رسول اللَّه ﷺ معهم نفرًا: ستة في رواية ابن إسحاق، وعشرة في رواية الإمام البخاري - وهو الأصح - ليؤدوا هذه الرسالة السامية، وليكونوا عيونًا على قريش والمشركين، وأَمَّرَ عليهم عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، فساروا حتى إذا كانوا بالرجيع - اسم موضع من بلاد هذيل بين مكة وعسفان على ثمانية أميال منها - غدروا بهم، واستصرخوا عليهم بني لحيان من هذيل - وهم قوم سفيان ابن خالد الهذلي الذي قتله عبد اللَّه بن أنيس بسبب تجميعه الجموع للنبي، فنفروا إليهم في مائتي رجل، فلم يرع المسلمين وهم في رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوهم، فلجأ رجال السرية إلى ربوة عالية واستعصموا بها، وأخذوا أسيافهم ليقاتلوهم، فلجأ المشركون إلى الخديعة وقالوا لهم: إنا والله ما نريد قتلكم، ولكنا

نريد أن نصيب بكم من أهل مكة، ولكم عهد اللّٰه وميثاقه أن لا نقتلكم، أما عاصم رئيس السرية وستة معه فقالوا: والله لا نقبل من مشرك عهدًا ولا عقدًا أبدًا، وأبوا التسليم، وقاتلوا حتى استشهدوا.

واغتر بعهدهم ثلاثة: خُبَيْب بن عدي - بضم الخاء وفتح الباء وسكون الياء - وزيد بن الدثنة - بفتح الدال وكسر الثاء بعدها نون -، وعبد اللّٰه بن طارق فنزلوا إليهم، فلما استمسكوا بهم حلوا أوتار قسيهم فربطوهم بها. فقال عبد الله: هذا أول الغدر، حتى إذا كانوا بالظهران في طريقهم إلى مكة انتزع عبد اللّٰه يده منهم ثم استأخر عنهم وأخذ بسيفه ليقاتلهم، فرجموه بالحجارة حتى مات شهيدًا رضي اللّٰه عنه.

وأما خبيب وزيد فباعوهما لأناس من أهل مكة بأسيرين من هذيل، فاشترى خبيبًا بنو الحارث بن عامر ليقتلوه بأبيهم الذي قُتِل يوم بدر، واشترى زيدًا صفوانُ بن أمية ليقتله بأبيه، فحبسوهما حتى انتهت أشهر الحرام فأخرجوهما إلى التنعيم فقتلوهما.

وخبيب الخلقي :

وكان من أمر خبيب وهو محبوس في دار لبني الحارث أنه قد استعار من جارية لهم موسى ليستحد بها ويتطيب لما دنا قتله، فأعارته إياه، وغفلت عن غلام لسادتها درج حتى أتى خبيبًا، فوضعه على فخذه، فلما رأت الجارية هذا المنظر فزعت فزعة شديدة، وقالت في نفسها: أصاب - والله - الرجل ثأره بقتل هذا الغلام، فأدرك سيدنا خبيب ما حدثت به نفسها، فقال لها: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل هذا إن شاء الله.

كرامة خبيب :

وكانت الجارية تحدث بعد أن أسلمت فتقول: ما رأيت أسيرًا قط خيرًا من خبيب، ولقد رأيته يأكل من قطف من عنب وما بمكة يؤمئذ ثمرة، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزقًا رزقه الله!

أول من سن الركعتين عند القتل :

ولما خرجوا به إلى الحل ليقتلوه قال: دعوني أصلي ركعتين، فكان أول من سن الركعتين عند القتل، ثم لما فرغ من صلاته انصرف إليهم قائلًا: لولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت لزدت، ولما رفعوه على الخشبة وأوثقوه ليقتلوه صبرًا قال هذه

الكلمات: اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك، فبلغه الغداة ما يفعل بنا، اللهم أحصهم عددا، واقتلهم بددا - متفرقين - ولاتبق منهم أحدًا ثم أنشد يقول:

لقد جَمَعَ الأحزابُ حولي وألّبُوا قبائلهم واستجمعوا كُلَّ مجمعِ

وكُلّهم مُبدي العداوة جاهدٌ عليَّ لأني في وثاق بمضيعِ

وقد جَمَعُوا أبناءهم ونساءهم وقربت من جذعٍ طويلٍ ممنعِ

إلى اللَّهِ أشكو غُربتي ثم كُرْبَتي وما أَرْصَدَ الأعداءُ لي عند مصرعي

إلى أن قال:

فَلَسْتُ أُبَالي حِيْنَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا عَلَىَ أَي جَنْبٍ كَانَ فِي اللَّهِ مَصْرَعِي

وذلك في ذاتِ الإلهِ وإنْ يشأ يُبَارك على أَوْصَالِ شلوٍ مُمَزَّعِ

ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقتله ومات - رضي اللَّه عنه - شهيد إيمانه وإخلاصه لدينه ولنبيه.

وأما زيد بن الدثنة فقد كان أمره عجبًا هو الآخر، ذلك أن المشركين لما جاءوا به ليقتلوه، وعاين دلائل الموت قال له أبو سفيان بن حرب مختبرًا له، ومتعرفًا على مبلغ إيمانه وقوة عقيدته: أنشدك اللَّه يا زيد أتحب أن محمدًا الآن عندنا مكانك تضرب عنقه وأنك في أهلك؟ فقال زيد هذه الكلمة المؤمنة: «والله ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذية وأنا جالس في أهلي»!.

فقال أبو سفيان: وقد استولت عليه الدهشة والاستغراب ما رأيت أحدًا من الناس يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا، ثم قام إليه عبد لصفوان بن أمية يسمى: نسطاس، فقتله - رضي اللَّه عنه وأرضاه.

كرامة لعاصم - رضي اللَّه عنه -:

ولما قتل عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح أمير السرية أرادت هذيل أخذ رأسه ليبيعوه لسلافة بنت سعد إحدى نساء قريش الموتورة من سيدنا عاصم، ذلك أنه كان قد قتل ابنها يوم أحد فنذرت: لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن في قحفه الخمر - القحف بكسر القاف أعلى الدماغ - ولكن اللَّه سبحانه وتعالى منعه من هذيل فبعث على جسده مثل الظلة من الدَبْر - بفتح الدال وسكون الباء: الزنابير أو ذكور النحل - فلم يتمكنوا من

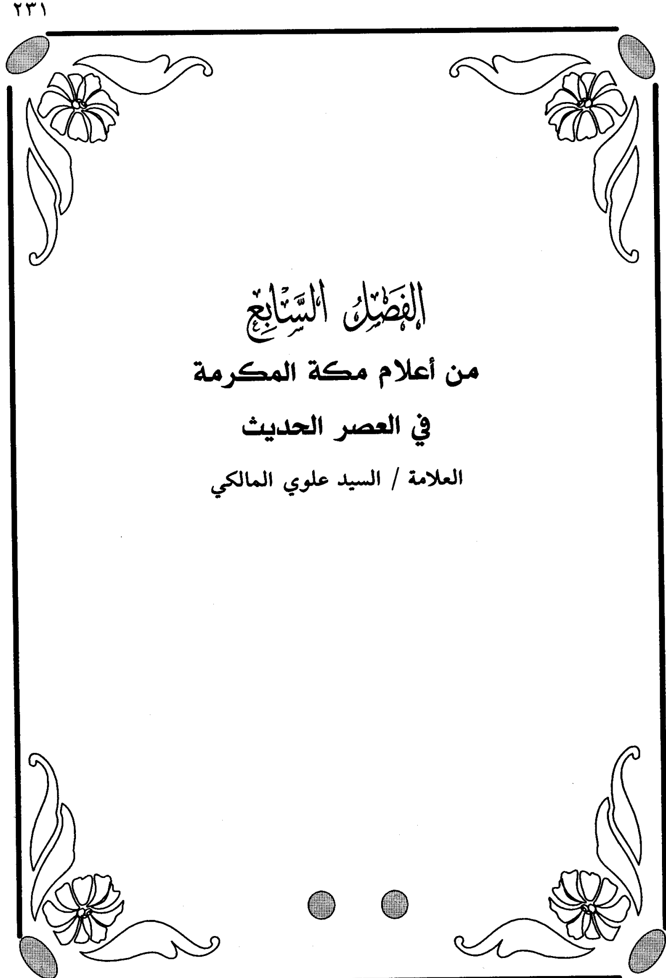
أخذ رأسه ولذلك كان يسمى عاصم هذا بعد وفاته بحمي الدبر كرامة أكرمه اللّٰه بها. وكذلك أرادت قريش أن تنال من عاصم فبعثوا بعثًا ليأتيهم به لأنه كان قَتَل عظيمًا من عظمائهم في بدر، ولكن الدبر منعته منهم أيضًا، فقالوا: دعوه حتى يمسي فيذهب عنه الدبر، فنأخذه فغيبه اللّٰه في الوادي فما عرفوا له أثرًا.

وكان عاصم - رضي اللّٰه عنه - قد أعطى اللّٰه عهدًا أن لا يمسه مشرك، ولا يمس مشركًا أبدًا تنجسًا أي كراهة أن يناله شيء من نجاسته، فلما وفى للّٰه بالعهد في حياته وفى اللّٰه - عز شأنه - له بالحفظ والرعاية بعد وفاته.

ولذلك لما بلغ سيدنا عمر بن الخطاب - رضي اللّٰه عنه - قصة الدبر ومنع اللّٰه جسده أن ينال منه المشركون قال: «يحفظ اللّٰه العبد المؤمن، كان عاصم نذر أن لا يمسه مشرك، ولا يمس مشركًا أبدًا في حياته، فمنعه اللّٰه بعد وفاته، كما امتنع منه في حياته»!.

ألا فليكن لكم يا أنصار الإسلام ويا أحباب رسول اللّٰه ﷺ قدوة حسنة في أبطال سرية الرجيع، وليكن لكم فيما صنع اللّٰه مع عبده ووليه عاصم عبرة وعظة وضعوا نصب أعينكم قول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨].





الفصل السابع

من أعلام مكة المكرمة

في العصر الحديث

العلامة / السيد علوي المالكي

كلمة وفاء... ودمعة رثاء[١]

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠].

لم أكن أعلم بوفاة أخينا العالم العلامة السيد علوي المالكي[٢] - رحمه اللَّه - حتى وافتني مجلة رابطة العالم الإسلامي بهذا النبأ المحزن، وقد وصلتني في أخريات ربيع الأول من عامنا هذا فرأيت أن أكتب كلمة، وفاء لصحبة دامت بمكة المكرمة بضع سنين، وأن أسجل دمعة رثاء في هذا المصاب الجلل الذي لم يصب به أهل الحرم المكي الشريف فحسب وإنما أصاب الوطن الإسلامي في عالم من خيرة علمائه، مكنت له إقامته ببلد اللَّه الحرام إقامة طويلة التعرف بالكثيرين من علماء الإسلام، ورجالاته، وهيأت له دماثة أخلاقه وسماحة طباعه أن يكون على صلة وثيقة بكثير من حجاج بيت اللَّه وعماره وليس موت العلماء العاملين بالأمر الهين؛ وإنما هي مصيبة في الدنيا، والدين لن يسدها إلا أن يقوم مقامه صنو له في العلم والخلق القويم.

وقد أشار إلى ذلك الصادق المصدوق ﷺ حيث قال: «إن اللَّه لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، وإنما ينزع العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالمًا اتخذ الناس رؤساء جهالًا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا». رواه البخاري ومسلم.

وصحبتي بالمغفور له[٣] السيد علوي المالكي ترجع إلى بضع وعشرين عامًا، أيام كنت أقوم بالتدريس بالمعهد العلمي السعودي بمكة المكرمة ثم في كلية الشريعة، وشاركت في وضع المناهج الدينية لمدراس ومعاهد وكليات هذا البلد الأمين، وكم اجتمعنا بداره التي كانت تطل على المسجد الحرام نسمر بمدارسة العلم ونتجاذب الحديث في مدارسة التفسير والحديث، والمذاكرة في غيرها من الفقه والأُصُولين- أصول الدين، وأصول الفقه- وعلوم اللسان من نحو ولغة، وأدب، بعقول مفتوحة، وصدور مشروحة، وقلوب لا تعرف الحقد ونفوس يشع منها الحب والصفاء، وألسنة مبرأة من النطق بالغثاء والهراء.

---

(١) مجلة رابطة العالم الإسلامي، السنة التاسعة، العدد الثالث، جمادى الأولى ١٣٩١هـ، يوليه ١٩٧١م.

(٢) ليس هو محمد علوي المالكي الصوفي الجلد شيخ الجفري المبتدع الضال، لا كَثَّرَ اللَّه أتباعهما. [الناشر].

(٣) قالها الشيخ رحمه اللَّه من باب الدعاء، فهي لا تجوز إخبارًا؛ لأن هذا غيب لا يعلمه إلا اللَّه. [الناشر].

فلا تطاول، ولا استعلاء ولا همز، ولا لمز، ولا تنابز بالألقاب، ولا غيبة ولا نميمة، وإنما هي مجالس لله، وفي الله، وللعلم وفي سبيل العلم.

والسيد الشيخ علوي المالكي - رحمه اللّٰه وأثابه - يمثل مدرسة قديمة أصيلة درست علوم الإسلام كما ينبغي أن تدرس وقرأت بإمعان، وتأمل المتون، والشروح،والحواشي، والتقارير، ومن رجال هذه المدرسة على سبيل المثال، لا على سبيل الاستقصاء: العالمان الجليلان المغفور له السيد العلامة الشيخ محمد العربي المغربي رأس هذه المدرسة، والسيد الحيي الوقور الشيخ محمد أمين كتبي أحد تلاميذها حفظه اللّٰه ورعاه وغيرهما كثير.

ولم يقطع رجال هذه المدرسة صلتهم بما استجد من علوم، ومباحث، وبما يجرى في العالم الإسلامي من اتجاهات علمية، وتيارات فكرية، ولكن كل ذلك كان بقدر، فقد كانت جل عنايتهم - كما قلت - بالثقافة الإسلامية الأصيلة، والمهارة في فهم كتبها، والحفاظ على هذه الثقافة الممثلة في كتبها القديمة من أن تندرس، أو تستعجم على طلاب العلم وهذه المدرسة في الحرمين، وفي غير الحرمين، وفي مصر، وفي غير مصر، وفي الأزهر الشريف المعمور، وفي غير الأزهر من الجامعات الإسلامية القديمة كجامعة الزيتونة وجامعة القرويين، لها فضل لا ينكر، وإنما يذكر بالتجلة والإكبار، ويشكر، فقد حفظت لنا الثقافة الإسلامية من الاندثار وحفظت لنا هذه الثروة العلمية الضخمة التي يصفها بل يسميها بعض الجهلاء المفتونين بالكتب - الصفراء - وفيها كثير نفع وعلم غزير، وكانت هذه المدرسة هي البرزخ الذي جازت عليه العلوم الإسلامية الأصيلة، فوصلت ما بين السلف والخلف حتى كانت هذه النهضة العلمية المباركة التي تنتشر في العالم الإسلامي المعاصر.

لقد كان حجاج بيت اللّٰه الحرام، وعماره ومجاوروه الذين شدوا الرحال إليه طلبًا للعلم الإسلامي وحملًا له من علماء أول بيت وضع مشرفًا في الأرض، يجدون في رجال هذه المدرسة ما يقوي الإيمان، ويغذي الروح، ويصقل النفوس، وَيُقَوِّم السلوك، ويهذب الأخلاق، ويتعلقون بهم - كما شهدت بعيني - أكثر من تعلق الابن بأبيه، ويكرمونهم تكريمهم لآبائهم بل أشد وكان هؤلاء العلماء يفسحون لهم من صدورهم ويفتحون لهم

قلوبهم، بعد أن يفتحوا لهم أبواب بيوتهم، ومن كل قطر ومصر، ومن الشرق والغرب يرون في تقبيل أيادي شيوخهم عبادة، لأنهم لا يكرمونهم لذاتهم، وإنما يكرمونهم لعلمهم، والله ورسوله كرما العلم وكرما العلماء، وفي حمل نعالهم شرفًا لا يدانيه شرف، وفي كلمة تقدير يسمعها منه وسامًا دونه أي وسام اليوم، وفي - الإجازة - التي يمنحونهم إياها شهادة دونها أي شهادة وقد كانت هذه التقاليد الكريمة، وهذه الآداب العالية، وهذه الصلات الشريفة في الأزهر الشريف بجامعته، ومعاهده، وفي الحرمين الشريفين، وفي الجوامع العلمية - في الشرق والغرب - أمورًا طيبة إلى عهد قريب ولا تزال إلى وقتنا هذا، ولكن في حدود أقل من القليل. . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. .

لما ذهبت إلى الحرمين الشريفين، وأنا بالجامعة الإسلامية بأم درمان، في صيف عام ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م معتمرًا وزائرًا، وأقمت بمكة بضعة أيام، كنت حريصًا على أن ألتقي بالسيد علوي المالكي وإخوانه الكرام، حتى أني طفت بالحرم المكي باحثًا عنهم، ومُنَقِّبًا، لنجدد عهدًا مضى، ونتذاكر ذكريات خَلَتْ، وما أَسِفْتُ على شيء أسفي على عدم اللقاء.

وقد قابلني نجله الكريم الذي كان يدرس بالدراسات العليا بكلية أصول الدين بعد عامين بالقاهرة، وأبلغني أسف والده أنه لم يلقني، وأنه أرسله إلى «جده» كي يلحقني ويبلغني رغبة المرحوم والده بالبقاء قليلًا ببلد اللّٰه الحرام، ولكن الطائرة كانت أسرع من تحقيق الرغبة، وإمكان اللقاء، ولئن عز اللقاء في دار الفناء، فسيكون غدًا - إن شاء اللّٰه - في دار البقاء.

لئن كان عالَمَنَا المعاصر يتسم بسمة الجحود وعدم الوفاء، فلا ينبغي أن يكون هذا أبدًا بين العلماء، وليس أدل على هذا الوفاء، مما أقوم به اليوم من هذا الرثاء، إن نفسي لتتفطر أسىً وحزنًا على ما يجري الآن، يموت عالم من العلماء الورعين الأتقياء الذين ملأوا أوطانهم هداية وعلمًا، ونورًا، وإرشادا، وليسوا بالمغمورين في غير الأوطان فيكون غاية ما يذكر به بعد حياة حافلة بالعلم، والتأليف، والكتابة - كلمة تكتب في مجلة يكون له بها صلة، أو نعي ينشره أهله في صحيفة، ثم بعد ذلك يسدل الستار بينما يموت مُغَنٍ، أو مغنية، أو راقصٍ، أو راقصة، أو مهرج، أو مهرجة فإذا صحافة البلد تقوم قيامتها، بل وتتجاوب معها الصحافة في كل مكان.

لا، لا ما هكذا يا سعد تورد الإبل.. وما هكذا يا قوم يكون الجحود والنسيان. لئن فاتني أن أقوم - يا أخي علوي - بحق الإخاء، بتشييع جنازتك، وإلقاء كلمة رثاء فلن يفوتني أن أسجل حق هذا الإخاء، وكلمة الرثاء في مقال سيبقى ما بقي مسلم على وجه هذه الغبراء، وسيقرؤه الألوف حتى يعلموا: أن الوفاء إن جاز أن يضيع بين الناس، فلن يضيع بين العلماء، وها أنذا قمت بما يجب على مصر بلد الأزهر المعمور بالأصالة عن نفسي، وبالنيابة عن إخواني العلماء، فهلا يقوم من كل مصر وقطر من يشيد - في شخصك - بحق العلم والعلماء؟!.

بحسبك - يا سيد علوي - ما يزيد عن نصف قرن قضيته في ربوع المسجد الحرام، طالبًا ومدرسًا، وهاديًا ومرشدًا، وإذا كان اللّه تبارك وتعالى جعل المسجد الحرام مثابة للناس وأمنًا، فكيف لا يكون أمنًا، وأمانًا يوم الحساب لأهل العلم والعلماء.

بحسبك - يا سيد علوي - الألوف الكثيرة التي حضرت دروسك، ونهلت من معينك، وتخلقت بخلقك، وتعلمت من علمك ثم رجعت إلى قومها هادية ومعلمة ومبشرة ومنذرة وداعية لك بالمغفرة والأجر الجزيل.

لن نسترسل في الدمع ولا في البكاء، فما هذه شيمة العلماء، ولكنا نقول - كما علمنا ربنا، وأدبنا خالقنا الذي منه مبتدأنا وإليه معادنا، وبيده نفوسنا وأرواحنا و﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

ونقول كما قال سيد الأتقياء، وإمام الأنبياء- يوم مات ولده إبراهيم الذي رزقه اللّه إياه على شوق وكبر، ثم فجع فيه، فما زاد على أن قال -: «العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون».

وقال - لولا أنه أمر حق، وموعود صدق لحزنا عليك يا إبراهيم - حزنًا شديدًا.

فنم في جوار ربك آمنًا مطمئنًا راضيًا مرضيًّا.

اللهم يا مكرم العلم والعلماء، أكرم عبدك - عُلْويًّا - في مثواه، وصب عليه شآبيب رحمتك صبا، وبارك له في ولده حتى يكون حياة موصولة لأبيه، وصور صادقة لآبائه وأجداده، وحقق فيه، ما كان يرجوه له أبوه، سبحانك ربي أنت الأول، وأنت الآخر، وأنت الظاهر، وأنت الباطن، وأنت على كل شيء قدير.

من أعلام اللغة والأدب في العصر الحديث
إمام اللغة وصاحب الأيادي على الأدب:
الشِّيْخ حَمْزَةُ فَتْح اللَّهِ

هو الشيخ الوقور ، اللغوي الحجة التقي الشيخ : حمزة فتح الله، المفتش الأول للغة العربية بوزارة المعارف المصرية .

ولد رحمه اللَّه بثغر الإسكندرية سنة ١٢٦٦هـ (١٨٤٩) م ، ونشأ بها وبعد أن حفظ القرآن الكريم انتظم في سلك طلبة العلم بجامع الشيخ إبراهيم باشا ثم أكمل دراسته بالأزهر الشريف وأمعن في قراءة الأدب واللغة ، وقرض الشعر وحرر الرسائل ، وحفظ الغريب ثم عاد إلى الإسكندرية واختير في منتصف العقد الثالث من عمره محررًا في إحدى الصحف التونسية فمكث هناك حوالي ثماني سنوات اكتسب فيها الدربة على كتابة الصحف السياسية ، ثم عاد إلى مصر فوجد نار الفتنة العرابية مستقرة فانضم إلى حزب الخديوي توفيق ، وكتب وخطب في تأييده ، وعهد إليه بعد ضرب الإسكندرية في إصدار صحيفة تكون لسان حال الخديوي توفيق ، وتهدئ الخواطر ، وبعد أن انتهت الفتنة العرابية استخدم في وزارة المعارف ومكث بها زُهاء ثلاثين سنة متنقلًا بين التفتيش والتدريس ، حتى كان في سنة ١٢٨٨هـ - ١٩١٠م مفتشها الأول للغة - للغة العربية- وفي غضون تلك المدة ندبته الحكومة مرتين لحُضور مؤتمر المتعربين ممثلا لها لما لها فيه من الثقة ، ولما له من غزارة المادة وسعة الاطلاع ، ثم أحيل إلى المعاش واستمر مشتغلًا بمدارسة العلم حتى بعد أن كُفَّ بصره ولم يثنه عن ذلك إلا ما فاجأه من الموت في جمادى الأولى ١٢٩٦هـ - فبراير سنة ١٩١٨م .

علمه وأعماله : كان الشيخ - أكرم اللَّه مثواه - كثير القراءة في كتب اللغة ، والأدب والحديث شديد الحفظ والذكر قلما تحدث أمامه حادثة أو تذكر إلا روى فيها شعرًا أو مثلًا أو قصة وكان فَكِهَ المحاضرة صحيح العبارة يحوكها على سند العربية الفصيحة ، وهو أملأ من شاهدناه باللغة والأدب والصرف عهد إليه بالتدريس في دار العلوم فأحيا بتدريسه وتأليفه ما دثر من آثار السالفين كالجاحظ ، والمبرد ، والقالي ، والمرتضى ، فأظهر ما كان ذلك في مواهبه الفتحية .

أسند إليه تفتيش اللغة العربية في مدارس الحكومة على اختلاف أنواعها فرأى المجال فسيحًا لتخليصها من أدران العامية وأوضار الدخيل وفساد التراكيب وعجمة الأساليب ، فأخذ يرشد المعلمين إلى ما يعثر عليه من ذلك في كتابة التلاميذ ويتحفهم بمراجعه تارة ويرشدهم إلى المظان أخرى ، فتنبه بذلك الغافل ، ودقق المتساهل ، واتهموا أنفسهم في كل كلمة وحاسبوها على كل جملة وعكفوا على مراجعة معجمات اللغة بعد أن طال هجرها ووقفوا عند نصوصها ناسجين على منوال الشيخ من الوقوف عند السماع دون القياس ، بل تغالى بعض المفتونين منهم وتعدوا طورهم فجعلوا يقولون : لا توجد هذه الكلمة في اللغة ، ولو وجدت في شعر فحول الأدباء من أهل القرون الأولى ولعلهم لم يعرفوا من اللغة أكثر من طريقة الكشف في معجماتها على ندرة المطبوع منها فلقي المؤلفون والأدباء وبلغاء الناس منهم بلاء عظيمًا وعنتًا مقيتًا .

أخلاقه : كان الشيخ حليمًا رحيمًا ، تقيًّا ورعًا ، لا تأخذه في اللّٰه لومة لائم ، صالحًا مهذبًا يميل إلى الصالحين من المعلمين ، ويحارب من يشاع عنهم التهاون بشعائر الدين ، وربما سعى في فصلهم من عملهم ، يعمل ذلك ولا غاية له إلا إحاطة النشء بسياج الفضيلة ، حتى لا يتسرب إليهم الزيغ في زمن قد كثر فيه أنصار الرذيلة وقَلَّ طلاب الفضيلة .

وكان – جزاه اللّٰه خيرًا – يحب العرب والعربية ، ويرى أن اللّٰه قد خصهما بكل مزية ، وأن جميع ما يتجدد من أنواع المدنية الحديثة قد سبق إلى نوعه العرب وأن لا سمة مرادفًا في لغتهم، يعرف ذلك من خالطه وقرأ مواهبه .

مؤلفاته : مما عرف من مؤلفاته كتاب المواهب الفتحية في علوم اللغة العربية، وباكورة السلام في حقوق النساء في الإسلام ، ورسالة في التوحيد ، وأخرى في الخيل ، وكُتَيِّب في المفردات الأعجمية التي في القرآن .

شعره وكتابته : كان بدوي الشعر من حيث ألفاظه ومعانيه وتراكيبه وأساليبه وتشبيهاته واستعاراته على طريقة شعر العلماء ، ولم نرَ له شعرًا مدونًا إلا قصيدته البائية التي اختتم بها مؤتمر العلوم الشرقية ، المنعقد باستكهلم أواخر سنة ١٣٠٦هـ ، سنة ١٨٨٩م .

أما كتابته فيؤخذ مما عثرنا عليه منها أنه كان لا يلتزم فيها طريقة واحدة بل تارة تكون

سهلة يكثر فيها السجع وإن لم يلتزم غالبًا وآونة تكون ضخمة الألفاظ غريبتها عليها مسحة التعمل والتكلف أكثر ما كان ذلك في توقيعاته .

نموذج من شعره :

« أولها » :

فلو شهدت عبابا خضت لجته   على سفين بجنح الليل خباب

ومنها :

كم جامع بالثريا راضته سفر   فوق الثرى بين أكوار وأقتاب
ومن بغى نيل مجد وهو في دعة   فقد بغى من صفاة در وأحلاب
والمرء ف موطن كالدر في صَدَفٍ   والتبر في معدنٍ والنبع في غاب
والسيف مثل العصا إن كان مغتمدًا   وزامر الحي لا يحظى بإطراب
وأزهدُ الناسِ في علم وصاحبه   أدنى الأحبة من أهل وأصحاب

نموذج من نثره :

ومن رسائله ما كتب به إلى السيد توفيق البكري يمدحه :

إعـادة العَـرَض يوم العَـرْض

مسألة كلامية ثارت فيها عجاجة الكلام ، بين علماء الكلام فمن إيجاز وإطناب في سلب وإيجاب « وتعلم أنت أن الألفاظ أعراض سيالة » ، لكنني آمنت عِيانا ، أن اللَّه تعالى يحيي الموتى أعراضًا وأعيانًا ، إذ كانت كتبك زيادةً في البرهان والبيان وإن كان خبر المعصوم أوثق من الحس في النفس ، فأنشد اللَّه امرءًا شيمته العدل ، والقول الفصل ، أليست كتبك هذه حجة للموجب دامغة للسالب ، أليس ذلك البيان غاية شأو قس وسحبان ، أليس قصارى ابن العميد وحمادى عبد الحميد ؟ وبعد فقد أعيد العرض الذي هو الكلام في الدنيا ، ففي الأخرى أحرى ، فتراني يا مليك اليراعات ، وقَسُوم تلكم الغايات ، أسِفًا على ضن الزمان بك إلى الآن ، فلو أن اللَّه تعالى براك ، وخلقك فسوَّاك ، حين استعر الخصام ، في هذا المقام لما اختلف في شأنه اثنان ، ولا انتطح عنزان .

فرحمه اللَّه رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته . وآخر دعوانا أن الحمد للَّه رب العالمين .



فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**

